

السيدجمال الدين الحسيني

الرسائل والمقالات

اعدادو تقديم :

سيدهادى خسروشاهى



الاعمال الكاملة
٦

السيدجمال الدين الحسينى

الرّسائل و المقالات

الطبعه الاولى

اعداد و تقديم:
سيدهادى خسروشاهى

الاعمال الكاملة

۶

جمال الدین اسدآبادی، ۱۲۵٤؟ - ۱۳۱٤ ق.
الرسائل و المقالات / جمال الدين الحسيني؛
اعداد و تقدیم هادی خسروشاهی. ــ تهران: کلبه شروق؛ قم: مرکز البحوث الاسلامیه، ۱۳۷۹.
۲۳۲ ص.: نمونه ــ (الاعمال الكاملة؛ ۶)   ۲۰۰۰۰ ریال: ISBN 964 - 92729 - 8 - 4
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا عربی. کتابنامه به صورت زیرنویس.
۱. جمال الدین اسدآبادی، ۱۲۵٤؟ - ۱۳۱٤ ق. ــ مقالهها و خطابهها. ۲. اسلام ــ تجدید حیات فکری ۳. ایران ــ تاریخ ــ انقلاب مشروطه، ۱۳۲٤ - ۱۳۲۷ ق. ٤. اصلاح طلبان. الف. خسروشاهی، هادی ۱۳۱۷، گردآورنده ب. عنوان.
۵ ر ۸ ج / DSR ۱٤٤۳   ۹۵۵ / ۰۷٤۰۹۲
کتابخانه ملی ایران   ۲۹ - ۹۶۸۲ م

ناشر: کلبهٔ شروق   مرکز البحوث الاسلامیه

نشانی مرکزی، تهران: مقابل دانشگاه شماره ۱۳۷۸ (صندوق پستی ۱۹۶۱۵/۲۹۳)
نشانی واحد قم: خیابان صفائیه ساختمان مرکز بررسیهای اسلامی (صندوق پستی ۳۷۱۸۵/۳۳۲۳)

الرسائل و المقالات

السيد جمال الدين الحسيني (الافغاني)

اعداد و تقدیم: سیدهادی خسروشاهی

لیتوگرافی، چاپ و صحافی: الهادی ـ قم
چاپ اول: ۱۳۷۹
تعداد: ۲۰۰۰ نسخه
قیمت: ۲۰۰۰ تومان

شابک: ۴ - ۸ - ۹۲۷۲۹ - ۹۶۴

الفهرست

رسائل و مقالات

مجموعه «رسائل و مقالات» به زبان عربی، درواقع دومین مجموعه از مقالات و آثار: فکری، فرهنگی، سیاسی و اجتماعی سیدجمال‌الدین حسینی ـ اسدآبادی است که به تناسب زمان و در مکان‌های مختلف از جمله: هند، ایران، مصر، افغانستان، فرانسه و انگلیس، آنها را به رشتهٔ تحریر درآورده که در جرائد و مجلات آن دوران و آن کشورها، به چاپ رسیده است...

مجموعه اول «رسائل و مقالات» که شامل تقریباً تمامی مقالات و رساله‌های بدست آمده سید به زبان فارسی است، چندی پیش تحت همین عنوان: «مجموعه رسائل و مقالات» در ۳۲۰ صفحه و در ضمن همین سلسله: «الاعمال الکامله» ـ مجموعه آثار ـ منتشر گردید و مورد توجه و استقبال اهل علم و فضل و دوستان حق و حقیقت واقع گردید.

اینک و برای نخستین بار مجموعه تقریباً کاملی از مقالات و رساله‌های عربی سید (که هیچکدام از آنها در مجموعه فارسی نیست) در اختیار علاقمندان قرار می‌گیرد و البته این مجموعه عربی، غیر از مجموعهٔ دیگری از چند رساله و بحث سید به عربی است که با توجه به موضوعات فکری ـ فلسفی آنها، تحت عنوان: «رسائل فی‌الفلسفة و العرفان» با تحقیق و مقدمه اینجانب، چندی پیش چاپ و منتشر گردید و در عرض مدت کوتاهی، به چاپ دوم رسید و چاپ دوم آن، با اضافاتی (۳۲ صفحه) شامل در مقدمه تحلیلی و یک ملحق تحقیقی، یک ماه پیش از سوی «مرکز بررسیهای اسلامی» قم، انتشار یافت.

...البته همانطور که اشاره شد، مقالات این مجموعه ـ رسائل و مقالات ـ تاکنون

بصورت یک کتاب مستقل چاپ نشده است و بلکه بعضی از آنها، برای نخستین بار در سالهای اخیر از زبانهای فرانسه و انگلیسی به عربی ترجمه شده و در بعضی از مجلات عربی چاپ اروپا، منتشر گردیده است که اینک به یاری خدا، مجموعه کامل آنها، یکجا و در این مجموعه، در اختیار عموم قرار می‌گیرد.

در مورد منابع و مأخذ اصلی مقالات این مجموعه، علاوه بر اشاره‌های گذرا در پاورقیها، بزودی درکتاب مربوط به «آثار سید» به تفصیل بحث خواهد شد و اکنون به دلائلی، از ذکر آن منابع، خودداری می‌شود.

***

... هدف نخستین ما از نشر این آثار: «الاعمال الکامله» ـ مجموعه آثار ـ درواقع جمع‌آوری و حفظ مکتوبات و مقالات سیدجمال‌الدین حسینی است که متأسفانه در گذشته، توجهی به‌این امر نشده و در جمع‌آوری و تحقیق آنها، کوتاهی بعمل آمده است...

پس از این مرحله، امیدواریم که توفیق نقد و ارزیابی، بررسی و پژوهش این آثار فرار برسد و دانشمندان و فضلای حوزه‌ها، این آثار را ــ «بمثابه ادبیات اسلامی» یک قرن و نیم پیش که موجب حرکتی بزرگ: انقلابی ـ اصلاحی، در اغلب کشورهای شرق و یا مسلمان‌نشین شده است و در واقع نشان دهنده، چگونگی اندیشه‌های یک متفکر بزرگ‌مسلمان است ــ موردتحقیق وتدریس در حوزه‌ها و حلقه‌های درسی، قرار دهند.

استاد محمدرضا حکیمی درباره کتاب «العروة الوثقی» و دیگر آثار سید می‌نویسد: «این کتاب عروهٔ اجتماعی و امثال آن، باید جزو کتب درسی حوزه‌ها قرار گیرد و همینگونه روحانیت اسلام و بویژه طلاب جوان باید درباره سیدجمال‌الدین مطالعات بسیار داشته باشند. چرا باید افکار اجتماعی ـ اسلامی سید جمال‌الدین در حوزه‌های علمیه، درسی نباشد و مورد رسیدگی و تأسی قرار نگیرد؟».

...از خدای بزرگ می‌خواهیم که ما را در این کار خیر یاری دهد و «نیت» ما را «خالص» برای «خود» بدارد. انه سمیع مجیب

قم: مرکز بررسیهای اسلامی
ربیع‌الاول ۱۴۲۱ هـ. سیدهادی خسروشاهی

الرسائل و المقالات

إن مجموعة «الرسائل و المقالات» التي نضعها بين أيديكم باللغة العربية، هي المجموعة الثانية من مقالات و آثار السيدجمال‌الدين الحسينى الافغاني، الفكرية و الثقافية و السياسية والاجتماعية و قد قام السيد بكتابتها في فترات زمنية مختلفة و أماكن عديدة كالهند و ايران و مصر و افغانستان و فرنسا و بريطانيا و تمت طباعتها و نشرها في صحف و مجلات ذلك العصر، في البدان المذكورة...

المجموعة الأولىٰ التي تتضمن تقريباً كافة مقالات و رسائل السيد الموجوده باللغة الفارسية، تمّ اصدارها قبل فترة تحت عنوان «مجموعۀ رسائل و مقالات» في ٣٢٠ صفحة بإطار سلسلة «الأعمال الكاملة» وكانت محط إهتمام و ترحيب اهل العلم و الفضلاء و محبيّ الحق و الحقيقة.

والآن و للمرة الاولىٰ في ايران، يسرّنا أن نقدم للراغبين بالاطلاع علىٰ أعمال السيد، المجموعة الكاملة تقريباً، لمقالاته و رسائله ـ غير المتوفرة في المجموعة الفارسية ـ و طبعاً تضاف هذه المجموعة، الىٰ مجموعة أخرىٰ من رسائل و أبحاث السيد بالعربية، كُنا سبق و أن نشرناها قبل فتره تحت عنوان: «رسائل في الفلسفة و العرفان» مرفقة بدراسة و مقدمة و خلال فترة وجيزة قام «مركز البحوث الاسلامية ـ قم» بإصدار الطبعة الثانية منها مع إضافة ـ ٣٢ صفحة ـ تضم مقدمتين تكليليتين و ملحق إضافي يتضمن دراسة جديدة حول رسالة «مرآة العارفين» و النسخة الخطيّة الاخرى التى وجدناها فى مركز وثائق الوزارة الخارجية، للجمهورية الاسلامية في ايران...

وكما أشرنا فإن مقالات هذه المجموعة ـ الرسائل و المقالات ـ لم تصدر، على شكل مجموعة واحدة و بكتاب مستقل، إذ أنّ بعض منها ترجم للمرة الاولىٰ في السنوات الأخيرة، من اللغتين الفرنسية و الانكليزية الىٰ العربية و نشر في بعض

المجلات العربية الصادرة في اوروبا و هانحن بعون الله، نضع الآن المجموعة الكاملة منها، بين يدي القّراء الاعزّاء.

أما المصادر و المراجع الرئيسية لمقالات هذه المجموعة، فقد أشرنا الى بعضها، بصورة عابرة فى الهوامش و سنتناولها بالتفصيل في الكتاب الخاص الذى ستصدره حول: «آثار السيد» و قد إمتنعنا عن التطرق الىٰ هذه المصادر، حالياً لأسباب خاصة!...

و في الحقيقة إن هدفنا الأول من إصدار «الأعمال الكاملة» لم يكن سوىٰ جمع و حفظ الآثار و المقالات للسيدجمال‌الدين الحسيني و التى ــ و يا للأسف ــ لم يكترث بها العلماء في السابق و لم يجرى جمعها و دراستها او ترجمتها الى اللغات الأخرى...

بعد هذه المرحلة، يحدونا الأمل بأن الوقت قدحان لنقد و تقييم هذه الآثار فينبرى العلماء و الفضلاء في الحوزات العلمية، بدراستها و ترجمتها و تدريسها في الحلقات الدراسية، لأنها تعتبر بحق بمثابة «الادب الاسلامى الاصيل» الناتج من الثقافة الاسلامية الغنية و التي أدت الىٰ قيام حركة اسلامية ـ اصلاحية كبرىٰ في أغلب بلدان الشرق و البلاد الاسلامية إذ أنها في الحقيقة عصارة أفكار أحد ابرز المفكرين الاسلامين الكبار!...

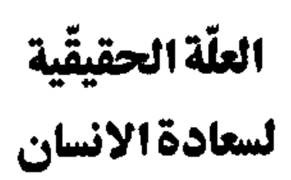
يقول الأستاذ محمدرضا حكيمى حول آثار السيد و «العروة الوثقى»: «إن هذا الكتاب، العروة الإجتماعية و أمثاله، ينبغي أن يُدرّس في الحوزات العلمية كما إن علىٰ رجال الدين المسلمين و خاصة الطلاب الشباب، أن يقوموا بإعداد دراسات كثيرة حول السيدجمال‌الدين... لماذا لا تُدرس الأفكار الإجتماعية و الإسلامية للسيد جمال‌الدين في الحوزات العلمية و لاتكون قدوة و نبراساً للجيل الصاعد؟».

...نسأل الباري عزوجل، أن يأخذ بأيدينا لإنجاز هذا العمل الخيري و ان يجعل «نوايانا»، «خالصة» له جَلّ و علىٰ. إنه سميع مجيب

قم: مركز البحوث الإسلامية

ربيع‌الاول ١٤٢١ هـ سيدهادي خسروشاهي

١



العلّة الحقيقيّة لسعادة الانسان



العلة الحقيقية لسعادة الانسان

ان الممكن بالامكان الخاص (و هوالذى لايلزم من وجوده ولامن عدمه محال) يكون وجوده بوجود علّته و عدمه لعدمها، ولاريب فى أن السعادة من الماهيّات الممكنة بالامكان الخاص، و أنّها العلة الغائبة لحركة كل فرد من افراد الأنسان حسّية كانت تلك الحركة او معنوية اذ لولوحظت مساعيه آناءَ الليل و أطراف النهار، و أخذه بوسائل الحرف من زراعة و صناعة و تجارة، وجده في تحصيل العلوم والفنون، و ارتكابه المصاعب، في نيل المراتب والمناصب، لما وجد لها من باعث أو داع سوى طلب السعادة، مع أنك لاتجد من نالها أو دنامنها، ولو تنقل في مراتب الشئون، و تقلب في درجات التطورات، و ما ذلك إلا لعدم تحقق علتها، فعلينا أن نبحث عن تلك العلة و عن الاسباب التى أوجبت عدم تحققها، حتى يتبين وجه ضلال طُلاَّب السعادة عن أن يصيبوها فنقول:

إذن بين السعادة والصحة شبهاً كليًا، فكما أن صحة الجسم هي نتيجة و معلولة للتناسب الطبيعي بين أعضاء ذلك الجسم و جوارحه وكمال الاعتدال فيما تكونت عنه تلك الأعضاء، و حسن قيام كل عضو منها بأداء وظيفته مع مراعاة اللوازم والشروط الخارجية من الزمان والمكان و المطعم والمشرب والملبس فيكون زوالها لزوال هذه الأمور كلها أو بعضها ـ كذلك سعادة الانسان هي معلولة للتناسب

الحقيقي في الاجتماعات المنزلية، و قيام كُلٍّ من أركان المنزل بأداء وظيفته، وللتعادل التام في الائتلافات المدنية بأن تكون المدينة فيها من الحرف و الصنائع ما يكفيها مُؤنَة الافتقار من دون نقص أو خروج عن حد حاجتها، مع حسن التعامل بين أرباب تلک الصنائع، و أن تكون أحكامها تحت قانون عدلٍ تساوى فيه الصغير والكبير، والأمير والمأمور، وللارتباطات العادلة بين الدول بأن تقف كل دولة عند حدها، ولا تتعدى على حقوق غيرها، و أن يُمَهَّد سبيل التواصل بينها و بين باقي الدول لكمال التعاون والتوازر بين نوع الانسان وانتفاع كلٍّ من الآخر، فيكون حصولها على السعادة بحصول تلک الأمور و فقدها لفقد جميعها أو بعضها.

و هذه الأمور، و إن كانت ممكنة الحصول، وجد الناس في التماسها ما استطاعوا إلاّ أن هناک مانعا من الوصول إليها، و هو اعتقاد كلٍّ كمال نفسه و نقص غيره، و نظره إلى أفعاله بعين الرضى و إلى أفعال غيره بعين السخط، وزعمه أنه ما حاد عن حد الاعتدال ولا أخَلَّ بشيء من واجباته و شئونه، ولا تقاعدت همته عن أداء وظائفه في العالم الانساني، و يتمحل لاثبات ذلک بما تسوله له نفسه من الحجج والبراهين، و إن أصابه العناء، و نزل به الشقاء، حسبهما من تعاون الغير فيما يلزمه و إهماله ما يجب عليه، مُبَرِّئا نفسه من أسباب ذلک، حتى لو أغفل شأناً من شئونه يزعم أنه قد سدت أبواب الامكان، و تعذر عليه القيام به، ولو انتهک محظورا من محظورات لادعى أنه لااختيار له فيه، وانما الضرورة هي التي ساقته الى ارتكابه، فهو مجبور لامختار، مع أنه لا يلتمس للغير عذرا فيما يفوته أو يقع منه، ولو كان في نفس الأمر مجبورا. و من ثم وقع التضارب في الآراء والتدافع في الأفعال والحركات، و عمل كُلٌّ على نقيض الآخر، فارتفع التناسب، وانعدم التعادل، و ذهب الارتباط.

أنظر إلى حال الآباء مع الأبناء، والسادات مع الخَدَمة، كيف أن كلاً منهم، مع علمه بأن السعادة المنزلية إنما تُحَقَّق بأدائه ما يجب عليه، و جعل حركته من متممات حركات الآخر، يخالفه في أفعاله، و يضاده في آرائه، معتقدا أنه لو لم يقصِّر ذلک الآخر في أداء الحقوق المفروضة عليه، لاستقرت الراحة المنزلية، وارتفع العناء ـ إلى

حال المشتركين في المدينة فإن كل واحد مع جزمه بأن الراحة والنجاح إنما يكونان بإحكام الصنعة و تهذيبها و حسن التعامل، و كف يدالشر والخيانة، و ضبط العهود والمواثيق، و اجتناب الكذب والاعتصام، يحبب الصدق والوفاء لا يرى نفسه مُخلاً بشيء من ذلك و إن أخَلَّ بجميعه، و يزعم أن زوال السعادة المدنية إنما جاء من تهاون الآخرين.

و تدبر حال الملوك مع رعاياها ترى كلاً منهما يرمى الآخر بالاغراق و عدم الاعتدال، و يتهمه بانتهاك المحارم والحقوق، و يبريء نفسه من نسبة شيء من ذلك إليها.

فالملوك فضلا عما رسخ في نفوسهم من أن رتبتهم الملوكية، إنما هي رتبة سماوية ساقتها إليهم يدالعناية الالهية، بسبب طيب عنصرهم، و طهارة طينتهم، يعتقدون أن لا قوام للرعية بدون وجودهم، و أن لاغنى لها عنهم، إذْهُم يحفظون أموالها، و يحقنون دماءها، و يوفون لكل ذي حق حَقَّه، و ينتقمون للمظلوم في أموال الرعية و دمائها، و أنه يجب عليها طاعتهم، والخضوع لسطوتهم و سلطتهم، و امتثال أوامرهم و اجتناب نواهيهم، و يرمون الرعية بالتقصير فيما يجب عليها.

والرعايا يخاطبونهم قائلين: لامزية لكم علينا كما زعمتم، ولستم أطهر عنصرا، ولا أطيب طينة، بل نراكم أناسا استولى عليكم حب الرئاسة و أسَرَتْكم الشهوة و استعبدكم الهوى، فاستمالكم إلى سلب راحتكم و راحة رعاياكم، حرصا على التغلب، و طمعا في توسيع دائرة السلطة، و كسب الافتخار مَيّتاً. و أما اعتقادكم أن لا قوام لنا إلاّ بكم فأنّى لكم صدق هذا الاعتقاد و قد أصبحتم كَلاًّ[1] على كواهلنا: نحن نغرس و نحرث، و نغزل و نَحُوك، و نفصّل و نخيط، و نبني و نشيد، و نخترع الصنائع، و نتفنن في المعارف، و أنتم تأكلون و تشربون، و تلبسون و تسكنون، و تتمتعون بلذة الراحة. و أما ما تعللتم به من حفظ أموالنا و حقن دمائنا إلى آخر ما

---

١. الكل (بفتح الكاف و تشديد اللام: التعب، أو الثقل).

ادعيتم، فذلک إنما نَشَأَ عن العظمة والكبرياء اللذين تَثْبُت أصولهما في نفوسكم، أفلا تعلمون أن الحارس والمرابط إنما هو مِنَّا، و أن الحافظ والحاقن والمنتقم إنما هوالقانون والشريعة الحقة. و ما أنتم إلاّ منوطون بحفظها، والعمل في‌الناس بها. فإن قمتم بذلک على وجه الاستقامة كان لكم علينا ما يقوم أودكم، فكيف ساغ لكم أن تلعبوا بأموالنا، و تعبثوا بدمائنا، و تلقوا بنا في هاوية الشقاوة، ثم تبتغوا طاعتنا و امتثالنا، و ترمونا بالتقصير والتهاون فيما وجب علينا.

وذلک الذي ذكرناه فيما إذا لم يكن الملوک من المتغلبين المباينين للرعايا جنسا و مشرباً، و أما المتغلبون من الملوک، والمتغلب عليهم، فكل منهما يزعم فوق ما ذكر أنه الوسيلة لمنفعة الآخر والواسطة لمصلحته، و أن الآخر قَابَلَ حسنته بالسيئة، و منفعته بالمضرة.

مثلا، إن الحكومة الانجليزية المتغلبة على الهنود تخاطبهم بقولها: إني عَمَّرت لكم المدن (كبمباي) و (كلكتا) و (كراجي) و أمثالها، و زينتها بالأبنية الشاهقة، والقصور الشائقة، و وطأت شوارعها، و وسَّعت مسالكها، و رقَّشتها بالاغصان، و زخرفتها بمروج و بساتين، و مهدت لكم سبل التجارة، و سهلت لكم أسباب الزراعة، و فتحت أبواب الثروة بما مددت من الأسلاک البرقية في أرجاء بلادكم، و انشأت من الطرق الحديدية في أنحائها، و حفرت من الترع والأنهار، و وضعت من القناطر، و كذلک أسست لكم المدارس، و رفعت عنكم ظلم النَوَّابين و قهر الراجاوات، و أنتم مع ذلک أبيتم إلاّ الشقاق والنفاق، و نبذ الطاعة و سلب الراحة...

و ان الهنود يجيبونها متظلمين مستغيثين منها قائلين لها: إنک ما عمَّرت تلک المدن إلاَّ بعد أن خربت بلاداً كانت زينة الأرض و فخارالأبناء: (شيو) و (وشنو) و (كهكلي) و (مرشدآباد) و (عظيم آباد) و (أكبرآباد) و (إله آباد) و (دهلي) و (رايبود) و (فيض آباد) و (الكهنو) و (حيدرآباد) و غيرها من البلدان، و إنک ما مددت الأسلاک البرقية، ولا أنشأت الطرق الحديدية، ولا حفرت الترع والأنهار، ولا وضعت القناطر، إلا لنَزْف مادة ثروتنا، و تسهيل سبل‌التجارة لساكني جزيرة

بريتانيا[1] و توسيع دائرة ثروتهم، و إلاّ فما بالنا أصبحنا على فقر و فاقة، و قد نفدت أموالنا، و ذهبت ثروتنا، و مات الكثير منا يتضور جوعا؟ فإن زعمتِ أن ذلك لنقص في فطرتنا، و ضيقٍ في مداركنا، فيا للعجب من أبناء (بريتوس)[2] الذين مضت عليهم أحقاب متطاولة يهيمون في أودية التوحش و التبربر، إذ يعتقدون النقص و عدم الاستعداد في أولاد (برهما) و (مهاديو)[3] مؤسسي شرائع الانسانية و واضعي قوانين المدنية.

و أما المدارس التي تَمُنِّين علينا بتأسيسها فلم تكن لمصلحة تعود علينا، إذْ لو كانت لذلک لاحتوت على العلوم والفنون والصنائع، مع أنها لم تنشأ إلاّ لتعليم اللغة الانجليزية المتعجرفة الخشنة لأبناء اللغة (السنسكريتية)، اللغة المقدسة السماوية، حتى تستميلهم في إدارة مصالحک في تلک الممالک الشاسعة.

و اما دعواک رفع ظلم النوابين و قهر الراجوات عنا، فممّا يضحک الثكلى، و يبكي المستيئس الذي جاءته البشرى، فإن الظلم إذ ذاک كان قاصرا على البعض، و ظلمک الآن قد عمَّ وطَمَّ، و إن الثروة والأبهة والجلالة والشأن التي يزدهي بها الآن أهالي بريتانيا كان المتمتع بها وقتئذ أبناء وطننا، إذ النوابون والراجوات وغيرهم من الأمراء و الكبراء، و حاشيتهم، و خاصتهم، كانوا من أبنائنا و مشاركينا في الجنسية. وكنا نتيه بهم فخارا على سائر الممالک والأقطار، فكيف بک أن تمني علينا بما مَنَنْت زوراً و مَيْناً[4]. و إنّا لانراک أيتها المتغلبة علينا إلا كالعَلَق[5] مصصت دماءنا، بل كالسَلاَّخ سلخت جلودنا لتتخذيها أحذية لنعال الريطانيين. على أنک لم تكتفي بهذا و ذاک بل تريدين أن تستعملي عظامنا النخرة لتصفية السكَّر في معاملک.

---

١. المقصود: بريطانيا، و قد يسميها السيد بالجزيره تصغيراً من شأن بريطانيا الكبرى!! كما كانوا يسمونها!

٢. أي البريطانيون.

٣. برهما و مهاديو يشيران الى الهنود في مواجهة البريطانيين.

٤. المين: الكذب.

٥. العلق: نوع من الديدان مصاص للدماء يعيش في الماء الآسن.

و تَبصَّر في شأن الملوک بعضها مع بعض فإن كل واحد منهم يرى بما أقيم من‌الحجج القاطعة أنه على صراط العدل وحَدِّ الاستقامة لايُقْدِمُ على محاربة، ولا يحجم عنها، ولا يضع غرامة، أو يأخذ من ممالک الآخر شيئا إلاّ و هو في ذلک محق عادل، مثلاً: ملک‌الروسيين [1] يحتج لحرب العثمانيين بأن أنين النصارى من رعاياهم قد ذهب براحته، و تجافى به عن مضجعه و حرک فيه حاسة الشفقة حتى دعته الرحمة الانسانية للأخذ بناصرهم و استنقاذهم من أيديهم، و تحريرهم من رق عبوديتهم، من... والعثمانيون يدحضون حجته قائلين (أولا) لو كنت ممن تحركهم الشفقة والرحمة لكان الأحق بنيلها رعاياک المتحدون معک في المذهب من أهالى (لهستان [2])، فما دعواک هذه الا محض الرياء و المواربة. و (ثانياً) إننا لا نعامل رعايانا إلاّ كمعاملة الآباء للأبناء بدون تفرقة بين مذهب و مذهب، و جنس و جنس. و أوضح دليل على ذلک بقاؤهم على مذهبهم، حافظين للغاتهم و جنسيتهم، ولو أنناكنا نفرق بين المذاهب والأجناس كما تدَّعي لحملناهم على رفض مذاهبهم، و تغيير لغاتهم، وكنا قادرين على ذلک في وقت لم يكن لک فيه إسم ولا رسم، بل لم تكن شيئا مذكورا.

و كذلک إمبراطور الفرنساويين بما ثبت عنده من‌البراهين البينة على طمع الجرمانيين و حرصهم و شرههم يرى لنفسه الحق في افتتاح الحرب عليهم. و امبراطورالألمانيين بما تحقق لديه من كِبْر الفرنساويين و عُجْبِهم، ومجاوزتهم الحد في أطوارهم، يحسب أن من الواجب عليه أن يضع عليهم غرامة باهظة، و يتسلط على قطعة واسعة من بلادهم لتذليل نفوسهم و إضعاف قوتهم، ليدفع بذلک شرهم، و يأمن على نفسه و أمته من تعدِّيهم.

و دقِّق النظر في شئون العقلاء و الحكماء، و ذوي الآراء و المذاهب الذين يعتقدون أن الحق واحد في نفس الأمر والواقع، لايتعدد، كيف أنهم بعد إتفاقهم على

---

۱. يشير الى قيصر روسيا في حربه مع تركيا التي اشتعلت عام ۱۸۷۷.

۲. بولنده.

أن القواعد المنطقية هي ميزان النظر، و بها يعرف صحيح الفكر من فاسده، قد انتهج كل واحد منهم منهجا و اتخذ مشربا يناقض به الآخر، و يعتقد أن دلائله المؤدية هي المنطبقة على ذلك الميزان و أن لا إنطباق لدلائل غيره عليه.

و أرْجِعْ البصر الى أحوال السارقين والقاتلين و نحوهم من مرتكبي الفواحش والشناعات في العالم الانساني ترى أنه لايصدر عمل من هذه الأعمال المجمع على قبحها من فاعلها إلا بسبب هذه الخُلّة الذاتية، أعني اعتقاده كمال نفسه والنظر إلى أعماله بعين الرضى ـ ضرورة أن الفعل إنما يكون بعد الارادة، التي لاتكون إلا بعد ترجيح الفعل على الترك و رؤيته خيرا منه، و هو عين الرضى به.

و من غرائب آثار هذه الخلة إبرازها لحقيقة واحدة بصور مختلفة في نظر شخص واحد على اختلاف مراتبه و شئونه، فإنك ترى زيدا من الناس مثلا و هو في رتبة دانية رؤوفاً بالفقراء، رحيما بالضعفاء، شفيقا على المظلومين، ذاماً للبخل وللشح، مادحا للكرم والسخاء، مهتما بقضاء حوائج ذوي الحاجات، مدعيا للعفة، كارهاً للانكباب على الشهوة، مستهزئاً بذوي التكاثر والتفاخر، مبغضا للكبرياء، متنفّرا عن الارتشاء، مشمئزاً من الاهمال في المصالح العامة، والتهاون في الواجبات ـ مستهيناً بالمستبدين بآرائهم، المعجبين بأقوالهم و أفعالهم، مستقبحا تقديم المفضول على الفاضل لغرض يعود على ذاته، مستبشعاً لاعطاء المراتب لغير أهلها و حرمان مستحقيها منها، لائما على الغضب و اسراع العقوبة، مستفحشاً للسفاهة والبذاء، محباً للوطن، محاميا عن الحرية، زاعما أنه لو آل الأمر اليه لقام بصلاح العالم. و إذا ارتقى إلى رتبة سامية تجده قسِيَّ القلب على الفقراء، زاعماً أن التكفف صناعة اتخذها أرباب السفالة والبطالة هرباً من عناء الكسب ـ جافيِ الطبع على المظلومين، مستدلا بأن المتظلمين أولو مكر ودهاءٍ (أورياء) يعلنون خلاف مايسرون، و يستترون تحت حجاب المسكنة والالتجاء للتغلب على حقوق غيرهم ـ بخيلا، شحيحا، متمسكا في ذلك بأن من مقتضيات الحَزْم أن تُحْرَز الأموال، و تودع المخازن لوقت

اللزوم أو (إن الكرم والسخاء قبيحان عند السويليين من الافرنج) ـ متوانيا فـي الأخذ بيد المحتاجين متعللا بتراكم الأعمال عليه في وظيفته المهمة، وعدم تمكنه من إسعافهم ـ شَرِهاً شهْوياً، محتجاً بأنه بشرهه و انصبابه الى الشهوة يؤدي حق الطبيعة ـ فخورا برتب و شئون ساعده على نيْلها البخت والصدفة، بدون استحقاق. مع أنه ما أدى حقها ساعةً من دهره مُرْضياً نفسه في ذلك بكـلمة «العـبد العـاجز» أو (افتخار أو لمون)[1] متكبرا، يظن أنه وقور من الواجبات، و أن عليه إقامة الحجاب على بابه، والذائدين عن أعتابه، قياما بحَقِّ رتبته و لازم شأنه ـ مرتشيا، يقنع نفسه بأن ما يأخذه حَقٌّ تبيح له الشريعة أخذه، إمَّا لأنه جعالة على عمله أو هدية من صديق ـ مهملا في المصالح العامة، متهاونا فيها، معتذرا بأنه من آحاد الناس، ليس في طوعه تقويمها. و ما من مساعد يعاضده عليها. و قد أدى الواجب على شخصه ـ مستبدا برأيه، معتقدا إنه قد بلغ من العقل والدراية الى حد تنحط دونه جميع أفكار العالم، و يقصر عن إدراك غايته مدى أنظارهم، مع أنه أعمى البصر والبـصيرة، لايرى ما تحت قدميه ـ مُقَدِّما للمفضول على الفاضل، مستندا إلى سلامة قلب ذلك المفضول ولين عريكته و طلاقة وجهه. أي أنه (يهزُّ له القاوون)، و في رواية (يمسح له جوخ) و أنه (سطري لجنابه العالي) ـ رافعا الى أسنى المراتب من لايليق لأدناها، حاسبا نفسه طبيبا روحانيا خبيرا بأخلاق العالم و طبائعهم، حكيما لاينظر في أعماله إلا الى المصالح العامة ـ غضوبا سريع العقوبة يحسبها سياسة و تدبيرا مَدَنياً ـ سفيها بذيئا، يرى أن الناس لايستحقون سوى قبيح فعله و فحش قوله، ولا يدركون مَزِيَّة الآداب، ولا يقدرون الأديب حق قدره ـ خائنا لوطنه، ساعيا في خَرابه و إذلال أهله (كأفيا لتيس اليوناني) و يعد نفسه في ذلك مجبورا ملجأ ـ طالبا للاستعباد،

---

١. كان السيد رحمه‌الله يملي، و قلما كتب بيده مقالا. وكان تلاميذه كاللقاني و أديب اسحق يكتبون كل ما يقوله حتى الكلم والأمثال العامية التي يمزج بها الكلام عادة كهذه الجمل في الموضعين، و كانت ذائعة في معاشري الحكام من الترك، ولكن أكبرهم الاستاذ الامام كان يتصرف في العبارة و يجيز ذلك السيد (هامش محمدرشيد رضا). أما كلمة «لمون» العامية هذه فهي «ليمون» الفصيحة.

متشبثا بأن الحرية لاتليق بالأهالي لعدم استعدادهم لها[١]، بل إنـها مـما يـوجب فسادهم لو نالوها ـ آيسا من صلاح العالم[٢]. إذ يراهم ـ لنقص قريحته ـ ناقصي الاستعداد فاقدي القابلية، يزعم أنه لو كان لهم نوع من التهيؤ للاصلاح لأتَمَّه لهم بسعيه و اجتهاده.

و من أغرب آثارها[٣] أن المتخلق بها، مع كونه متصفا بأرذل الأخلاق و أشنع الخصال، يعمى عن أنه متصف بها ـ مثلاً يكون قَسِيَّ القلب، و يعتقد نفسه رحيما، و متكبرا، و يرى نفسه متواضعا، و هكذا باقي الخصال مع أنه لو تلبس غيره بأدنى رذيلة لأدركها وشد عليه النكير فيها، حتى إنک ترى كل واحد «كأنه» قد جعل على إحدى عينيه نظارة معظمة (ميكرسكوب) ليقف على دقائق معايب معاشريه، و على الأخرى نظارة رصدية (تلسكوب) لئلا يفوته أعمال البعداء عنه، و على إحدى أذنيه موصلة الصوت (تليفون)[٤] لاستراق أخبار الناس كيلا يَـعْزب عـنه شيء من نقائصهم، و على الأخرى حافظة الصوت (فنوكراف) ليستحفظ قبائحهم، لئلا يغيب عنه شيء منها، و يقتدر على استحضارها وقت الحاجة عندما يتحرک دولاب حقده و حسده، مع أن أقرب الأشياء اليه نفسه. و هو لايرى شـيئا مـن معايبها، فهو أعمى حديد البصر و أصم قوي السمع.

فتعسا لها من خلة قضت على نوع الانسان بالاختلال و سوءالحال، و آذنـته بالشقاء والعناء، و أوقعت الخبط في الأعمال والخلط في الأقوال، و لَبَّست الحق بالباطل، والزائف بالصافي، والجيد بالردىء، و حسَّنت القبيح و قَبَّحت الحسن، و أبرزت المعوجَّ مستقيما والمستقيم معوجا.

---

١. الاشارة هناقد تكون للخديو توفيق الذي صرح بمثل هذا القول.
٢. البشر أو الناس.
٣. الضمير هنا يعود الى تلک الخلة، أو الاعتقاد بكمال النفس، أو ما نسميه: الغرور.
٤. في عام ١٨٧٦ عرض الكساندر جراهام بلْ آلة تطورت فيا بعد إلى التليفون. و يبدو أن الأفغاني كان قد قرأ عن الاختراع في الصحف وقتها، و كذلک الحال مع الفونوغراف.

و من نَظَر بعين الحق و سَبَرَ الحقائق بنور البصيرة لايجد لهذه الخلة (أعني اعتقاد كُلٍّ كَمالَ نفسه و نظره الى أعماله بعين الرضى) علة و سببا سوى حب الذات، الذي هو غشاوة على عين العقل، تمنعه من استطلاع الحقائق على ما هي عليه، و وقوفه عند حد الصواب في سَيْر الأفكار، بل هو متغلب على جميع الاحساسات النفسانية و حاكم على كُلّها بالتغيير. بل لا يختص حكمه بها إذ يتعدى الى الاحساسات الطبيعية أيضا فانک ترى مشوه الوجه مختل الخلقة رث الثياب الذي قد تجسدت عليه الأدران و الأقذار إذا نظر إلى صورته بهذه الصفة الرديئة في مرآة مثلا لا يشمئز ولا يستنكر، و اذا وقع بصره على من بلواه في ذلک أخف من بلواه، انفعلت نفسه و استنفر و استبشع.

و هذا الوصف، أعني حب الذات، الذي هو علة الشقاء و العناء من الأوصاف اللازمة لذات الانسان مادام موجودا. فلا ينفک الانسان عنه ولا هو يزايله، فإذن لا حيلة ولا خلاص من بلاياه ونكباته إلا باستعمال الانسان عقله و رجوعه إليه في جميع أموره، والخروج من ربقة عبودية سلطان حب الذات و رفض أحكامه. و ذلک أن يحكم على نفسه بما يراها عليه في مرآة غيره لا في مرآة نفسه (ما أجملک أيها الانسان المعجب في مرآة نفسک و ما أقبحک في مرآة غيرک).

و هذا الذي ذكرناه هو العلاج الحقيقي والوسيلة العظمى لوقوف كلٍّ عند حده، و سعي كلٍّ لاستكمال نفسه، اللذين هما مدار السعادة.

ولسنا نذم حب الذات بجميع أنواعه. فإنَّ منه ما قد يعود بسعادة على طائفة من الطوائف، أو أمة من الأمم، و هو حب الذات الداعي الى طلب المحمدة الحقة[1] و هو الذي يرتقي بصاحبه الى توجيه أفكاره و أعماله نحو المصالح العمومية بدون أن يطلب في ذلک شيئا سوى الحمد و خلود الذكر.

والسلام على من اتبع الهدى، و رجَّح العقل على الهوى.

---

١. الحق مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع (هامش رشيد رضا).



المَهديّة
و
المهدى السودانى



المهديّة و المهدي السوداني

فى العام القائت، كانت جريدة «المتصلب» «L'Intranrigeant» السباقة في تعريف الجمهور الباريسي على احدى الشخصيات الاكثر اهمية واحد اسمى العقول في العالم الشرقي، الشيخ الافغاني جمال الدين، العدو اللدود الذي تلقاه انكلترا في كل مكان، والذي يبدو انه ادى ازاء انكلترا قسم هنيبعل. ولنستعد هنا هـذا الحـدث الذي ذكره مراسلنا «فـوكلان» «E. Vauquelin» فـي «ذكـريات مـن الثـورة المصرية». ذات مساء في مسجد الحسين في القاهرة، وامام اربعة آلاف شخص، القى جمال الدين خطابا حماسيا، فضح خلاله، و بحس عميق، و قبل ثلاث سـنوات، الهدف النهائي للسياسة الانكليزية على ضفاف النيل. بعد يومين، و بناءاً لطـلب القنصل العام لانكلترا، اوقف خطيب مسجد الحسين، و ساقوه في مركب و نقلوه الى جدة على شاطيء الجزيرة العربية. انكفأ جمال الدين حينها الى داخـل مـقاطعة الحجاز، حيث لم يعد يسمع عنه شيء.

منذ بضعة اشهر، وصل الشيخ الافغاني الى بـاريس، واعـطانا مـلاحظات و معلومات عن الوضع في الهند التي مكث فيها عدة سنوات والتي تجول فيها من مدة قريبة، وقد اعجبنا بالفائدة المباشرة التي انطوت عليها هذه المـعلومات (مـقالة الافغاني عن الهند نشرت في الصحيفة نفسها بتاريخ ٤ نيسان (ابـريل) ١٨٨٣).

واليوم شاء الافغاني ان يقدم لنا دراسة عن المهدي الذي ثور الاسلام بظهوره في منطقة النيل الابيض، والذي منذ فترة وجيزة كبد الجيش الانكليزي ـ المصري، اشنع هزيمة. هذه الدراسة ننشرها كما هي، و كما وصلت اليناد ون اية اضافة، و دون اي حذف. وليس هناک احد افضل من الشيخ الافغاني المشهور، يستطيع ان يكتبها لأن احدا لا يعرف العالم الاسلامي افضل منه، ولأن احدا لا يستطيع التكهن بالتبعات الخطيرة التي يمكن لاحداث السودان ان تلقاها في مصر و في غيرها. و فيما يلي نص مقالة الافغاني:

المهدي ليس نبيّا

«الشخص الغامض، محمداحمد، الذي برز خلف اسم المهدي منذ عامين في السودان، والذي عبر قضائه شبه التام على الحملة العسكرية التي قادها الجنرال «هيكز» «Hicks» بدأ يشغل الرأي العام في اوروبا، و يستنفر بصورة خاصة الصحافة الانكليزية التي تعكس، في الوضع الراهن للامور، المشاعر الحقيقة للامة. هذا الانتصار، الذي زرع الفوضى في وزارة الخارجية، يبدو انه احتفظ للسيد «غلاد ستون» «Gladstone» في وادي النيل بنفس الثمار التي جناها اللورد «بيكونسفيلد» «Beaconsfield» في افغانستان.

و من ناحية اخرى، فتح هذا الانتصار الباب امام مطامع الخديوي السابق اسماعيل باشا، و كذلک امام مطامع حليم باشا: فكل واحد منهما يعمل بنشاط للحصول على عطف انكلترا، ولا يتوانى الواحد منهما ان يعد الانكليز بخنق هذه الانتفاضة على شرط ان يؤكدوا له دعمهم للوصول الى عرش الخديوية. أما بالنسبة لتوفيق فهو في وضع في غاية التعقيد و في حالة تصبح عصيبة، يوما بعد يوم. نرى هذا الامير البائس تحت رحمة احتمالين كلاهما مشؤوم: احتلال الانكليز النهائي لمصر، او وصول المهدي الى القاهرة. و تحت رحمة طموحين: طموح أبيه اسماعيل و طموح عمه حليم.

و اني اقترح أن اقدم في مقال لاحق بعض التقديرات الشخصية للمهدي من وجهة نظر سياسية، و من زاوية مصالح القوى الاستعمارية و مصالح تركيا، وللتحدث عن الانطباع الذي يمكن ان يولده اسم المهدي في العالم الاسلامي، كما سأتحدث عن نوايا انكلترا ازاء هذه المسألة الخطيرة، و عن الربح الذي يأمل بتحقيقه الاشخاص الطامعون بالخديوية. لكنني سأكتفي الآن بتلخيص بعض الاحداث التاريخية التي هي من طبيعة تهم الجمهور و ترشده حول المهدي، حول قوته لدى المسلمين، و حول طرائق المسلمين في الاعتقاد به، الأسباب التي الى هذه المعتقدات والاحداث ذات الطبيعة المشابهة والتي حصلت في الماضي، و أخيرا سأتحدث عما ينتظره الاسلام حاليا من المهدي.

المهدى ـ كلمة عربية معناها: الملهم من الله لاتباع الصراط المستقيم ـ و هو ليس بنبي كما تزعم بعض الصحف؛ ولا يحظى المهدي لدى المسلمين الا باعتباره واحدا من أبناء الرسول العظيم، تقي، ورع، تبعا للصراط الذي رسمه جده محمد، و يلتزم بالمذهب الاسلامي بأمانة. مهمته الالهية تقوم على الغاء البدع، و المناداة بالعدالة، و اقامة المساواة بين كل المؤمنين و بنشر اسم الاسلام، و جعله متصلا في كل انحاء المعمورة. و يعبّر عن المهدي بالعربية بعبارة «قائم آل محمد» و هذا معناه: هو الشخص الذي من بين المنحدرين من النبي الكبير، سوف ينهض لدعم الايمان الاسلامي. والاعتقاد بمجي المهدى منتشر في كل الاصقاع الاسلامية دون اي تمييز بين الفرق. و هذا الاعتقاد راسخ لدى الشعوب الاسلامية الى حد انه مستمر منذ القرن الاول للهجرة.

الطبري وابن الاثير، المؤرخان الاكثر شهرة و احتراما لدى المسلمين ذكرا في كتاباتهما ان المؤمنين خلال منتصف القرن الاول للهجرة كانوا يقولون عن عمر بن عبدالعزيز نسيب النبي واحد خلفاء بني أمية الاكثر عدالة، بأنه اذا لم يكن المهدي المنتظر، فانه لن يكون سوى يسوع ابن مريم الذي سيخرج قبل نهاية العالم. ان

انتظار مجيء المهدي يتزايد كليا عند المسلمين، في كل المرات التي يجدون فيها انفسهم في ضيق، او يرون انهم مهددون في دينهم او واقعون تحت سيطرة قوة اجنبية، و حيث يشبهون رجلاً ضالا في ليلة حالكة الظلام وسط صحراء شاسعة، منتظرا بفارغ الصبر ظهور نجمة تقوده.

هذه المعتقدات مبنية على آيات و على احاديث لاتمس و شديدة الاحترام، منسوبة الى النبي الكبير محمد(ص) و قد وردت هذه الاحاديث في اكثر من كتاب، من بينها: المسند، للامام احمد، بن حنبل السني، و مؤسس احد المذاهب الاسلامية الاربعة، والصحيح للسيد علي الترمذي، و مسند «فردان» (كما ورد فـي النـص الفرنسي في الجريدة: Firdano و ابن ماجة الخ...)

كل العلماء المسلمين، باستثناء ابن خلدون في مقدمته و نفر آخر محدود من العلماء اجمعوا على الاعتراف باصالة هذه الاحاديث و صحتها. و يظهر للعيان من خلال هذه الكتب ان النبي العظيم محمد(ص) تكلم عن المهدي في أماكن عديدة، حيث يدعوه حينا بأسم المهدي و حينا بأسم القائم. و قد قال: «لولم يبق من الدنيا الا يوم، لطول الله ذلک اليوم حتى يلي رجل من اهل بيتي يواطىء اسمه اسمي». (كما ورد في صحيح الترمذي، الجزء التاسع ص ٧٤ـ٧٥. وثمة اختلاف بسيط في الترجـمة الفرنسية للفقرة الاخيرة). و قال في حديث آخر: «القائم (المهدي) سيكون واحد من ولدي وسيهبكم الخيرات بلا حساب». و في حديث آخر: «سيمنحكم (المهدي) كنوز رومية وستعطيه الارض جم ثرواتها». (يـمكن مـقاربة هـذين الحـديثين الاخيرين بالحديث الذي اورده ابن حنبل في مسنده «يكون في امتي المهدي (...) فتنعم أمتي في زمانه نعيما لم ينعموا مثله قط البر منهم والفاجر ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدخر الارض من نباتها شيئا و يكون المال كدوسا) و في حديث آخر (بحسب ترجمتنا للنص الفرنسي): «اذا امتلأت الارض ظلما و جورا، و اذا اصبح المؤمن (المسلم) اكثر سوءا من عبد، فانتظروا ان يظهر واحدا من صلبي، المهدي».

(هذا الحديث يمكن مقاربته بالحديث الذي أورده ابن حنبل في مسنده: «لتملأن الارض جورا و ظلما فيبعث الله تعالى رجلا مني اسمه اسمي و اسم ابيه اسم ابي...») و قال ايضا: «ابشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس و زلزال فيملأ الارض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا. و قيل في موضع آخر: «اذا استولى عليكم بنو الاصفر (يلمح النبى هنا الى قدامى الرومان) فانتظروا القائم من اهل بيتي» (لم أجد هذا الحديث بالعربية). و هذا حديث آخر ايضا: المهدي منا، و يكون اسمه اسمي (محمد) واسم أبيه اسم ابي (عبدالله)، و اسم امه اسم امي (امينة). (لم اجد ايضا هذا الحديث بصورة حرفية).

و هناك عدة احاديث اخرى من النوع نفسه، و تقطع، بطريقة لاتقل بداهة، باليقين بقدوم المهدي. اما بالنسبة للاستشهادات، التي استخدمها العديد من القديسين والتقاة، والتي تزعم انها تلقت الوحي الالهي و التي تثبت بأن المهدي او القائم سوف يظهر في الشرق او من الغرب، من مكّه او من الكوفة، و تحدد هذه الاستشهادات هذه الفترة او تلک موعدا لخروج المهدي، و هي كثيرة و متعددة الى حد انني لم اجد لزاما ضرورة الاسهاب فيها.

كل مسلم ينتظر المهدي

لقد خرج تحت اسم المهدي او القائم مئات الاشخاص في كل القرون و في كل البلدان الاسلامية. و ان كان غالبية هؤلاء لم ينجحوا لكن ذلک لم يمنع بعضهم من تأسيس ممالک حافظ عليها الاتباع طيلة قرون عدة. ابو مسلم الخراساني الذي قضى على خلافة بني امية و شيد خلافة بني العباس، لم ينجح في حشد الجماهير و في بناء جيش مهيب في «مرو» و في غيرها من نواحي خراسان الا بعد ان استعمل لنفسه اسم قائم آل محمد (المهدي). وقد استطاع بهذه الوسيلة ان يلزم الجمهور باعلان ابي العباس السفاح خليفة، و هو اول خليفة من بني العباس وأحد احفاد العباس عمّ النبي الكبير محمد.

ادريس الاكبر، احد احفاد محمد، والذي اقام مملكة الادراسة في زمن هارون‌الرشيد، و بنى مدينة فاس، لم ينجح في ذلک الا خلف اسم قائم آل محمد ـ و ايضا عبيدالله جد الخلفاء الفاطميين، فانه بصفة المهدي هذه استطاع هذا الرجل الذي احتل القاهرة و سوريا و الحجاز و اليمن ان يبني ممالک واسعة و ان يشيد مدينة المهدية التي ما زالت تحمل اسمه حتى أيامنا هذه.

محمد، زعيم الموحدين ـ (الذين يعتقدون بوحدانية الله) ـ لم يستطع ان يجلب المرابطين الى نصرة قضيته و نشر فتوحاته حتى بلاد الاندلس تاركا لخلفائه مملكة شاسعة، الاعبر ادعائه بأنه المهدي.

بكلمة وجيزة، خلف هذا الاسم (المهدي)، كم من رجالات الاسلام انجزوا اعمالا باهرة و معتبرة، و قادوا الاوضاع الى تغيير جدي في عالم المؤمنين. رغم كل الذين اطلقوا على انفسهم اسم المهدي و تعاقبوا وصولا الى ايامنا الحاضرة، فان المسلمين ما زالوا ينتظرون واحدا جديدا. الشيعة الاثنا عشرية، كالفرس مثلا، والذين يؤمنون باثني عشر اماما منحدرين بتعاقب من محمد، فهم و ان كانوا يتفقون مع السنّة حول الجزم واليقين. بمجيء المهدي، الاانهم يختلفون عنهم في تعيين شخصيته. فهم (الشيعة) يقولون بأن محمد المهدي هو ابن الحسن العسكري، التاسع (بل الحادي عشر) من بني احفاد النبي الكبير، و يقولون بأن محمد المهدي ولد في سامراء (مدينة قرب بغداد)، في عهد الخليفة المتوكل العباسي. و أنه ذات يوم، و خشية من الاجراءات القاسية التي اتخذها الخليفة ضده قرر محمد المهدي و هو في الخامسة من عمره، الاختباء و خلال ستين سنة بقي على اتصال بمناصريه. هذا الاختفاء يدعوه الشيعة: الغيبة الصغرى. و يرى الشيعة ايضا انه بدءا من هذا التاريخ قام بقطع صلاته مع أتباعه الذين يعتبرونه حيا حتى أيامنا. مقدرين مدة وجوده بأكثر من الف سنة.

و تبعا لعقيدتهم، سوف يظهر المهدي هذا بين الركن (وردت خطأ في النص

الفرنسي بعبارة الكك Kick) والمقام، في مكة، و سيجعل من الكوفة (بالقرب من بغداد) مكانا لاقامته، و سينشر سيطرةالاسلام من الشرق الى الغرب. باختصار، مهما تنوعت هذا المعتقدات من ناحية الشكل، فانه لايقل صحة بأن كل مسلم ينتظر المهدي، و مستعد للسير خلفه وللتضحية بحياته و بكل مايملك. المسلمون الهنود خاصة، و نظرا لمعاناتهم اللامحدودة و تحملهم أقسى العذابات و أطولها من جراء السيطرة الانكليزية، فأنهم الاكثر انتظارا للمهدي بفارغ الصبر.

أخيرا، فان سطوة المهدي في أنظار المسلمين تتبع فحسب النجاح النهائي الذي يقوى على تحقيقه، على أي حال، تلك كانت حالة كل الذين سبقوه.

المهدية

(٢)

المقالة الثانية عن المهدي كما نشرت في جريدة «L'Intransigeant» بتاريخ ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٣. و فيما يلي تقديم الصحيفة للمقالة الثانية:

«ننشر هنا تتمة الدراسة القيمة التي شاء الشيخ جمال الدين ان يعطينا اياها حول المهدي والنتائج المحتملة لظهوره المنتصر في السودان، و نجد لزاما علينا التذكير بما سبق و قلناه منذ ثلاثة ايام: ان هذه الدراسة نشرت كما قدمت الينا دون اي تعديل، فالشخص الذي كتبها مسلم، و هذا ما لا يمكن تغافله. هذا الرجل المسلم، يتحدث كابن مؤمن من ابناء الاسلام. ولذا فكرنا ان نحفظ لهذا العمل طابعه الخاص، و ان ندع الكاتب يتكلم بحرية».

فيما يلي نص مقالة الافغاني:

ان الهزيمة التي الحقها محمد احمد ـ بقواه غير المنظمة ـ منذ فترة وجيزة بالجنرال «هيكز» Hiks اعطت نتيجتها بتبديد الشكوك التي احاطت شخصيته من قبل سكان بعض مناطق السودان. ان انتصار «العبيد» رفع من شأن سطوته في انظارهم الى درجة انهم باتوا يعتبرون ما أنجزه بمثابة معجزة.

اضافة الى ذلك، ولّد هذا الحدث لدى المصريين، الامل بالتخلص من السيطرة

الانكليزية بمساعدة المهدي، و من جهتهم، فان مشايخ جامعة الازهر بدأوا يطلبون المغفرة في اعقاب الفتوى التي تناولت محمد أحمد كدجّال.

ان انتصار «العبيد» الذي كان له دويّ واسع في العالم الاسلامي، ايقظ المشاعر الدينية لدى كل شيوخ الطرق (الاخويات الدينية) مثل القادرية والنقشية (المقصود على الارجح هو النقشبندية) والجلالية والسنوسية والشاذلية الخ... و هذه الاخويات تمارس سلطة كبيرة على اتباعها الكثيرين. هؤلاء الشيوخ لا ينتظرون سوى عمل اضافي باهر يمكن من وضعهم لحساب المهدي، كي يثوروا و يشكلوا قضية واحدة معه. من ناحية اخرى، فان الجنود المصريين نظرا لكونهم مسلمين و يعتقدون تبعا لذلک بالمجيء الاكيد للمهدي، و واثقون ايضا انهم بمقاومة محمد احمد لا يخدمون مصالحهم و لا مصالح بلدهم، و بأن انكلترا فقط هي التي ستستفيد بالطبع من اي خسارة قد يلحقونها به، لذلک لا يرغبون في اي حال من الاحوال بمقاتلة اي وحدة من وحدات المهدي المقاتلة.

قبل انجاز اي مأثرة اخرى ـ و تلک معجزة جديدة ليست غير ممكنة، و نظرا للانتصار الذي حققه المهدي ضد عشرة الآف جندي نظامي، و نظرا للدعوات والنداءات التي اطلقها عن ذكاء الى مشايخ القاهرة و مكة والمدينة ـ و قبل انتشار الهبات الدينية و استعداداتها في الشرق كما في الغرب، فان الاتراک، برأيي، وحدهم قادرون، تحت اسم الخلافة، أن يصبحوا أسياد الموقف، و ان يستبقوا الاضطرابات الخطيرة. لكن القوى الاوروبية التي تنتهج سياسة غامضة النتيجة، و كذلک انكلترا التي لا تخفي مقاصدها، تعارض بقوة اي تدخل تركي.

و اذا حقق محمد أحمد ـ انتصارا أخرا ـ اي اذا احتل الخرطوم او اقترب من تخوم مصر العليا، فانه سينجم عن ذلک هبة عامة لدى كل السكان العرب الواقعين تحت السيطرة العثمانية، وستلقى تركيا صعوبة بالغة، نظرا لضغطها الحالي، في اخماد هذه الهبة.

و بدون شک، ستنشأ حركات اخرى في عدة نقاط من الاقاليم الواقعة تحت السيطرة التركية. سأذكرها هنا بدقة من هي المجموعات الاسلامية الجاهزة للانتفاض: الشيخ السنوسي و اتباعه، و هم كثيرون في طرابلس و بين البدو العرب القاطنين ساحل الحجاز ـ بنو حرب، و هم يشكلون قبيلة ذات شأن تقيم بين مكة والمدينة؛ ـ العسير، بين الحجاز واليمن، ـ الزيدية في صنعاء و كوكبان: ـ داهي (لقب) الاسماعيليين في نجران من بلاد اليمن؛ ـ محمد ابو (بل ابن) الرشيد في نجد و قبائل عنيزة و شمّر على تخوم بغداد من الموصل حتى سوريا. كل هذه القبائل التي تهب في كل لحظة ضد تركيا بسبب عدم رضائهم عنهم، لن يطلبوا أحسن من انتهاز الفرصة التي يقدمها لهم المهدي في سبيل التخلص من الخليفة (السلطان). حينئذ، سيكون من المستحيل على العثمانيين الذين يعلنون أسم الخليفة ـ الوسيلة الوحيدة التي في حوزتهم لكي يحافظوا على سيطرتهم على مختلف السكان المسلمين ـ قلت سيكون من المستحيل على العثمانيين ان يخنقوا انتفاضة لا يمكن الاستهانة بنتائجها. فالمسلمون يعتقدون، بالفعل، ان الخلافة، شرعية كانت، أي في يد قريشي ـ واحد من قبيلة محمد ـ ام غير شرعية، اي بين يدي غاز، فانه ينبغي لها ان تزول امام ظهور المهدي، الذي سيكون الخليفة الحقيقي بالنسبة للمؤمنين.

ان مشايخ الاخويات الدينية، القادرية والشاذلية، هم ايضا، لن يعدموا وسيلة في هذه المناسبة كي ينظموا دعاية نشيطة، سوف يستصرخون المشاعر الدينية لاتباعهم لجرهم الى الالتزام بالالتفاف حول المهدي هذا، الذي هو بالضبط جزء من هذه الاخويات.

هذه الانتفاضة التي ستحدث بدون أدنى شک، و بمجرد حصول انتصار أخر للمهدي، في كل البلاد العربية الواقعة تحت السيطرة العثمانية ـ و ان كانت تشبع رغبات انكلترا التي تسعى الى اضعاف هيبة الاسلام ولكنها (الانتفاضة) لن تتوانى عن وضع انكلترا في حالة استنفار. ان مقاصد الانكليز الخفية الى هذا الحد او ذاک،

هي الانهاك التدريجي لتركيا من اجل الاستيلاء بالتالي على اكبر حصة من ممتلكاتها. ان بريطانيا العظمى تغذي النوايا العازمة على تشكيل خلافة صغيرة في مكة، لصالح عشيرة بني عون و حيث ان احد اعضائها هو حاليا شريف مكّه، و ذلك بهدف تمكينه من حيازة وسيلة قوية للسيطرة على كافة المسلمين. ان حصول انتفاضة مشابهة لتلك التي اتوقعها، ستكون حاملة الاذى لانكلترا الى حد انها ستستدعي بالضرورة تدخل القوى الاوروبية ذات المصالح الجدية في الشرق. و عندئذ سيتاح لانكلترا ان ترى كيف ستفقد الحصة الكبيرة التي تطمع بها عبر تقطيع اوصال الفريسة العثمانية. ولن يكون من المستحيل ان يتكون في الشرق ـ على اثر تعقيدات معينة قد تحدث في اوروبا و تمنع القوى المعنية بالامر عن التدخل ـ مركز خلافة مهمة للعرب. هذان الاحتمالان لايقلان شؤما الواحد من الآخر بالنسبة للانكليز.

ولكن ماذا! هل تأمل انكلترا اذن باجراءاتها المعتادة، اي بالخديعة والمكر، و عبر اعلانها عن الدخول الى كل البلاد، و عبر افصاحها المنافق عن رغبتها بجعل هؤلا السكان سعداء، و بتوفير الامان والرفاهية لهم، و ذلك بعد ان غرست جذور الحقد في قلوب كل المسلمين، حين انتزعت من ايدي الاسلام اوسع و أغنى مملكة في العالم، أي هذه الامبراطورية التيمورية ـ الهندية التي تضم حوالي ٢٥٠ مليون نفس، قلت هل تأمل انكلترا بخنق صوت المهدي، الصوت الاكثر ادهاشا من كل الاصوات لأنه يتجاوز بالقوة حتى صوت الجهاد الذي يخرج من افواه المسلمين كافة.

هل تعتقد انكلترا بقدرتا على خنقه قبل ان يبلغ كل نواحي الشرق، من جبال هملايا الى دولاغهير Dawlaghir، من الشمال حتى الوسط، مخاطبا مسلمي افغانستان، و بلوشستان، والسند و الهند، معلنا بصوت عال مجيء المخلّص الذي ينتظره بفارغ الصبر كل طفل في الاسلام: المهدي، المهدي، المهدي!

و هل عن طريق ترک‌السودان للمهدي، كما تلمح اليه غالبية الصحف الانكليزية، و عبر اتفاق سلام يعقد بين محمد أحمد والحكومة المصرية و حيث الهدف الوحيد من ذلک هو الاستيلاء لاحقا على السودان (كما ذكره بالمناسبة قسم من الصحافة الفرنسية)، هل بهذه الطريقة تأمل انكلترا بأن تنجح في اسكات الصوت المهيب للمهدي؟ سيكون ذلک قطعا من نسج الوهم، لأن الشخص الذي ينهض خلف اسم ديني معلنا نفسه نبيا او المهدي، لن يتوقف اطلاقا في مسيرته، واثق تماما انه اذا تراجع فان الثقة التي منحها له مناصروه سوف تأخذ بالضعف و ستؤول حتما الى الزوال.

ان قسمة المهدي لا يمكنها ان تكون الا هذا: الموت او تحقيق الهدف الذي رسمه لنفسه. و هل عن طريق الاستعانة بالفرق العسكرية الفرنسية، و هي بذلک تبرهن عن ضعفها الذي يجهله الشرقيون، تحسب انكلترا بأنها ستخنق صوت المهدي؟ في هذه الحالة سوف تفضح ماضيها بهذه الطريقة، وستعود الى الوضع الذي دمرته ودون ان تشاء، سوف تعطي مصر للمصريين. و هذا ما نرغبه، مع المجازفة برؤية غلادستون البائس و هو يسقط عن عرش السلطة. و حين تيأس انكلترا من التوصل الى اتفاق سلمي مع المهدي، فهل ستقترح عندئذ ان تقوم بجلب الوحدات العسكرية الهندية الاسلامية الى السودان؟ قبل كل شيء، هل هذا ممكن؟ و كيف يمكن للحكومة الانكليزية ان تتصور بأن المسلمين، و في سبيل تمتين سلطة عدوهم الوراثي اي الانكليزي، سيكونون قادرين على‌الدخول في حرب مع الرجل الذي ظهر كي يدعم ايمانهم؟

ام ان انكلترا تعتقد بأنها ستتوصل الى مخادعة الهنود في هذه القضية، كما سبق و خدعتهم في قضية «عرابي»، حيث ستجعلهم يعتقدون هذه المرة ايضا، بأنها لا تفعل سوى القيام بمساعدة السلطان من اجل كبح المتمردين؟ لقد بات الهنود على يقين، بعد الذي حصل في مصر، بأن انكلترا مصممة على ان تلعب تجاه تركيا نفس الدور الذي لعبته في الماضي تجاه السلطة التيمورية.

ام ان انكلترا تتصور بأنها ستستدعي جنود السيخ و «الكوركو» Kourkou؟ لكن تدخل هذه الفئة سوف يؤدي بالنتيجة ليس فقط الى الازدياد الخطير للحقد على الانكليز من قبل المسلمين الهنود، الذين لن يروا بدون عناء و بدون مرارة ذهاب الهندوس الى الحرب ضد منقذهم (المهدي) فاضافة الى ذلك قد ينجم عن هذا الرهان تبعات اخرى لاتقل كارثية عن سابقاتها بالنسبة الى الانكليز: انها تهييج السكان المسلمين الهنود الى درجة انهم سيستفيدون بدون شك من غياب جزء من الجيش الانكليزي الموجود في الهند.

المهدية

(٣)

اذا اردنا ان نقيم حسابا دقيقا للمخاوف التي تعتري الانكليز من جراء الانتصارات المتلاحقة لمحمد احمد (المهدي)، فانه لامناص لنا من معرفة وضع الانكليز في الهند، مشاعر السكان الهنود تجاهها، و اخيرا النسب الحقيقية لقوتها العسكرية في هذا البلد.

ان عدد الجنود الاوروبيين الذين يمكن لبريطانيا العظمى ان تجهزهم لا يتجاوز الخمسين الف. والخمسون الف هؤلاء، ينتشرون على كافة نقاط الاقليم الهندي وصولا الى برمانيا. ولايسع انكلترا بأي طريقة من الطرق ان تعتمد على الجنود المسلمين والهندوس، في حال حصول انتفاضة، لأنه لم يبق في الهندوستان بيت واحد كبير لم يتعرض للهدم او للتشويه، ولم يبق قلب لم ينقبض، دون اقامة اي تمييز بين المسلمين والهندوس. لقد انتزعت انكلترا المملكة التيمورية الواسعة من أيدي الاسلام، كما استولت عنوة على حكم «الميريت» (mirits) الذين يشكلون المدد الاكبر والافتى بين الهندوس. لقد فتنت انكلترا اشراف السند و «راجوات» السيخ في البنجاب. كما قضت على عظماء البنغال ولم توفر ممالك «ميسور» Mysore و «أود» Awed التي افرغتها من السكان بواسطة المجازر. و أخيرا، قامت انكلترا

بتقطيع الاقاليم التابعة لرجاوات جيبور Djeypour، ودجوبتور Djoptour و برودا Brouda حيث استولت على القسم الاكبر منها.

اما الراجوات وكبار النافذين، و عددهم قليل جدا على كل حال، الذين ما زالوا يحتفظون بممالكم، فانهم لايشعرون بالاطمئنان ازاء مشاريع انكلترا في المستقبل؛ و يجهلون اذا كانت انكلترا سوف تستشعر الضرورة لتركهم حائزين على املاكهم، و يتوقعون بين يوم و آخر ان يجدوا أنفسهم و قد انتزع منهم القليل الذي بقي لهم. وليس لديهم أدنى وهم حول المصير الذي تعده لهم المطامع البريطانية. ان الانكليز مقتنعون تماما انه بمجرد حصول فتنة في الهند، فان كافة الجنود المحليين، المسلمين والهندوس على حد سواء، سيؤلفون قضية مشتركة مع الثائرين، و سيتحدون خلف الراية ذاتها، ولكونهم مدعومين من الرجاوات و كبار النافذين الذين يرفضون انتزاع ممتلكاتهم منهم، فان الجنود سيثورون ضد المسيطر عليهم و دون التفتيش عن مبرر لهذه الانتفاضة، و دون اخذ الوقت للتفكير بالفائدة التي سيجنونها، و دون اختبار النتيجة التي قد يصلون اليها.

لا يبدوان محمد أحمد (المهدي) يجهل الوضع الحقيقي للانكليز في الهند و نواياهم المبيّتة بهذا القدر او ذاك من اجل وضع اليد على مكة؛ ولا يخفي المهدي علمه بأن اول مواجهة جدية يخوضها سوف تكون ضد الانكليز في مصر. و لذا فقد ارسل بمبعوثين و بدعوات الى علماء مكة، و بصورة خاصة الى العلماء الذين هاجروا من هندوستان، و من افغانستان و بخارى، والذين استقروا في مكة.

في هذه النداءات، التي سينشر نصها في اقرب فرصة مناسبة، يدعو المهدي المسلمين الى النهوض من أجل تأكيد الايمان الاسلامي و من أجل نصرته في تحقيق مهمته الالهية. و اذا كان هؤلاء العلماء العديدون لم يعلنوا حتى هذه الساعة عن تأييدهم لمحمد أحمد، فاني لاأشك لحظة واحدة، كما سبق و قلت، بأن هؤلاء العلماء سيقفون الى جانبه، و ذلك بمجرد ان يحقق المهدي انتصارا جديدا و جديا والذي بدوره سوف ينجز امر انضوائهم لحسابه.

ان الانسان، بطبيعته، ميّال الى مبالغة كل الاخبار التي تأتيه من البعيد، الى درجة ان العدد واحد المتنقفل من شفة الى شفة والمتضخم بواسطة الهرج العام، لا ينفي ان يتحول الى الف، و هكذا فان الرابية سوف تجري مشاهدتها على انها جبل. و لهذا، فان الاعلان عن ظهور المهدي، سوف يملأ قلوب‌الذين ينتظرون الانعتاق بالوعود الكبيرة و سيفيضون املا و فرحا.

ان اول تململ سوف يحدث على ما يبدو عند مشايخ الطرق (الاخويات) المعروفين بالشيشتية El-Chichtia، و هم من عائلة أولران شاه Olran-Shah في بلوشستان، و كذلک عند القادرية في السند، الطقشندية والقادرية في جبال افغانستان بقيادة ابن «اهوندسيوات» Ahoundsiouath، و عند الوهابين المجاهدين في افغانستان و في بلوشستان بقيادة أميرهم عبدالله. جميع هؤلاء سيلقون الدعم من جماعة «الميريت» القاطنة في «بونا» Pouna والتى بلغ عدد افرادها منذ عام اكثر من ۵۰۰ ألف نفس. هذه الجماعة، هي ايضا، تنتظر بفارغ الصبر كي تهب.

ستحظى هذه الحركات المدهشة حتما برد معاكس في الهند، اذ سيحصل نهوض عام، و سيجد الانكليز صعوبة بالغة في الحصول على مبرراته. و في كل الاحوال، و بالتأكيد لن يصل الانكليز الى قمة غايتهم كما حصل في الانتفاضة الاخيرة. ان حدوث انتصار جدي للمهدي ـ والذي سيكون بلا جدال بمثابة معجزة جديدة في انظار المسلمين ـ سيكون له كنتيجة حتمية ليس فقط اندلاع الانتفاضة في بلاد الاسلام الواقعة تحت السيطرة التركية كما في بلوشستان ايضا و افغانستان والسند و هندوستان و بخاري و خوقند و خيفا ـ بل سيفضي ايضا الى اضطرابات في طرابلس و تونس و الجزائر وصولا الى المغرب. لأن كل المسلمين ينتظرون المهدي الذي يعتبرون مجيئه بمثابة ضرورة مطلقة.

العلاج الوحيد، برأيي لأزالة المرض قبل ان ينتشر في كل الجسم، لا يقضي، كما

تعتقد بعض الصحف الانكليزية المهمة، بالتخلي عن السودان والتوصل الى اتفاق سلمي يعقد بين المهدي و بين الحكومة المصرية، بل بواسطة التدخل التركي، او بتعاون الفرنسيين مع الانكليز من اجل تفادي حصول كارثة.

غير ان الانكليز بعيدون جدا عن القبول بتدخل فرنسي، ولن يتنازلوا عن ذلك قبل ان ينغرز الخنجر الاسلامي في صميم قلبهم، و عندئذ سيكون العلاج بلافعالية. بالفعل، فان الانكليز لم يدخلوا مصر بمفردهم و ضد اماني الفرنسيين، الا لأنهم رأوا هؤلاء قد استقروا في تونس. و قد فهموا (الانكليز) جيدا بأنه لم يبق امام فرنسا و هي احدى القوى العسكرية الاكثر ادهاشا، لتحقيق الاستيلاء على باب الهند ـ و أعني بذلك مصر ـ سوى السيطرة على طرابلس الواقعة حاليا في الأيدي الغافلة لتركيا.

لماذا لاترغب انكلترا، بصدد هذه القضية، بمجرد الكلام عن تدخل تركي؟ هل لأنها تهاب تركيا، ام لأنها تخشى ان تقفل عليها هذه القوة (تركيا) طريق الهند؟ لاأعتقد بأي واحدة من هاتين الفرضيتين. فتركيا، بالفعل، و حين كانت اقوى مما هي عليه الآن، و قبل شق قناة السويس، الم تدع الجنود الانكليز يعبرون مصر لمحاربة اخوانها في الدين، اي الهنود المسلمون و انتزاع املاكهم و ممتلكاتهم؟ ان مبرر موقف انكلترا لايمكن اذن ان يكون غير الحقد الصريح على المسلمين من قبل الانكليز، و خاصة من قبل السيد غلادستون البروتستانتي المتحمس واللاهوتي المتشدد.

اذا لم تقم فرنسا و انكلترا ببذل كل طاقتهما لاستباق احتمالات معينة، فانه سينجم عن تحرك انكلترا بمفردها في هذه المسألة الخطيرة، كوارث بالغة ستلحق بهاتين القوتين.

اما بالنسبة للرجلين الطامحين الى الخديوية في مصر، اي الخديوي السابق اسماعيل وحليم باشا واللذان يستفيدان من الفرصة التي يمنحها لهما المهدي من اجل

الحصول على عواطف انكلترا الطيبة، فانني سأكتفي، بصدد هما الآن ولكي لا أتعب القاريء، بالتحدث عن واحد منهما، و بأكبر اقتضاب ممكن.

ان صعود حليم باشا الى عرَش الخديوية، سيمنح بدون شک سرورا بالغا لكل الذين يأملون بتوسيع و تقوية السلطة العثمانية. فحليم، بالفعل، واحد من المقربين للسلطان، ويعده باستمرار بوضع حكومة القاهرة تحت الرعاية الكاملة لديـوان الاستانة كما هي حال ولايات سوريا و حلب..الخ..الخ.. لكن ليس لحليم اي حزب في وادي النيل، و هو معروف بصورة قليلة جدا، و النزر اليسير من الناس الذين يعرفونه فانهم يعتبرونه ملحدا.

و ندرک بسهولة ان رجلا متهما بالزندقة من قبل المصريين العميقي التديّن، لن يكون بمقدوره ان يقف وجها لوجه امام محمد احمد الذي يخرج للناس خلف هيبة لقبه الديني اي المهدي. صحيح ان عرابي باشا ذكر اسم حليم باشا، بل و صرح بأنه يقبل به كخديوي؛ ولكن لاينبغي الاستنتاج من ذلک ان عرابي كان مناصرا لحليم او انه كان لهذا الاخير حزب في مصر.

فقط حين وضع عرابي امام الجدار وارغم على الافصاح عن الرجل الذي يؤيده من بين المتنطعين الى عرش الخديوية، حينذاک و بقصد ان يقوي وضعه في مصر، أعلن عرابي تأييده لحليم.

اما بالنسبة للخديوي السابق اسماعيل، فانني سأكرس له مقالة خاصة أقيّم فيها بالتوازي، النتائج المشؤومة والنتائج الطيبة التي يمكن ان يحظى بها امر اعادته الى عرض الخديوية.



باب مايؤول اليه امر المسلمين في المستقبل

باب مايؤول اليه امرالمسلمين في المستقبل

اذا نظرنا الى الحالة الراهنة رأينا ان ما آن الاوان للتكلم في مستقبل الاسلام فان انحطاطه في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشرع من يوم حصار مدينة ويانه في سنة ١٦٨٧ لم يزل يظهر شيئا فشيئاً حتى بلغ اواخر القرن الاخير اي عهد السطان محمود الثاني الذي بلغت رجال دولته اعلى درجة في التأخير و تملكت بعد الانكليز والمسكوا و الفرنساوية على كثير من المسلمين و بقى معظم اهالي الاسلام يخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت صواعق الافلاس و الحروب الباطنية و الحروب الخارجية التي يخشى من حصول النصر فيها فضلاً عن الهزيمة على ان تلك المملكة التركية هي التي ورثت الملك من الخلفاء الذين دانت لهم الارض باجمعها و خضعت لها مماليک اوربا بصياحها و دموعها و هي الآن حصن غيرمنيع لحفظ شوكة الاسلام و وقاية واهية للتجمع و الالتئام.

فما ظنک الآن بما تؤول اليه امر المسلمين و هي في ظنک من تقلب الاحوال و ضيق من عدم تحقق الآمال، افيخطر ببالک ان يقال انَ هذا الدين يتلاشى و انه اخذ زمنه و مضى، او يخطر ببالک ان فيه الكفاية لتنظيم احواله و يرجع الى قوة منشأه ويكون معينا على نشرالتمدن في جميع اقطار الدنيا. فهاک مسئلتين خاصتين بحال الاسلام و مايؤول امره اليه بالنسبة لانصلاح شؤونه في المستقبل و بالنسبة لسياسة

النصارى الذين تحت حكومة الاسلام وهاتان المسئلتان لهما دخل عظيم في المسئلة الشرقية التي لاتحول و لاتزول.

فلاوجه للمجاوبة عنهما بوجه الايجاب لان الدليل الاقوى لتعضيد كل منهما لابد من دخوله في مسئلة الاديان. وقال المؤلف فونطه ان الدين قاصر على الزمن الذى ظهر فيه و ان الاديان سترفع من الارض بعدان تنتشر المروّة على وجهها و ان آخر دين اكثر تنقيحاً من باقي الاديان التي تقدمت و ان التنظيمات التي تحصل في الدنيا لابد لها من دين جديد فاذا كان هذا الدين هو دين الاسلام يلزمنا ان نتوقع زمن ظهوره على الاحوال التي حصلت فى الدنيا و تضاهي قواعده الاديان المتقدمة ثم نبحث في الثمرات التي ملئت منها التواريخ ونطّلع على اسباب انحطاطه في هذه الايام و اذا تأملنا في الاسباب الموجبه للانحطاط ظهرلنا انها ناشئة من عدم موافقة ذلک الدين للتقدم و التمدن الحاصل في هذا الزمن. فاذا امعنا النظر في درجات تلک المسئلة رأينا الاسلام ظهر بعد النصرانية بستمائة واثنين و عشرين سنة فكـانت قواعده اعلى و امتن من دين النصرانية.

و عندنا دليل آخر و هو ان الدينين ظهرا في ارض واحدة و ان الدين النصراني سقط في بلده يهوذا و لم يظهر باوربا بعدها الا بعد ان قاسى كثيراً من الشدة و اللوعة في اوربا و اما الاسلام فانه أزهر و أثمر و على شأنه في كل بلدة دخلها و كان عدد المسلمين بعدالهجرة بقرن يبلغ مائة مليون اكثرهم كان من اليهود و النصارى و لم يبق من عبدة الاوثان شئ الا و طمى عليه سيل الاسلام فاغرقه و كذب يونس حيث قال انه لايبعث نبي في بلده فان محمد صلى الله عليه و سلم بعث في بلده و ظهر امره في جزيرةالعرب. و من ادعى ان قوة السيف هي التي نشرت ذلک الدين فقد ضل ضلالاً بعيداً لان العدد القديم من فرسان الصحابة لم يكن كافياً في الزام ثلث الدنيا باتباع الاسلام و نشرالمتمدن بين الانام في زمن كانت فيه صولته الرومان و الاروام و كان دين النصرانية كثير التشعب و المذاهب و كان الخصام واقعاً بين كثير

من تلک الشعوب و حصل الاضطراب عند نقص مذهب الارثدوكس فقرتب على ذلک قلقلة الجمعيات و سفک كثير من الدماء و احتيج الى ايجاد مرشد يصلح بين‌الناس و يهديهم الى الطريق المستقيم فكان ظهور الاسلام داعياً لسلامة الجميع و اتفاقهم على وحدانية الاله. فاحرقت معابد الاصنام و اضاء نورالاسلام بلا اله الاالله محمد رسول‌الله و بلغ رسول‌الله صلى‌الله عليه و سلم بهذه الكلمات و محو آثار الاصنام و ازالة اعتقادات الاروام في تعدد الاله. و بعد ان مهدّ الطرق و مكنّ كلمته أباح للعرب ماكان من عوائدهم موافقاً لكلمة التوحيد و اقرّ اليهود على دينهم و النصارى على تعظيم المسيح و أمّه و قال‌ان‌المسيح من‌روح‌الله و ان مريم احصنت فرجها، فاكانت تعتقده الروحانيون في احصان مريم مأخوذ من الاسلام.

و لما رأى ان النصارى تكره بقية الاديان اباح حبها و قال ان اختلافها لم يكن الا بارادة الله و في القرآن: «ولو شاء ربک لجعل الناس امة واحدةً.» و قال تعالى: «ولاتجادلوا اهل‌الكتاب الا بالتي هى احسن و قولوا آمنا بالذي انزل الينا و انزل اليكم و الهنا و الهكم واحد و نحن له مسلمون و كذلک انزلنا اليک الكتاب فالذين اتيناهم الكتاب يؤمنون به و من هؤلاء من يؤمن به و ما يجحد باياتنا الاالكافرون»، فصح على ذلک ان دين الاسلام يقبل العوائد المتقدمة و يقبل التأويل لموافقته للعلوم المتأخرة. فان الاقدمين كانوا يعتقدون عدم ادراک امرالروح و ذلک موافق «ليسئلونک عن‌الروح قل الروح من امر ربي» و لم يخل شيٌ من احكام الاسلام عن موافقته لحكم عقلية كتحريم النبيذ و بعض اللحوم و الميسر لثبوت ضررها بالتجربة. و حكم الوضوء هذا امر صحي و قال بعض المؤلفين الطاغين ان دين الاسلام اشتمل على ما كان في دين النصرانية من الامور الموافقة الشرع و الطبع و كذلک اغلب المؤلفين النصارى سلموا للعرب في التمدن و عظموه على ان التمدن لاينسب للعرب بل للكتاب و السنة و ورد في الحديث: «اطلب العلم ولو بالصين»، وقال ايضاً: «عظّموا من علّمكم كلمة كتعظيم آبائكم». و سئل النبي

صلى‌الله عليه و سلم لمن الحكم، فسكتوا فقال لاعلمكم. فكان هذا الحديث و امثاله موجبا لازديار الرغبة في‌العلم و نشره مع‌التمدن في البلاد المتوحشة حتى ظهرت الالفة بين سائر الناس و ظهرت المعارف في بلاد الاكراد و غرناطه و سبته و القيروان من اعمال كسرى الاندلس ثم بدمشق و العراق و الموصل و بغداد و اصفهان و بخارى و سمرقند و الهرات و قابول و كندهار و دهلى من بلاد الهند و اشرقت شموس العلم بالاسلام في سائر النواحي و كانت بلاد النصرانية وقتئذ من الجهل في ظلمات بعضها فوق بعض و من اطلّع على‌التاريخ علم ان الروم و الرومان ان كانوا قد ابتدئوا في نشرالتمدن فان المسلمين اتموا نشره في عهد المأمون بن هارون‌الرشيد.

و لقد كانت عادة المسلمين انهم اذا ملكوا بلداً بادروا في تعليم اهلها و جعلوا في كل قرية مدرسة، و تلك آثارهم تدل عليهم لانک اذا نظرت الى مسجد من مساجد صدرالاسلام رأيت بجواره مدرسة و سبيلا و شتان بين تعليم تلک الايام و تعليم ايامنا هذه. و من شروط الاسلام المساواة بين‌الصغير والكبير و القوى والحقير فان طفيل ابن عمر أتى النبى صلى‌الله عليه و سلم و قال له اذا اسلمت كيف تكون مرتبتي عندالناس فقال الناس كاسنان المشط أي في الاستواء و قصة حيله ابن الاسهم من ملوک العرب لما اسلم في عهد عمرابن‌الخطاب و حج داس على بردته اعرابى فلطمه حيله فشكاه الاعرابي لعمر فدعى حيله ليقتص منه فقال فكيف يكون ذلک و انا من ملوک العرب و هذا صعلوک فقال قد سوى الاسلام بينكما.

وكانت المناصب في صدر الاسلام بغير مقابل اذكان الامير يعيش من‌الجملة فكان علي صهر النبى صلى‌الله عليه و آله سلم عاملاً وكان عمر يضرب الطوب و يعيش منه و كان السلطان محمود الاول صائغا و محمود الثاني خطاطا يأكل من عمله.

و ناهيک بالعدل فانه كان طبيعة للخلفاء و الملوک. لقوله تعالى: «ان الله يأمر بالعدل و الاحسان». و قال سليمان القوة تزيد في اتساع الممالک و العدل يحفظها و اقوى دليل على عدل المسلمين انهم كانوا يحسنون معاملة النصارى من رعاياهم و لما رأى ملوک الروم ملوک المسلمين لايحزجون عن كتاب الله و لاينفذون الاحكام الا بفتوى من شيخ الاسلام صاروا يتحاكمون عندهم في قضاياهم. وحكي ان السلطان بايزيد الثاني كان حاضراً بالمجلس الشرعي واراد ان يتكلم فمنعه القاضي فينارزاده و قال: انه غير عدل لعدم حضوره في المسجد يوم الجمعة كماهي عادة الخلفاء و الملوک. و من يسب النساء في الاسلام (ويمارس[1]) الاستعباد فقد اخطأ فأن المسلمين يعظمون نساءهم و ان العلوم الاسلامية مروية عن عائشة و فاطمة و خديجة و غيرهن، و في الحديث الشريف «الجنة تحت اقدام الامهات».

و اما تعداد الزوجات فليس حكماً الزامياً لما ورد في الكتاب المجيد «و ان خفتم الاّ تعدلوا فواحدة.» و حقوق النساء عندالمسلمين اكثر مما عند الاوروباويين. فان المرأة تبلغ رشدها من تسع سنين و مهرها على زوجها، فان تزوجت لها الترف في متاعها و هي المصدقة بقولها في الشهادة على نفسها و تحريم الخمر و الميسر فيه حفظ للزوجة مع تقي الزوج وقعه.

و نهاية القول فان من ينسب الضعف للاسلام بنسبه مأخذه فقد اخطأ، لأن الكتاب والسنة ساربهما الاسلام وعلا شأنه في التمدن و التقدم مبلغاً عظيماً من القرون. ولما ان هُجر العلم و حاد المسلمون عن اتباع شريعتهم اخذت دولتهم في الانحطاط. و من المشهور ان مبدأ انحطاط الاسلام كان من عهد السلطان سليمان و تصميمه على عدم تأويل السنة بما يوافق مواقع الاسلام حوال في اوقاتها مع انه سئل النبى صلى الله عليه و آله سلم فيما نقول في المستقبل أَنتبع نص القرآن أم نتبع ما فسر به القرآن و الاحاديث فقال صلى الله عليه و آله سلم: شهادة الرجل حياً خير من

---

١. غير موجودة في النص الاصيل.

شهادة عشر من‌الاموات. فيفهم من ذلک ان شريعة الاسلام كالثوب المرن تقبل التمدد والتشكل باشكال التمدن و التقدم بخلاف دين‌النصرانية لتحكم النفس و تشديدهم و عدم الاباحة فى التأويل فبقيت غيرمنتخبة. و أعجب من هذا انهم لقبوا السلطان سليمان بالمشرّع مع انه اغلق باب التفسير بالقوة والاقتدار و جعل معنى القرآن قاصراً على آخر تفسير أمر به فسقطت بهجة العلوم الاسلاميه، في زمن اخذت‌أوروبافى اسباب التقدم والمعارف. و نرد على ذلک عيباً في كيفية الهجا المتبعة فى اللغة التركية و العربية و الفارسية و هى ان الحركات لاتعرف الا بالشكل ويستحيل بغيره معرفة عواقد القراءة في تلک اللغات بخلاف الف باء الاورباوية فان حركاتها تكتب حروفاً اذا تعلمها اي شخص امكنه ان يقرأ بالصحة في أي كتاب ولولم يفهم المعنى. ولاشک ان تقدم العلم مبني على حسن ترتيب لغته و ان‌النفور يتصاعد اذالم يجد عبارة و جيزة يتكيف بها. هذا ولم يبق للمسلمين الا الايمان والحمية على اتباع كتاب الله فلايخرج حبه عن قلبهم ابدا. و ان قيل لک ان النصارى لكثرة غواية الفلاسفة لهم وزحزحتهم عن دينهم شيئاً فشيئاً في مدة ثلاثمائة سنة يتركون دينهم ولايبقى له وجود فصدقه و اما اين قيل لک عن المسلمين شيْ من ذلک فلا تصدقه مطلقاً.

و ان امكن الاغارة على بلدة من بلاد المسلمين فانه لايمكن جبرهم على ترک دين الاسلام و اتباع دين النصارى ولو عرّضوا للهلاک بل يميلون للحكم على كره منهم فان لاحت لهم فرصة للتخلص نفروا مهللين بالشهادتين.

والحاصل ان الحمية الاسلامية غنية عن التعبير و ان حُبَّ المسلمين في نبيهم و تفضيله عن باقي الرسل امر لم تقلقله سياسة الدول الى الآن. و حيث ثبت انه من القوة البالغة الحدة و انه لايمكن ازالته فالا ولى موافقته بالعلوم المتأخرة والانتفاع به. وان دول فرنسا و انكليزا[1] والروسيا لم يعتدوا الى الآن بطريقة في حكوماتهم

---

١. انجلتره

توافق دين الاسلام، فتراهم يتبعون انفسهم في رد المسلمين عن دينهم فلم يمكنهم ذلک ويستعملون الظلم و القسوة التي لاتفيد شيئاً. و ممايشبه الاوروبا و الممالک المتقدم ذكرها في معاملة المسلمين السلطان محمود لانه لما شرع في التعليمات الحربية الافيركية ادخلها على المسلمين بوجه افهمهم انه شارع في تغيير قواعد الدين فقامت عليه القيامة من الداخل والخارج و تقلبت عليه الاحوال فاهلكته. و اما المرحوم محمد علي باشى[١] فانه احيى مصر بعدالعدم و نشر ذكرها بين الامم فاخذت في اسباب التمدن و اتسقت في الروه(!)

و لا يخفى ان كافة المسلمين ينضرون من الحالة التي هم عليها الآن و يحبون تغييرها بأيّ وجه كان فمن ثم كان قيام اهل العلم و خلع السلطان دليلاً على تيقظ الاسلام وان المسلمين من ابتداء مملكة مراكش الى بلاد الهند قد قربت ان تتحد كلمتهم على نصرالدين و تحسين احوال المسلمين سيما لما بلغهم من الصرب انهم يريدون نصرالصليب. و ان اغلب دول اروبا تساعدهم على ذلک فكان سعيهم من باب البغي والعدوان رحيم المرتع قليل المصرع فياليت المبالغ التي صرفتها الدولة في مشترى السفن المزرخة و الآلات الحربية كانت صرفت في طلب العلم ولو في الصين كما في الحديث و كانت الامة الاسلامية تقدمت في المعارف والفنون، لكن نحمل ذلک على الاحتراز من بأس المعتدي ولاضرر فيه و حيث تعين على الدولة ان توافق دول اوربا في اعطاء الضمانات المطلوبة لراحة النصارى فلا بأس في ذلک. انما يجب على الدولة ان تنتهز الفرصة و تلتفت الى تمدن المسلمين و نشرالعلوم والفنون بينهم لأن هذاالزمان مساعد لذلک اذلاوجود للماليک والانكشارية الذين عطلوا السلطان محمود في زمنه سيما للمسلمين الآن رغبة عظيمة في معرفة العلوم الاورباوية فامنا سمعنا مدرسة فتحت مجاناً في محروسة مصر منذ ثلاث سنوات و بلغنا عند افتتاحها ان التلامذة و الراغبين هرعوا اليها و لم يكن يبقى الا

---

١. باشا

ثلاثمائة طالب فوجد عدد الذين دخلوا فيها يومئذ يبلغ سبعمائة و حصل مثل ذلک حيث امرت الحضرة الخديوية بفتح مدرسة للبنات و كانت اول مدرسة فتحت في مصر ماكان يؤمل انها تنجح ففيَ اول يوم بلغ عدد الوارد فيها قدر المطلوب ثلاث مرات فمن نظر الى ذلک بعين التأمل رأى نتيجة عظيمة لاتنال ولابالقتال. فنشر التعليم خصوصاً بين‌النساء لاشک انه يؤول امره الى فصل مشكل المسئلة الشرقية. ولايحتاج الامرفيها قتال ولانزال لان سيف التعليم امضى من سيف المحاربات.

ولنضرب هنا مثلاً بالارض المزروعة يأتيها الشتاء فيستر زرعها بالثلج فترى كالميت و اذا اتى عليها الصيف و ذابت الثلوج اخرجت زخرفها وازينّت. فكذلک الاسلام اذا التفت الى معرفة العلوم والفنون دارک الدرجة‌العليا في التـقدم كـان عزمه قوياً و مستقبله مرضياً. ان‌الله على كل شئ قدير.[1]*

---

۱. تمت بخط سيد احمد الحكيم الازهري البحراوي الحنفي. كتبت هذه المقالة في شهر صفر ۱۲ فيه سنة ۱۲۹٤.

* في سنة ۱۳۵۳ هـ.ش (الايرانية)، قد أعطانا نسخة من هـذه‌المـقاله للسـيد جمـال‌الديـن الحسـيني، اخـونا السيدحسن محجوب، حيث وجدها، بين‌الاوراق و الوثائق الخطيّة في مكتبة «مجلس سنا» في تهران و كان الأخ محجوب مديراً عاما للمكتبة آنذاک... خ



الحكومة الاستبداديّة



الحكومة الاستبدادية

إن طول مكث الشرقين تحت نير استبداد المستبدين، الذين كان اختلاف أهوائهم الناشيء عن تضاد طبائعهم، و سوء تربيتهم، مع عدم وجود رادع يردعهم، و مانع يمنعم، و قوة خارجية تصادمهم في سيرهم، سبباً أوجب التطاول على رعاياهم و سلب حقوقهم، بل اقتضى التصرف في غرائزهم و سجاياهم، والتغير في فطرتهم الانسانية، حتى كادوا أن لا يميزوا بين الحسن والقبيح، والضار و النافع، و أوشكوا أن لايعرفوا أنفسهم، و ما انطوت عليه من القوى المقدسة، والقدرة الكاملة، والسلطة المُطْلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات، و يطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات. و إن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة، و تستوجب المحو التام والذهول المستغرق، بل تستدعي التنزل الى المرتبة الحيوانية، و مداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحَقيقية التي تكشف عن حقيقة الانسان، و تعلمه بواجباته و ما يلزمه في معاشه، و تبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية، و تمكنه من دفعها، والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول و سخف الرأي والجدل في اضمحلال كتبها و

ضياع آثارها و استبدالها بما أوقعهم في ظلمات لايهتدون الى الخروج منها أبدا.[١]

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجري على قرطاس بيد شرقي في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية و بيان حقيقتها و مزاياها و سعادة ذويها الفائزين بها. و إن المسوسين بها أعلى شأنا و أرفع مكانة من سائر أفراد الانسان. بل هم‌الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم، فإن الانسان الحقيقي هوالذي لايحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل، الذي رضيه لنفسه يحدد به حركاته و سكناته و معاملاته مع غيره، على وجه يصعد به الى أوج السعادة الحقيقية، و تصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة، و يوضح عن فوائدها و ثمراتها، و يبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الانسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية، والترقي إلى أول درجات الكمال، والقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة، و تطَلُّب مشاركة أولى أمرهم في آرائهم و كبح شَرَه النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم. ولهذا أضربنا صَفْحاً عن ذكرها، و أردنا أن نذكر في مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها، فنقول:

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية، و أقانيمها الحقيقية التي هي عبارة عن أمير أو سلطان، و وزراء، و مأموري إدارة وجباية، تنقسم الى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحكومة القاسية و هي التي تكون أركانها، مع اتسامهم بسمة الامارة والوزارة والادارة والجباية، شبيهة بقطاع الطريق. فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة، و يسلبهم أموالهم و مؤنهم و ثيابهم التي تقيهم الحر و البرد و

---

١. استعمل «استبدل» هنا بما هوالشائع عندالمتأخرين عامة. والذي في القرآن العزيز أن الباء بعد «استبدل» و «تبدل» تدخل على المبدل منه لاعلى البدل. فليتنبه له الكتاب. (هامش المنار)

سائر مواد حياتهم، و يتركهم في البوادي والقفار حفاة عراة جياعا تقطعت بهم حبال الوسائل، ولايلاحظ أن فيهم الهَرِمَ والصغير والعاجز والضعيف الذين لايستطيعون التخلص من المهالک، ولايقتدرون النجاة، ولايبالي بموتهم و هلاکهم عن آخرهم، ولاتأخذه في ذلک الشفقة والرحمة. کذلک هؤلاء الأرکان يغتصبون ضياع رعاياهم و عقاراتهم، و يستولون على مساکنهم و بساتينهم، و ينتزعون بالضرب والحبس والکي و غيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اکتسابهم، و يدعونهم في مخالب المصائب، معرضين للأسقام والآلام، و أهدافا لسهام البلايا، التي ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية، ولايخشون اضمحلالهم و ابادتهم بالکلية، و محق حياتهم بالمره[1] بل يستبشرون بذلک کأنما هم أعداؤهم، ولايشعرون أنهم قواد السلطة و أساسها. و من أفراد هذا القسم الحکومة الجنکيزية[2] والتيمورية و غيرهما من حکومات التتر والبرابرة کما تشهد بذلک التواريخ.

القسم الثاني: الحکومة الظالمة. و أولياء هذه الحکومة تماثل الأخساء الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ظلما و اعتداء. فکما أنهم يکلفون عبيدهم بأعمال شاقة و أفعال متعبة، و يجبرونهم على نقر الأحجار، و خوض البحار، و فلق الصخور، و قلع الجبال، و طي المفاوز وجوب البلاد، في صرّه الشتاء و هجيرة الصيف، و يؤلمون أبدانهم بالسياط اذا لجأوا آناً ما إلى الراحة التي تجذبهم الطبيعة اليها، و يحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة، حيث لايجدون فرصة من دهرهم للنظر في الآفاق، و في

---

١. قيل لحاکم شرقي أن رعيتک يموتون في عمل السخرة الفلاني الذي کلفتهم به فلو رفقت بهم فقال: «و هل نحن استلمناهم بالعدد فنخشى ان ينقصوا» (هامش المنار)

٢. وضع رشيد رضا «الحکومة الانکليزية» و حاول أن يشرح ذلک في الهامش (المصدر السابق ص ٥٨٠) و بالرجوع الى الأصل تبين أن الأفغاني يقصد الحکومة الجنکيزية نسبة الى جنکيزخان.

أنفسهم، كي يـرتقوا مـن الاحسـاس البـهيمي إلى عـرش الإدراك الإنسـاني، ويشاركوا أبناء جنسهم في اللذائذ الروحية، و يجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهـم بنتائجها من الصنائع البديعية، والمخترعات الرفيعة، فيسعدوا مع السعداء. و مـع ذلک يحرسون حياتهم، و يحرصون‌على استبقائها استيفاءً للخدمة منهم بـتقديم قوت من أردأ ما يُقْتاتُ به لسد الرمق، و ثياب خشنة رثة لتحفظهم مـن أظـفار العواصف و براثن القواصف. فلا يكون حالهم مع سـاداتـهم إلاّ كـحال البـهائم والأنعام الأهلية، لايعيشون إلا لغيرهم، ولا يتحركون إلا برضاه، بل بمنزلة آلةٍ غير شاعرة بأيدي مُستعبديهم يستعملونهم كما يشاءون.

كذلک هؤلاء الولاة مع رعاياهم، فإن الرعايا لايزالون يـتحملون المـتاعب والأوصاب، و يكدون أيام سنِيِّهم، و يسهرون لياليها، مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث، والحصد والدرس، والندف والحلج، والغزل والنسج، مهتمين بالحدادة والنجارة، والملاحة والتجارة، ساعين في حفر الأنهر و إنْـباع المـياه، و إنشـاء الجداول والجسور، متكبدين آلام التغرب في الحر المبيد والبرد المـميت، كـي ينالوا (أي الحكام) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن، و يحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة. و هؤلاء الظلمة لايفترون عن السعي في سلب ما بأيديهم‌جبراً، و غصب ثمار مكـاسبهم و فـوائـد مـتاعبهم رغـماً، ولايدعون لهم مما اكتسبوه بكدِّيمينهم، و عرق جبينهم، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة، حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار و تحمل تلک المصاعب، لايقتاتون إلاّ بكسرات خبز رديئة ناشفة، يبلونها بـدموعهم المـنسكبة مـن جـور وُلاتِـهم الفاتكين، ولايسترون أبدانهم الا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السـائلة من سـياط حكامهم الجائرين. ولايسكنون إلا في الأكنَّة المنخفضة، والاخصاص الخسيسة، كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الانسانية، ولايشاهدون الا بوجوه مغبرة مقشرة، و أبدان مقشفة معفرة. و تدوم عليهم هذه الحال الرديئة التي نشأوا عليها، و

المعيشة الدنيئة التي اعتادوها، حتى يقنعوا بها ولا يتعلقوا سواها. بل يتنزلون بسوء تصرف هؤلاء الولاة مما منحوه من فضيلة العقل الى رتبة البهيمية، ولايحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ولايتألمون إلا بالآلام الجسمانية.

و من أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة، و كذلک أكثر حكومات الغربيين في الدهور الماضية، و منها أيضا الحكومةالانكليزية الآن في البلاد الهندية.

القسم الثالث: الحكومة الرحيمة و هي تنقسم الى قسمين: القسم الأول منها الحكومة الجاهلة. و دعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل. فكما أنه يحث أبناءه على اقتناء الأموال، و اكتساب الثروة، و استحصال السعادة، والاقتصاد في المعيشة، بدون أن يبين طرقها، و يمهد لهم سبلها، لعدم علمه بها، و يدعوهم رأفةً الى المجاملة و الموادعة، و رفع الشقاق و النزاع من بينهم، بغير أن يحدد لهم الواجبات، و يقدر الحدود اللازمةللادارة المنزلية [1] لقصور إدراكه عنها، فكأنه يدعوهم إلى أمر مجهول مطلق لايهتدون اليه سبيلا.

كذلک حال هؤلاء الدعائم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعي في المكاسب والصنائع، والتمسک بالتجارة والفلاحة، والتشبث بالعلوم والمعارف، و يغرونهم على مجاراة الجيران، و مباراة أهل العرفان، والتعلق بأسباب النجاح والفلاح، بلا تشييد المدارس المفيدة، و تأسيس المكاتب النافعة، و تسهيل طرق المعاملات، و بث فنون الزراعة، جهلاً منهم. و يريدون من أولئک الرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق، والاحتراز عن الاعتداء والاعتصاب، و التجنب عن الفساد و العناد، و الحَيْفِ والميل في الحقوق، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة

---

١. يستخدم الأفغاني هنا ـ و بعد ذلک ـ مصطلح «الادارة المنزلية» بالمعنى القديم الذي وضعه فلاسفة الاغريق لما يعرف اليوم باسم «الاقتصاد»

العمومية، بلاتقنين ناموس عادل، حافظ للحقوق معين للحدود، فاصل للقضايا، قاطع لما يطرأ من النوازل، جامع لجميع مايحتاج اليه الانسان في اجتماعاته المدنية. و من أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على الرأفة، الذين كانوا يبكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها. والسِّيَرُ بذلك ناطقة.

القسم الثاني منها: الحكومة العالمة. و هي تنقسم الى قسمين: القسم الأول: الحكومة الأفينة. و أقانيمها تضاهي الأب العالم المأفون[1]. فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه الى العناية بأحوال أبنائه، و تقسره عليها، و أن علمه بأسباب الترف والثروة و علل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده الى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب، و تعليمهم الفنون، و تمرينهم على الحرف، و يجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة، و يحدد لهم حقوقهم. ولكن بعد ذلك يتركهم و شأنهم، لضعف رأيه، و قصر نظره، وجهله بأن ملازمة الشبان للآداب و اجتنائهم ثمار معارفهم التي اكتسبوها، و اجتهادهم في المكاسب لاتكون الا بقوة حافظة، مالم تحنكهم التجارب لما جُبِلوا عليه من الميل الى الشهوات، والانعكاف على البطالة، والتقاعد عن الفضائل، فيهوون في هاوية التعاسة، و تذهب مساعيه سدى.

كذلک هؤلاءالأقانيم[2] يعمرون بيوت‌العلم، و يشيدون دور المعارف، و ينشئون المعامل، و يوسعون نطاق التجارة، و يواظبون على تشريع سياسة مدنية، تثبيتاً للحقوق، و استتباباً للراحة، على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم. ولكنهم، لعدم تدبرهم في‌العواقب، و عدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد، و سير أمورهم على نهج العدل، و نيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم الى العلة المبقية كافتقارهم الى العلة الموجدة، لايواظبون على أعمالهم هذه، ولاينظرون إليها

---

١. الافين: ناقص‌العقل. والمأفون: ناقص‌العقل أيضا، والاثنان بمعنى واحد.
٢. الاقانيم: الجواهر أو الاصول، و مفردها الاقنوم: الجوهر و الأصل.

نظرةً ثانية بل ينبذونها ظهرياً، و يتركونها نسيا منسيا، فيتطرق إليها الخلل، و يعتريها الفساد، و يسري إليها الانحلال، لما جُبِل عليه الانسان من الحرص والشَرَه، والميل إلى الجور والاعتداء، المستلزمة لمخالفة القانون فيقع كُلٌ في العطب والنصب والشقاء والعناء، و يستولي عليهم الفقر والفاقة و يصيرون كأرض موظوبه[1]، بتوالي تطاول ايدي جائريهم، و تعاقب اعتساف معتديهم. و يشبه أن تكون حكومة المأمون و بعض سلاجقة ايران من أفراد هذا القسم.

القسم الثاني: الحكومة المتنطسة[2]. و أساطينها الحكماء. تضارع الأب المتدبر المتبصر. لايبرح ساعيا في اعداد الاسباب الموجبة لسعادة أبنائه زمن حياتهم، و تهيئة معداتها القريبة والبعيدة، ولا يتجافى آناً ما عن مواظبة دقائق حركاتهم و سكناتهم، و تفقد شئونهم و استكناه أحوالهم، ولايتقاعد لمحة عن تأييدهم في سيرهم بآرائه السديدة و أفكاره الصائبة، خوفا من التواني والكسل والاهمال والفشل، و خشية من عروض الموانع التي تصدهم عن البلوغ للغاية.

فنجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة، و حياة الرعايا، بالزراعة والصناعة و التجارة، و يعرفون أن كمال هذه الأمور واتقانها لايكونان إلا بأمرين، أحدهما و هو في الواقع علتهما الأولى: العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة، التي لايمكن حصولها، والفوز بها إلا بمدارس منتظمة، و مدرسين ماهرين، و متخلقين بأخلاق فاضلة، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم، و ثانيهما إعداد آلات الزراعة و أدوات الصناعة، و تسهيل طرق التجارة البرية و البحرية. و يفقهون أن حفظ اساس المدنية، و صون نظام المعاملات، و فصل المنازعات، و كَفّ أيدي المتعدين، و منع المدلسين، و كبح الأشرار، و ردع الفجار، لايكون إلاّ بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والانصاف.

---

١. هي التي رعيت مرارا حتى لم يبق فيها كلأ ولا نبات (هامش المنار)

٢. تطس: استقصى الأمر و دقق فيه النظر، و كذلك: تنطس. والمعنى هنا: حكومة الخبراء.

و إنها لاتتحقق الا بقانون حق، لايغادر صغيرة ولا كبيرة ـ حتى إرش الخدش[١] ـ إلا محفوظا بأمناء يقظين، محروسا بِعُدول نشطين، محفوظا بعلماء فقهين، معززا بقضاة مُقْسطين، مؤيدا بحكام أعفَّاء و أعوان بررة، يدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد، و مناهج تعميرالبلاد، و وسائل درء المفاسد الداخلية، و طرق منع النوازل الخارجية، و أن القيام بذلک لايكون الا بضرب ضرائب عادلة عليهم يجمعها جُباةٌ عدول، تصرف في منافعهم العامة لدى الضرورة بلاحيف و ميل، و انتخاب طائفة من ابطالهم الموصوفين بالصداقة و عزة النفس و علو الهمة لحفظ الأمنية[٢] الداخلية، و دفع الأعداء الخارجية، و يشعرون بأن استكمال سعادة المملكة، و صيانة استقلالها، لايكونان الا بارتباطاتها السياسية و علائقها التجارية مع الممالک الأخرى، و إنها لاتتم إلا برجال عارفين، دهاة، متبصرين، محبين لأوطانهم (لاكحسن أفندي فهمي شيخ الاسلام الأسبق في الآستانة[٣] الذي كان يقول لعدو وطنه الجنرال إغناتيف سفيرالروسية فيها: إنک عيني اليمنى، و إن حيدر ابني عيني اليسرى، كما ذكره حضرة مدحت أفندي في كتابه المسمى بأسّ الانقلاب) متدربين محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها، محيطين بطرق التجارة، فيقومون بواجبات ما اقتضته حكمتهم، و ما أحاطوا به علما، ولا يتهاونون آناً ما عن أداء حقوق رعاياهم، ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئک الضعفاء. وزد على ذلک أنهم يدرون أن غالب أفراد الانسان طبع على الحرص، و فطر على الشر، و جبل على الشهوة، و خلق متهاوناً بواجباته متوانياً عن إصلاح شؤونه، و نشأ على المكر و الحيل، و غرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير و عدم الاكتفاء بما ملكته يداه، و غرس فيه بغض الشرائع والقوانين، حينما يراها

١. الارش شرعا بدل الدم أو الجناية او هو للاطراف كالدية للنفس (هامش المنار)

٢. الأمنية: الأمن.

٣. قيل ـ و مصدر ذلک هو الأفغاني نفسه ـ ان حسن فهمي هذا كان من أعداء الأفغاني و حساده خلال إقامته في تركيا (١٨٦٩ـ١٨٧١) و أنه تسبب في طرده منها.

سدا يمنعه من سلوك سبيل الغدر، و حاجزا يردعه عن مقتضيات الشره، و غـلاً يكف يديه عن التطاول. و إنهم يفهمون أن كل ما يقع في العـالم الانسـاني مـن المرض والصحة والفقر والغنى والنَصَب[١] والراحة، بـل كـل مـا يـقتضي الشـقاء والسعادة، و يوجب الصلاح والفساد، لابد و أن يكون لارادة الانسان و حركاته الاختيارية فيه دخل تام، و يدركون أن الانسـان مادام على هذه السجية والغريزة فهو كمريض تنازعته أمراض خطرة مختلفة، لاينجو منها الا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج، و يتفقده آناء الليل و أطراف النهار، فيهتمون حكمةً و شفقة بتتبع أحوال الرعايا مثل ذلک الطبيب الماهر، ولا يبرحون عن موازنة أعمالهم و أفعالهم و حركاتهم، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم و أخلاقهم، ولا يفتُرون عـن تعديل ثروتهم و غنائهم، و تقويم علومهم و معارفهم و تجارتهم و زراعـتهم، و إحصاء عددهم، و تعداد أحيائهم و أمواتهم، ولا يتوانـون عـن مـقابلة الصـادر والوارد في ممالكهم، والمعادلة بين قوة حكومتهم و اقتدارها و اقـتدار الغـير و قوته، لكي يقتدروا على تدارک مصالح البلاد قبل تمكن الفساد، و يقدروا على جبر الكسر و سدالثغر، ورَفْو الخَرْق، و إزالة جراثيم الرزايا والمصـائب، و ابـادة أسباب الخلل والمصاعب. و اذا لم يـمكنهم القـيام بـاستقصاء دقـائق التـعديل والتقويم، و جزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة، انتخبوا رجالا يقظين عـارفين بأحوال الدول و قواها، متبصرين بشئون الممالک و أسباب سعادتها و شـقائها، عالمين بفنون التجارة والزراعة والصناعة و لوازمها، مهندسين مـحاسبين لأداء هذه المصالح، و تسجيلها في السجلات بغاية الدقة والاتقان، و عـرض كـلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء، مع بيان موارد النقص والخلل و ايضاح أسبابها. و غير خاف أن تسجيل المعادلات و حفظ الموازنات للـدول ألزم مـن تـقييد التـاجر معاملاته في دفاتره اليومية، فإنه لايلزم من إهمال في التـقييد والتـثبيت، إلا أن

١. النصب ـ بفتح النون و الصاد: التعب والاعياء.

يضيع رأس ماله على جهل منه، و يصبح مفلسا، و هذا ضرر خاص به. و أما إهمال الدول في حفظ المعاملات و تسجيل الموازنات فيوجب خراب البلاد و هلاک العباد و من أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالاستاتستيک.[١]

فهاک يا أيها الانسان الشرقي صاحب‌الأمر والنهى حکومة رحيمة حکيمة و عليک بها، والقيام بشأنها، و حفظ واجباتها، و إلاّ فبحياتک التي أفديتها براحة العالم أن تعفونا عن تحمل ثقل تشدقک بالرحمة والعدالة والحکمة والفطنة. أتريد أن تظلمنا و نکافئک بالشکر؟ و تغصب حقوقنا و نجاريک بالثناء؟ أو تظن أنک تقدر أن تَغُرَّ کُلَّ العالم و تعمي بصائرهم؟ و أن تنزل بالملک عندهم منزلة الحق؟ و أن تجلس جورک مجلس العدل؟ و أن تقيم سيئاتک مقام الحسنات؟ و أن تُقْعِدَ رذائلک مقعد الفضائل؟ ولعلک اغتررت بتمجيد المتملقين، و تعظيم المتبصبصين[٢]، و تبجيل المتزلفين أمامک. ويحک، لوکنت تعلم مقامک في النفوس، و منزلتک لدى أرباب البصائر والعقول لودعت هذه الدنيا الخؤون التي ألهتک، و فارقْتَ حياتک العزيزة التي طالما افتديتها بالمروءة والانسانية.

و أما أنتم يا أبناء الشرق، فلا أخاطبکم، ولا أذَکِّرکم بواجباتکم، فانکم قد ألفتم الذل، والمسکنة والمعيشة الدنيئة، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف. صرتم کالعجائز لاتقدرون على الدَرْء والاقدام، والجلب والدفع والرفع. فإنا لله و إنا اليه راجعون.

---

١. الاستاتستيک: علم‌الاحصاء، و کان علما حديث النشاة في ذلک الوقت. و من الواضح أن الأفغاني نقل الاسم عن الفرنسية.

٢. المتبصبص: الطامع أو الراغب في الملق.



«أحرار» يقتلون الحرية

الخديوى أعار يديه للاحتلال خوفا على العرش. مصر باب الشرق وفيها لم يخمد العصيان



«احرار» يقتلون الحرية[1]

السيد رئيس التحرير

لقد خان الأحرار الانكليز كل تعهداتهم التي ضمنوها برنامجهم السياسي، الذي بموجبه و صلوا إلى الحكم... و ذلك بتدخلهم في شؤون مصر، و جهودهم التي هم بصدد بذلها في سبيل السيطرة على هذا البلد.

انهم خانوا وعودهم، بسبب تعهدهم أمام ناخبيهم للدفاع عن حق الناس و حرية الأمم، في كل أنحاء المعمورة.

الأحرار فاقوا المحافظين في مجال الفتوحات والحروب الظالمة، التي انتقدوا بفصاحة اللورد بيكونسفيلد و أصدقاءه، بسببها.

و من لا يتذكر غلادستون خلال الانتخابات العامة، الذي لم يتردد في تأييد «الزولو» الذين تخطوا الحدود الانكليزية، والأفغان الذين، بتحالفهم مع الروس وحدهم، قضوا على علاقاتهم الصداقية مع انكلترا.

و هو، غلادستون نفسه، الذي أعلن الحرب على المصريين الذين لم ينتهكوا حدود أحد، وكل ما طلبوه هو أن يعيشوا أحرارا في وطنهم... الذين لم يعطوا

---

١. مجلة *اوراق* العدد السابع (كانون الثاني / يناير ١٩٨٤)

أفضلية، على صعيد التحالف، لأية دولة أوروبية، دون الأخرى. مفضلين العيش بسلام و بصداقة طيبة مع‌الجميع.

أهكذا، إذن، يجري اللعب على قيمة الكلمات بين الأوروبيين، و هل يجب أن نعتقد بأن الذين يزدانون بينهم بلقب الأحرار، في وطنهم، هم أسوأ أعداء الحرية لدى الآخرين.

فضلا عن ذلک، فان فتح انكلترا لمصر قد تم وفق موضة الفتوحات الخاصة بهذه الأمة و المتبعة منذ جيلين، فانكلترا لاتقدم على ذلک، والسلاح باليد. انها تحترس جيدا. و بالعكس، هي تدخل البلد الذي تطمع به، تحت كل الأشكال الأكثر مجاملة، و كل المظاهر الأكثر مودة. هناک، تنحاز أحياناً إلى جانب الأمير ضد الشعب، و احياناً إلى جانب الشعب ضد الأمير. و هي تنحاز مرة لدولة و مرة لأخرى، تبعاً للظروف، و وفقاً لعروض الخدمات الملحة، واضعة تحت تصرفهم أخلص موظفيها و ضباطها الذين، سرعان ما يهيمنون على كامل الادارة. و ليس ما يمنعهم من الظهور بالتجرد من أية غرضية، حيث أنهم لايقصدون إلا انقاذ الأمير من اعدائه الداخليين، و تخليص الشعب من أعدائه الخارجيين.

هذه المسرحيه، المتكررة، لعبتها انكاترا مؤخرا، تارة الى جانب الخديوي توفيق، و طورا إلى جانب الحزب الوطني المصري، حيث لم تعد تعرف، حتى اللحظة، الأخيرة، أيا من الاثنين هو تحت حمايتها نهائياً. بالنسبة للخديوى، حاولت أن تقنعه انها الوحيدة التي تستطيع و تريد دعمه ضد الحزب الوطني، الذي يهدف فقط إلى قلبه، و هذا خطأ. و قالت للحزب الوطني و عرابي بواسطة جواسيسها السريين، انها الدولة الوحيدة التي ترغب في الحكم الذاتي لمصر، و هذا أيضاً خطأ.

واحسرتاه! فلو كان الخديوي اكثر فطنة او أكثر ثقافة، لكان تذكر ما يترتب عادة على الأمراء و الأسر المالكة، الذين يقبلون المساعدة والحماية من انكلترا

ضد مواطنيهم. في الواقع، بدأت انكلترا في تجديد سلطتهم، معلنة انها خـادمتهم الأولى... تلك السلطة الملكية التي وضعتها بريطانيا دائما في المقدمة، وجابهت بسببها الجميع في الداخل والخارج، ولكن شرط أن تتصرف السلطة تلك كـما يحلو لها (أي لانكلترا).

هذا ما يمكن رؤيته في الهند خلال ٨٠ سنة. فانكلترا لديها الصبر ـ الصبر كان فضيلتها السياسية الكبرى ـ أن تظهر بمظهر الصديق المتواضـع، الأكـثر سـعادة والحليفة الأكثر تبجيلا من عائلة تيمور المالكة، رغم انها، منذ اليوم الأول لتدخلها الصداقـي لم تـترك لهـم، فـي التـحديد و فـي الحـقيقة، غـيراللـقلب الشـرفي للشاهنشاهية. ولم تخلع القناع و تظهر على حقيقتها: السيدة الوحيدة والمـطلقة للهند، إلا منذ حوالي ثمانين سنة.

لوكان توفيق أكثر ثقافة، لأدرك ان انكلترا، و هي تسيطر كم فـعلت، بـحجة الدفاع عن البلد، و عن الجيش المصري... ستعامله، و هوالخديوي، تماماً مثلما عامل «النـاباب» فـي «البـنغال» و «لاكـانو» و «كـاماتاك» و غـيرهم مـن «النابابيين» الذين هدرت دمهم وضمت بلادهم، بواسطة الجيش الذي وضع تحت رعايتها حيث أعادت تنظيمه، كما ادعت، من أجل الدفاع عن العرش.

ولو أردت أن أقيم مزيدا من المقارنة والتشابهات، لكنت لاحـظت كـيف ان انكلترا حين استولت على جزيرة قبرص، قد تظاهرت بالقول أنـها لم تسـلخها نهائيا عن الامبراطورية العثمانية التي سوف تعيدها اليها. ولكـن حـين سـلخت كالكوتا من آل تيمور، لم تقل الا الشيء نفسـه.

حتى خلعها لاسماعيل و استبداله بتوفيق، ليسا شيئا فريدا في سياسة انكلترا الشرقية. ذلك ان الاحتفال الرسمي نفسه، قد جـرى بـرعايتها، يـوم تـم خـلع «النا باب سراج الدولة»، و استبداله بمراد جعفر.

باختصار، انكلترا هي بصدد تفكيك الامبراطورية العثمانية من أجل ابـتلاع

الأجزاء المرغوبة منها، الواحد تلو الآخر، تماماً بالطريقة نفسها التي ابتلعت فيها الهند، ببطء، ولكن بلا مخاطر.

غير أنها، لسوء حظها، قد اضطرت الى التخلي عن نهج النفس الطويل في مصر، رغم اخطائه، فان نجاحات الحزب الوطني، الذي لم يقبل باقل من الحكم الاستقلالي للبلد، قد دفعتها الى التفكير الشديد. ان حكم الحزب الوطني لمصر، كان مناقضا لما حلمت به. ولذلک سرعت الأحداث. والمعروف ان النتيجة المباشرة لتسريع الأحداث: قصف الاسكندرية. إبطال حياد قناة السويس، و معركة التل الكبير، و غيرها.

ولكن الكوارث الماضية الناجمة عن تسريع الأحداث، ليست موضع اهتمامي الآن. ما أريد التوقف عنده هو نوعية و كمية النتائج المتلاحقة التي ستنجم حتماً عن تلک السياسة.

أولى تلک النتائج ان انكلترا، من الآن وصاعدا، لن تتمكن من اخفاء لعبتها.

في شهر حزيران (يونيو) المنصرم، تذرعت انكلترا، لتدخلها في مصر، بمطلب الحزب الوطني أن يكون لمجلس الأعيان حق فحص الميزانية، مع أن المطلب صحيح، و مشروع و منطقي، جدا.

«كلا لا أستطيع الموافقة على ذلک»، أجابت الحكومة الانكليزية باصرار. «أن مثل هذا الادعاء يمس شروط المراقبة الموضوعة عبر اتفاق دولي بين مصر، فرنسا و انكلترا، اتفاق مصادق عليه و معترف به من أوروبا. لاتمسوا شروط اتفاق المراقبة، انها مقدسة».

ان ما كان مقدساً لانكلترا في شهر حزيران (يونيو)، أصبح أقل قداسة بعد القصف في أيلول (سبتمبر)؛ ثم انتهى تماماً الآن. فحتى تصبح سيدة مصر سريعاً، عمدت انكلترا نفسها إلى إلغاء الاتفاق، رغم احتجاج فرنسا الشديد، والقلق القليل الذي أبدته أوروبا، التي تنظر بحيرة إلى ما يجري في هذا المجال بين القوتين الغربيتين الأعظم.

بلاشک، لقد استعملت كلمة غير دقيقة تماماً، بقولي ان انكلترا نفسها هي التي ألغت الاتفاقية، فهي كلفت رسمياً توفيق و وزيره الأول شريف باشا، للقيام بتلك المهمة. ولكن هذا التوكيل لم يغش أحدا، ولم يثبت إلا ان انكلترا، منذ اليوم، صار لها اسمان مصريان مستعاران بدلا من واحد.

بالنسبة لحيرة أوروبا، فهي تفهم على ضوء الأزمة الداخلية التي تجتاح فرنسا، ولكن من المتوقع ان الحيرة ستزول بزوال الأزمة. و انكلترا، عند الحاجة، تتعهد بوضع حد نهائي للأزمة، عبر وقاحتها الخداعة. في الواقع لاأحد يجهل، انها وحدها، منذ شهر أب (اغسطس)، سرقت حق الأمم بأخذها قناة السويس قاعدة لعملياتها الحربية. تحت خطر توقيف تجارة العالم بأسره. و انكلترا نفسها اليوم، ترفع الصوت عاليا في أوروبا، متشكية من الأضرار التي لحقت بتجارتها الخاصة بسبب الحرب المجرمة التي أضرمتها. و في اليوم الذي يتسنى فيه لأوروبا أن ترى كيف يهزأون بها في مصر و يضحكون من سمو مصادقتها، فحينئذ لايكون لها أن تسأل أو تتذكر من هي المتشكية و من أى شيء تتشكى. و عاجلا أم أجلا، فان أوروبا ستستيقظ ذات يوم لتبلغ انكلترا أنها ليست مادة لسخريتها. ولكن ثمة يقظة أخرى سابقة، حيث تكون نتائجها مخيفة للامبراطورية البريطانية، وأقصد بها يقظة الهند.

أنا لاأعتقد اني أبالغ في قولي أن خشونة تدخل انكلترا في مصر قد أفقدتها، في لحظة، كل ما نالته عبر براعة رجال الدولة عندها خلال سنوات طويلة، من ميل وثقة الهنود. لقد أصبحت انكلترا، الآن، موضع بغض عميق من قبل الهنود المسلمين، السنة منهم، والشيعة. و سواء جاء ذلک بالفريزة أو عبر تحذير ممن لهم معرفة بالهند، فالمسلمون الهنود قد اقتنعوا الآن ان هدف الانكليز من الاستيلاء على مصر، هو في الدرجة الأولى للتحضير من أجل فتح الحجاز و مكة. و هم يعتقدون جميعاً ان الانكليز، في حال وضع يدهم على مهد و مركز الاسلامية،

سيتوفر لهم عامل قوي من أجل القضاء على هذا الدين. ذلک انه من المعروف ان لدى عامة الهنود فكرة عن انكلترا مختلفة عن فكرتهم ازاء فرنسا أو روسيا مثلا، و هي ان الأولى تطلب منهم اضافة إلى الاتاوات و الضرائب حيث تحاول استمالتهم إلى الديانة المسيحية. والذي يعرف الشرقيين، واهتمامهم القلق، عندما يهددون باعتقادهم الديني... يتوقع حدوث كل شيء.

لقد سافرت إلى الهند خلال الحملة العسكرية الأخيرة لمصر. هناک، لم ألتق مسلماً واحدا، إلا و كلمني عن هذه الأحداث بقلق و ألم عميقين. الجميع قالوا لي: «يجب أن نتضرع الآن حتى تسرع روسيا في أخذ الهند من الانكليز، و تقلب هنا حكومتهم الشرهة... حيث، بخلاف ذلک، ستلاقي الاسلامية، قريباً، بينهم من هم أكثر المضطهدين المبغضين. ان ارسالياتهم تريد أن تعمل منا مسيحيين، بأي ثمن».

يجب الاعتراف ان ما تنشره في تلک الحقبة جريدة «الأخبار» الهندية في لاهور، ليس بمقدوره أن يهدىء من تلک التصورات. كانت الأخبار تنشر، من دون تعليقات، بعض المقالات نقلا عن الجرائد الانكليزية شبه الرسمية، مثل قولها: «انه يجب على حكومة صاحبة الجلالة أن تقرر، بسرعة، فرض المسيحية على مسلمي الهند، حيث، دون ذلک، لن تصل إلى شيء، لأن المخالفين لها دينياً، هم مخالفون سياسيا، ولا يرون في الهيمنة البريطانية إلا هيمنة غير شرعية و زائلة، حيث لايجب أن تكون أطاعتها إلا في‌الحد الأدنى، اضافة إلى عدم الثقة بها. و عليه، فلاريب انه من الضروري أن تتصرف انكلترا كما تصرف الفاتحون المسلمون، حيث تفرض بدورها دينها على الشعوب المغلوبة».

اني لا أقدر هذه الألفاظ حق قدرها، بالنظر إلى الاحتمال الديني الحديث. أما بالنظر إلى التدبير السياسي المألوف، فمما لاخلاف فيه، ان العبارات تلک تدعو إلى عجب الكتاب الذين لم ينسوا أن ثورة عام ١٨٧٥ نشأت عن خوف و تهديد

أقل وضوحاً من هذا التغيير في الدين. و اني أعلم يقيناً أن هذا الخوف قد استولى الآن على كل أفغانستان و بلوخستان، حيث جاؤوها بطريق سمرقند و أشكاباد من أملاك روسيا. و ليس من الخطأ أن تتنبأ بأنه سيتم حصد مثل هذا الزرع حين تحل روسيا في « مرو »، مما لايطول أمد انتظاره. لأن حلم الانكليز المتعلق بدعم ألمانيا والنمسا ضد روسيا في أوروبا، بما يحولها عن الهند، هو حلم و همي.

هاك في آسيا النتائج القريبة والأكيدة تقريبا، في مذهبي، لضلال أحرار الانكليز في المسألة المصرية. أما في أوروبا، فمن الممكن أن لاتكون هذه النتائج في ساعة ما مخيفة. و مهما كانت تأكيدات وزارة الخارجية مطمئنة و ضاحكة، بالنسبة لأفكار أوروبا الحالية في هذا الشأن، فان أمرا واحدا متغلب على كل ذلك، و هو أن أوروبا لايمكنها أن تنسى أن مصر كانت في مدة أجيال عديدة أرضا حرة مفتوحة لكل الأوروبيين، الذين كانوا يتمتعون فيها بمنفعة خاصة، فكانوا يتجرون فيها و يربحون بحرية. و كيفما ننظر الآن في المسألة نرى ان هذا الحق نقص و مس بالتداخل الانكليزي، الذي تتألم منه الآن النمسا و ايطاليا، و بالأخص فرنسا التي لم يصادف نفوذها المخصب في تلك الجهات فشلا إلى تاريخ هذا التداخل، فان مصر كانت ولا زالت على الدوام باب الشرق، ولكل أمة أوروبية عظيمة أو صغيرة مصالح و علاقات في الشرق. فاذا كان في نية انكلترا أن تحفظ لنفسها وحدها هذا الباب و تضع مفاتيحه في جيبها، فكل الأمم على اختلاف أجناسها تجد بذلك إهانة و احتقارا لها، و تدفع بقوة الحوادث رغم المغايرات والمخاصمات التي تفصلها عن بعضها في جهات أخرى من الأرض، إلى تأليف عصبة واحدة ضد انكلترا في الأرض المصرية، و هذه هي النتائج التالية المتوقعة لسياسة وزارة غلادستون المصرية.

بقي علي أن أظهر ان هذه السياسة الانكليزية المصرية لاتصادف في أرض مصر نفسها أخطارا قليلة، لأن الأفكار بعيدة فيها عن السكون. والعصيان لم يخمد

فيها بمطامعه الشرعية و غيرته الوطنية. والخديوي توفيق، باعارته مـداخـلات الانكليز أذنا صاغية، بأمل انقاذ عرشه و بقائه بعيدا عن بعض الأخطار الناجمة من رعاياه، مما أدى الى استدعائهم لمساعدته و فتحه أبواب البلاد لهم. غير انه عندما يتضح له ان المدعين لحمايته ليسوا الاعبارة عن سجانين، و عندما يعرف حقيقة هدفهم، التي ليست تعمير مصر، بل السيطرة عليها و استثمارها... في ذلک اليوم، لانشک انه يرفض أن يكون أداة بأيديهم، و سيخجل من كونه قـد أعـار يـديه للأجانب الذين احتلوا بلاده.

عندئذ، سيفعل ما فعله ملک الأفغان الشاه سودجاه. لأن توفيق ليس أقل ديانة من الملک الأفغاني، بل انه يعادله بالوطنية والشجاعة ذلک ان توفيق يـجب أن يكون ابنا جديرا بأبوه محمدعلى.

اذن، مثل شاه سودجاه، سوف يصرخ اطردوا الانكليز، ولو اقتضى ذلک أن تدوسوا على جثتى.

عندها، سيجد توفيق والمصريون في أوروبا حكومة مفعمة بعواطف الشجاعة والشهامة. تمد لهم يدالمساعدة.

«جوستيس»

۲۷ اذار ـ مارس ۱۸۸۳



بابيّـه



بابيَّــه

دين ظهر في بلاد االعجم نحو سنة ١٨٦٣ بدعوة رجل من اهل شـيراز يُـعرف بالسيد علي محمد و كان تلميذا لبعض تلامذة الشيخ احمد زين‌الديـن الاحسـائي الذي مزج‌التصوُّف والفلسفة بالشريعة و جمـع بـين اعـتقادات الشـيعة الامـامية والاصول الفلسفية على طرز جديد و قـال ان المـهدي الغـائب المـنتظر ظـهورهُ عندالشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني سماهُ بجابلقا و جابرسا وان اجسـام سكان ذلک العالم الروحاني كاجسام الجن والملائكة المسماة بالاجسام الهورقليائية و هي من اصطلاحات الكيميا القديمة و قد قفاهُ على هـذا الاثر تلامذتهُ و قاموا في مقام التعليم على هذه الطريقة و كان من امر السيد علي محمد المذكور بعد ان حج، الى مكة ان ادعى انهُ باب المهدى و اقام على تقرير هذه الدعوى مدةً و اسس ذلک الدين من عناصر اسلامية و نصرانية و يهودية و وثنية و لقب نفسـهُ باب‌الدين ثم ترک هذااللقب و لقب نفسهُ النقطة او خالق الحق مدعياً انهُ ليس نبيّاً بسيطاً بل هو مشخص للالهة و منع احدَ اتباعِه لقب الباب وارسـل دعاةً الى جهات مختلفه. ثم بناء على قول مقتداهُ الشيخ احمد المذكور في امر المهدي ادعى ثانيةً انهُ المهدى بعينه و ان ذاک الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هـذا الجسم الكثيف المادّي و لما كانت الرجعة اي رجوع بعض الائمة السابقين و تابعيهم

من الاصول الثابتة في مذهب الامامية والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة كان لهُ بقايا في النفوس فقام جماعة من اتباع هذا الرجل اعني السيد عليًا و ادَّعى بعضهم انهُ الحسن و بعضهم انهُ الحسين و بعضهم انهُ غيرهما من الائمة و تابعيهم و ايّد هذه الدعاوى عندهم رأي رآهُ هذا الرجل نفسهُ و هو ان شخصية الشخص التي باعتبارها يمتاز عن غيره و ينال اسماً خاصا به كحسن او حسين مثلاً انما هي صفاتهُ و اخلاقُه التي يكون عليها فمن وجدت فيه صفات شخص و اخلاقهُ و احوالهُ على وجهٍ تامّ فهو هو في اي زمان كان. و لقرب هذه الاعتقادات من مشرب‌الطائفة الشيخية من الشيعة و هم اتباع الشيخ احمد زين‌الدين المذكور آنفاً لبى دعوة هذا الرجل كثير من اهالي بلاد العجم المتمذهبين بذلک المذهب الجديد. فلما رأى اقبال الناس عليه و اجابتهم دعوتهُ ترفَّع في دعواهُ فقال انهُ هو النبيُّ و ان‌الله قد انزل عليه كتاباً يسمَّى بالبيان و انهُ المشار‌اليه بقولِه تعالى خلق‌الانسان علّمهُ‌البيان. والانسان هو محمد والبيان هو هذاالكتاب المنزل على السيد علي. و كتابهُ هذا يحتوي على كثير من العربي المسجَّع و بعض الفارسي الاَّ ان‌العربي منهُ كان ملحوناً فلما سئل عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل مع ان اللحن نقص اجاب بان الحروف والكلمات كانت قد عصمت و اقترقت خطيئة في الزمن الاوّل فعوقبت على خطيئتها بان قيدت بسلاسل الاعراب و حيث ان بعثتنا جاءت رحمةً للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فاطلقت من قيدها تذهب الى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط. و مما ينسب اليهِ انهُ كان سريع القلم في الكتابة حتى كانت سرعة قلمهِ تحسَب من جملة معجزاتهِ. و قد لقب نفسهُ بالذِكْر و زعم انهُ المراد من الآية انّا نحن نزّلنا الذكر و انّا لهُ لحافظون. و من قوله فاسأَلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون و امثال ذلک من الايات القرآنية و اخذ يدعوالناس الى دينه ولم يعلم من يجيب دعوتُه فتبعهُ جمعُ كثير من اهالي بلاد العجم و استفحل امرهُ و علقت

بقلوب الناس دعوتهُ و اوقع تابعوهُ في قلوب الناس رعباً و خوفاً اذكانوا يقفون على سرائر الناس و خباياهم فمن كان يوميءُ بطعن في معتقدهم لم يلبثوا ان يقتلوهُ و فشا منهم التعدي والغدر حتى كانوا يتشكلون باشكال متعددة كالسائلين و نحوهم ليتمكنوا من الفتک بمن ظنوا به او توهموا فيه انهُ يشير بسوء الى مذهبهم فسفكوا بذلک دماء كثيرة و كانوا شبه الناس بالفداوية الذين اشتهر امرهم على عهد الفاطميين (راجع اسماعيلية) ثم انهم لم يقفوا على هذا الحد بل تجاوزوهُ الى ان اثاروا الفتنة على الحكومة في ثلثة مواضع و ابرزوا من الجسارة ما لم يسمع بمثله حتى كان الرجل منهم يتزر بازار و يأخذ سيفهُ و يهجم على الالوف من العساكر عرياناً ليس عليه سوى الازار و كانوا يعتقدون ان من يموت منهم في المحاربات يقوم بعد اربعين يوماً فاشتدَّ على الحكومة خطبهم و حاولت كبحهم فقاوموها و ثبتوا امامها الى ان قبض على هذا الرجل اعني السيدعلىمحمدو قُتل بالرصاص على فتوى العلماء في تبريز و ذلک سنة ١٨٥٠ بعد ان بقي في السجن ١٨ شهراً و قذف بجثته في خندقها و ذلک فى عهد الشاه الحالي في السنة الثانية من جلوسه على كرسي المملكة و يزعم اتباعهُ ان جثتهُ قد صعدت الى السماء اما غير اتباعه من الاعجام فيقولون ان جثتهُ قد اكلتها الكلاب. و بعد مضي سنة من قتلهِ حلول ثلثةُ من اتباعه قتل الشاه فرموهُ بالرصاص الاَّ انهُ اخطأهُ فنشأ عن ذلک اضطهاد شديد فقتل جماهير من اتباع الباب في طهران و عذبوا بعذابات تقشعر لها الابدان و من جملتهم قرةالعين الاتي ذكرها و كان ذلک باعثاً على زيادة امتداد الباقية في العجم والهند و قسم من تركيا.

ثم ان هذا الرجل كان قد اومأ في بعض رسائله الى ان الذي يخلفهُ بعد موته شاب من تلامذتهِ يسمى يحيى و يلقب بصبح ازل فلما وقع تشديد الشاه عليهم و تعقبهم بالقتل في جميع الاماكن هرب كثير منهم الى بغداد من بلاد الدولة العلية. و ممن خرج منهم يحيى صبح ازل و اخوهُ الاكبر المسمى بميرزا حسين علي الملقب ببهاء. فاختفى صبح ازل عن اعين الناس بامر اخيهِ و ادّعى اخوهُ انهُ حاضر بينالناس الا انهم

لا يرونهُ اذ ليست الابصار بقابلة لان تنالُه. ولما وقع الاتفاق بين‌الدولة العلية و دولة الشاه على اخراجهم من بغداد و نقلتهم الدولة الى ادرنه تنفس صبح ازل و اسفر على الناس قائماً بامر الخلافةِ داعياً الى دين استاذهِ السيد علي فحسدهُ اخوهُ و انكرهُ و ادَّعى انهُ دجال فوقع الشقاق بينهما و افترق التابعون فئتين فئَة اقتدت بصبح ازل و اخرى ببهاء والاولى تسمى ازلية والاخرى بهائية والبابية اسم لهما عامٌّ. و بعد مدة احست الدولة العلية منهم سوءَ المقاصد و او جست منهم شرًّا فنفت صبح ازل الى جزيرة قبرس فمات فيها و نفت بهاءَ الى عكاء و هو الان فيها مع جمع من اتباعه.

و اما ديانة الباب فتثبت مبدأً واحداً كسائر الاديان على مايتراءَى من قول اتباعِه و تحكم بصدق جميع المرسلين السابقين و تقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت و تنبيءُ عن ثواب و عقاب للارواح بعد مفارقة الابدان لكن على وجه يشبه الخيال فتلتذُّ النفوس الطيبة باخلاقها و معلوماتها و تتألم النفوس الخبيثة بملكاتها الرديئة و جهالاتها الى ان تزول هذه الملكات عنها فتعود الى عالم الاجسام مرة ثانية و هو ضرب من القول بالتناسخ و تأمر بالصلاة وجوباً و هي ركعتان فقط وقت الصباح. وقد اتخذ مسجداً كبيراً في شيراز و جعلهُ كعبة تولى الوجوه اليها في الصلاة و تفسد الصلاة بالانحراف عنها. ثم انهُ جعل الشهر تسعة عشر يوماً لان هذا العدد عندهم مقدس لان اصل وحدة اللاهوت مؤلفة على زعمهم من ۱۹ اقنوماً و رئيسهم الباب فهو عندهم اعظم من محمد كما محمدا اعظم من عيسى و فرض الصوم شهراً من اخرالحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز و هو اول الحمل. و من احكامِه انهُ يجب تخريب جميع البقاع المقدسة كمكة و بيت‌المقدس و قبور الانبياء و الاولياء عند حصول اول سلطة لاحد ممن تبع دينهُ و يحرم شرب‌الخمر و كذا الدخان على عهده و حللهُ اتباعهُ من بعده و يندب شرب‌الشاي ندباً مؤكداً حتى ان من شربهُ ينال جزيل الثواب و منها انهُ يجوز العقد

على اثنتين فقط والشراء والمتعة بغير حصر و على ما يقال انهُ يجوز نكاح الاخت. و منها ان من كذب في قول او نادى شخصاً من خلفهِ فقد اساءَ و كفّارتهُ اعطاءُ ثلثة مثاقيل من الياقوت فان لم يجد فصيام يومين. و منها ان شهداءهم الذين قتلوا في طهران و غيرها يجب ان يبنى لهم مشاهد مكللة بانواع الجواهر و انهُ يجب على اي سلطان يكون منهم ان يضع سيفهُ في العالم فاماالدين او الموت ولا يجوز اخذ الجزية. و انهُ يجب على كل واحد منهم ان يكون عندهُ كأس من الفضة و ثوب نظيف نقي اما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافي و اما التوب فيتجمل به عندالفراغ و انهُ يجوز ان يظهر بعدهُ كامل اخر لكن بعد ان يمضي من السنين عدد حروف المستغاث يعني الفي سنة و كسوراً. و يحظر في مذهبهم اتخاذ السراري والطلاق و استعمال النساء للنقاب و يصح ان يقال ان دينهم الى الان لم يقرَّ على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلاًّ في محل ثم تنتقل و تحدث تلاًّ اخر بشكل اخر في محل اخر.

و كان من جملة دعاتهِ امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلمة من بنات احد المجتهدين في العجم و كانت متزوجة بمجتهد اخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعةالاسلام و آمنت بذلك الرجل عن غيب و كانت تكاتبهُ و يكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباتهِ بقرةالعين فلُقبت بذلك و كانت تناظرالعلماءَ والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ثم لما وقعت المحاربة بين البابيين و عساكرالدولة في مازندران جيشت جيشاً و قادتهُ مكشوفة الوجه و سارت امامهُ طالبة اعانتهم و في اثناء الطريق قامت في الناس خطيبةً و قالت ايهاالناس ان احكام الشريعة الاولى اعني المحمدية قد نسخت و ان احكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الان في زمن لاتكليف فيهِ بشيء فوقع الهرج والمرج و فعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح ثم قبض عليها و ألبست البرقع جبراً و حكم عليها بان تحرق حيةً ولكن الجلاد خنقها قبل ان العب النار بالحطب الذي أُعدَّ لاحراقها و من احكام هذاالدين انهُ لايجوز ان يضرب المعلم تلميذهُ اصلاً و ان

الزكوات والصدقات لايجوز اعطاؤُها لغير البابيين فان فقد فقير في البابيين فتصرف على من بقي على مذهب الشيخ احمد زين‌الدين الاحسائى.

و اما نسبتهم الى الاباحيةُ (الكمون) بهذا من لوازم مذهبهم حيث ان كل من خالفهم في معتقدهم فدمهُ و مالهُ هدر. و اما تشاركهم في الاموال فهو من مقتضيات كل دين او مذهب جديد اذيتعاون اهلُهُ ببذل جميع ما بايديهم و يرتفع الحجر و الحرج من بينهم. فهذا ما رواهُ عنهم السيد جمال‌الدين الافغاني المشهور و غيرهُ.[۱]

---

۱. دائرةالمعارف، قاموس عام لكل فن و مطلب، تاليف: المعلم بطرس البستانى، ج ۵ ـ دارالمعرفة، بيروت ص ۲۸ـ۲٦.



دائرة المعارف



رسالة

من أديب اسحق إلى جمال الدين الأفغاني

سيدي الأستاذ الأعظم

لئن كان لأدوار الزمان قضاء نافذ في الناس، فلقد حال الكمال أنفس آحاد الرجال عنه فما تنفعل بالحادثات ولا تؤثر فيها التقلبات، بل هي في مقام التجرد الذي تستوي فيه مظاهر عبث الأيام بأبناء الزمان. والسيد[1] لازال حجة هذا القول، ما ترك فضيلة ولا قعد عن مكرمة ولا ضن بمنفعة، ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كان نافذاً في مريديه فما أطاقوا الخير معروضا من جانبه ولا ذادوا الشر طارئا من جانب الأحداث و هكذا وقع من بعضهم[2] الاهمال في مكاتبة من راسلهم عن السيد من أمراء الهند، فانقطعت أخباره عن سائرهم إلى هذه الأيام فعسى أن يعوضهم المستقبل مما أضاعوه خيراً فيجد الأستاذ تحت سماء الحرية[3] مستقراً طيباً أميناً، فلا تحتجب بعد ذلك أنوار أفكاره عن البصائر و ان احتجب ضياء وجهه عن

---

١. اي الافغاني، و كان يوقع بكلمة «السيد» بعض مقالاته.

٢. ربما يقصد بعض تلامذته من المصريين، الذين انقلبوا عليه بعد أن طردته السلطات البريطانية من مصر، ونفته إلى الهند.

٣. اي باريس، حيث كان يقيم الافغاني حين كتب اديب اسحق رسالته.

الأبصار وقد حمل البصير[١] إلينا مفتتح مقالة السيد في الشرق و الشرقيين[٢] فكانت مقدمتها غذاء للألباب و ما يليها مهازاً للعزائم ولاتزال الأنفس مشتاقة إلى البقية اشتياق الظماء الى بارد الماء فالمسئول من كرم السيد أن يرسل إلي ما طبع منها و من سواها في البصير و غيرها من جرائد لندرة و باريس جملة فتلک أمنية للعاجز فيها شركاء كثيرون ممن عرفوا السيد بالخبر أو بالأثر ولست أذكر للاستاذ شيئاً مما لدي من أخبار مصر العمومية فانها تصل باريس قبل ورودها إلينا بل قبل شيوعها في مصر ولكني أحسبه مشتاقاً إلى الأخبار الخصوصية عن بعض الأصدقاء فهذه أعرف منها أن عبد السلام بک[٣] على أحسن حال من السلامة والعافية على انه منقطع في منزله اجتناباً للشبهات إلا عن بعض الأخصاء و ان سليم أفندي النقاش[٤] سار إلى مصر باذن حكومتها على أن يصرف أموره و أشغاله ثم يعود فهو الآن هناک يستمنح رجال تلک الحكومة عوضاً ماليا مما لحق به من الخسارة بسبب تعطيل مطبعته و جريدته بلا موجب معلوم[٥] و ان سعيد البستاني عزل اثر الفتنة ثم اعيد إلى الخدمة بمثل الراتب الذي كان له من قبل و هو الآن على حد قول القائل: و خمول ذكرک في الحياة سلامة. أما أبوتراب[٦] فقد أبلغت إليه وعد السيد باستقدامه إلى باريس عن قريب فكاد يطير بذلک سروراً و هو مقيم هاهنا على الدعة والراحة يترصد معنا الأخبار و يعد الأيام و يستبطىء البرد فعسى أن تجيئنا كتب

---

١. جريدة البصير لصاحبها خليل غانم، و هو وطني لبناني لجأ إلى باريس هرباً من السلطان العثماني عبدالحميد، و كتب هناک في كبريات الصحف الفرنسية امثال «الديبا».

٢. نشر المقال في «اوراق» (العدد الثالث) نقلا عن جريدة «ابونضارة». و كان قد نشر في حينه في جريدة «البصير» و في جريدة يعقوب صنوع، في آن، كما هو حال مقالات المشاهير من الكتاب.

٣. عبدالسلام المويلحي، و هو أحد تلامذة الافغاني.

٤. لبناني وطني اصدر في مصر جريدتي «التجارة» و «والعصر الجديد» حيث حرر فيهما اسحق، و كان صديقاً للافغاني.

٥. إشارة إلى التدابير القاسية التي اتخذت بحقه و بسائر أبناء بلاد الشام، الذين كانوا يصدروزن دوريات في مصر. من قبل حكومة عرابي باشا الثورية.

٦. خادم الافغاني، الذي لازمه طوال حياته.

السيد بما نتوقع ولابأس في تعليلنا بالأماني فما الحياة إلا الأمل وله في تحقيقه رأيه العالي المؤيد و أمره الكريم المطاع و مني على حضرته السلام بالاجلال والاعظام.

الخادم

أديب اسحاق

بيروت في ١٥ آذار ١٨٨٣

كتاب «دائرة المعارف»

«ان اللسان يقصر عن تقديم فريضة الشكر والثناء لقطب العلماء و سيد الفصحاء، الحكيم الذي ذاع صيته في كل مكان، و حدث بفضله الركبان، القابض على عنان روح العصر، المفيض من طيب فضله في كل مصر، السيد السعيد الكريم الأصل، العميم الفضل، زبدة العلم و الأدب، أمام كل من كتب و خطب، جمال الدين الأفغاني وفقه الله إلى نوال كل مراد. و نفع به الناس في كل صقع و ناد. كيف لا تتشنف الأسماع بذكراه، و هو ينبوع الفضل و مبدأه. و كم له يداً تشهد بزاهر تلك الأفضال، و بياض ما له من الأعمال، و هو صائغ هذا العقد من ألفاظه الدرية، ومفرغ أبلغ المعاني في هذه القوالب المسجدية. هذا و اننا لنشكر حضرة الأدباء أصحاب الجرائد الوطنية في الديار المصرية، و هي جريدة «الأهرام» و «مصر» و «مرآةالشرق»، بنشرهم شهادة ذلك العلامة لدائرة المعارف بين الخلق. و نسأله سبحانه و تعالى أن يمن علينا بحسن النهاية. كما وفقنا إلى محاسن البداية».

بطرس البستاني

قال السيد جمال‌الدين الافغاني:

«ان الانسان باعتبار أقنوميه المتجاذبين المتدافعين و هما جوهره العقلي النوراني و هيكله الهيولاني الظلماني يقسم إلى قسمين أحدهما و هو القسم الأعظم سواداً

الأكثر أفراداً و هو الذي تنقلب فيه جنبته البهيمية الظلمانية على أصله العقلي الذي به قوام انسانيته فتستعمله لقضاء أوطارها من جلب الملاذ الحسية الجسدانية و تمهيد طرق الشهوات الخسيسة الحيوانية فلا يهتم إلا بالمأكل والمشارب والتفنن فيها ولا يسعى إلا لتزيين الملابس و تشييد المساكن لايدرك اللذائذ العقلية ولا يتطلبها ولا يسعى في تحصيلها بل ينكرها ويسخر و يهزأ بمن يجتهد لنيلها والوصول إليها ولايعقل الفضائل الحقيقية فيميل إلى التحلي بها ولا يفقه الرذائل فيجنح عنها ولا يشتاق إلى المحامد الحسنة فينزع إليها.

و هذا القسم و ان كان على صورة الانسان إلا انه في الحقيقة من البهم والعجاوات بل أحط منها منزلة فان حيواناً ما من الحيوانات لم يهمل شيئاً مما أودع الله فيه من الخواص التي تنادي به إلى كماله الواجب له بخلاف هذا القسم من الانسان فانه قد أهمل أشرف خواصه و هي خاصة العقل التي بها يمتاز عن غيره من أصناف الحيوانات و قد ذهب عليه ان المأكل والمشرب والمسكن انما هي مقاصد بالتبع لا بالذات يرام نيلها لاستبقاء الحياة كي يكتسب بها المعارف العقلية والملكات الفاضلة.

والقسم الثاني هوالذي يبتغي لذة أخرى فوق اللذائذ الجسمانية بل كثيراً ما يكف نفسه عن اللذائذ الحسية و يغادرها رغبة في استحصال تلك اللذة و هو ينقسم إلى قسمين أحدهما السلاطين والأمراء و ذوو المناصب والرتب. فمن هؤلاء من يتقشف في معيشته مأكلاً و مشرباً و ملبساً و يصرف فكرته أثناء الليل و أطراف النهار و يتجافى عن مهاد الراحة والدعة إلى وهاد التعب والمشقة و يتباعد عن السكون والطمأنينة إلى الاضطراب والحركة. بل قد يقتصر من لوازم حياته على الضروريات التي لايمكن التعيش إلا بها ولا يبالي بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات فهو بالحقيقة معذب الجسم مؤلم البدن يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سعياً في توسيع الممالک و فتح البلدان و قهر السلاطين و استحصال المراتب العالية

والمناصب السامية ليمكن بذلک هيبته من القلوب و عظمته في النفوس و ينال من الناس محمدة و ثناء و يكون ذلک غاية لذاته و منتهى مطلوبه ولا يعد ما سواه لذة.

و هؤلاء و ان طلبوا لذة روحانية إلا انهم راموها من غير وجهها و أتوها من غير بابها فان أعمالهم هذه لاتوجب توقيرهم من النفوس ولاانطلاق الألسنة بالثناء عليهم خصوصاً عند ذوي العقول والبصائر لما انه لم يترتب عليها فائدة في العالم الانساني و مع ذلک قد أخطأوا المرمى لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل القتل والنهب والقهر والسلب و احقاق الباطل و ابطال الحق و تخريب البلاد و تدمير العباد و هذه الوسائل المشؤومة قد انتزعت محبتهم من القلوب و اسكنتها الضغائن والأحقاد عليهم و نفرت منهم الطباع و بدلت التعظم بالتحقر والمدح بالذم والثناء بالثلب لدى العارف والعامي والعالم والجاهل و ها هي كتب التواريخ مشحونة بمثالبهم و معايبهم و أطلال القرى و رسوم المدن المخضبة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم و قبح مساعيهم و خروجهم عن حد الانسانية إلى خطة السبعية والافتراس حتى نرى أن أفضلهم و أنزههم لايوصف إلا بعدم الظلم والجور والارتشاء و غير ذلک وليس بخاف ان هذه الاعدام لاتعد مدائح إذ ليس لهم حق في التعدي حتى يمدحوا بالكف عنه على أن مادحيهم بهذه الاعدام لم يأتوا ذلک الا رياء و نفاقاً و قلبهم ينكر عليهم و ما مدحهم بذلک الا كمدح بعض الاحاد بأنه ليس بسارق ولا مختلس مثلا.

الثاني الحكماء المصنفون والعلماء المؤلفون والعرفاء المخترعون و هؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجنبة البهيمية و نزهوا أنفسهم عن الصفات الخبيثة السبعية و بذلوا راحتهم و صرفوا نفيس عمرهم في تحلية عقولهم بأنوار العلوم الحقيقية والمعارف العقلية و نفوسهم بالصفات والاخلاق كاملة بل أبت نفوسهم الشريفة و هممهم العلية أن تقف بهم عند هذا الحد من الكمال أعني تحصيل الفضائل القاصرة على ذواتهم بل بذلوا الوسع و أجهدوا النفس في نشر العلوم والآداب و وضع

القوانين العادلة و اختراع الصنائع النافعة والفنون العالية و غير ذلک مما لا يقوم للنوع الانساني قائم إلا به لا يختصون بذلک جنساً دون جنس ولا وطناً دون وطن ولا يبتغون بذلک سوى لذة الكمال العقلي و استحصال المحمدة الحقة بما قلدوا به أعناق أفراد النوع البشري من نتائج أفكارهم و آثار أعمالهم فصار توقيرهم في النفوس و تعظيمهم في الأفئدة فرضاً على كل شخص من النوع الانسانى بالطبع ان أنكره لسانه شهدت به جوارحه و جنانه بل حازوا السلطنة الحقيقية في المملكة الانسانية لا يعزلون عنها بموتهم ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية ما دامت السموات. انظر إلى سلاطين اليونان و الرومان و الفرس و الكلدان قد محيت أسماؤهم من صفحات الأذهان لا يطلع عليها إلا المتوغلون في قراءة التواريخ و سير الأمم و اما فيثاغورس و سقراط و أرسطو و أفلاطون و بزرجمهر و جاماسب فلا تزال الأنفس رطبة بذكراهم ناطقة بفضائلهم و مزاياهم والنفوس معترفة بعوارفهم و مذعنة بعظمتهم و ان هؤلاء العظماء الفضلاء من الشرقيين والغربيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة يحتلون جميعهم من الشرف مكانا عليا و استحقاقهم للمحمدة الحقة والثناء الخالص يتفاوتون فيهما على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل و ما ترتب على مؤلفاتهم و مصنفاتهم و مخترعاتهم من الآثار والفوائد فمن كان منهم في المعارف أوسع دائرة و بالآثار أعم فائدة و أتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر كان أحق بالمدح و أجدر بالثناء فيجب على كل من وضع قدمه في أول درجات الانسانية أن يقدم له الشكر والثناء على قدر طاقته قياماً بأداء الحق و استنهاضاً للنفوس الخاملة لأن تنال ذاک المقام الأسمى والشرف الأعلى.

و لهذا رأيت من الفرض علي اداء الشكر أصالة عن نفسي و نيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة أن أنشر عطر الثناء على حضرة العالم الفاضل المتبحر بطرس أفندي البستاني بما أودعه في مؤلفه «دائرة المعارف» من الفوائد الجليلة والمنافع

العميمة التي قلد بمنتها أعناقنا قائلا ان هذا المؤلف الفاضل فضلا عن سائر مؤلفاته كمحيط المحيط و قطر المحيط و غيرهما قد أتى لنا بكتاب دائرة المعارف محيطاً بجميع ما يحتاج إليه الانسان في معاشه و معاده إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين و أخبار الأنبياء والحكماء والقديسين و جغرافية البلاد و علوم الطبيعة والكيميا والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلک و غير ذلک من الفنون الجلية فمن وهبه الله أدنى عقل غريزي و كان له أقل إلمام بمبادىء العلوم فله أن يستغني بهذا المؤلف عن تجشم الجلوس بين أيدي الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها و هذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان وألطف عبارة وأرق اشارة غير انني مع ذلک لا أتمالک ان أظهر أسفي من أن هذا المؤلف لم يبرز بتمامه في عالم الوجود ولست أتوهم انه من فتور في همة المؤلف الفاضل ولكنه لقصور في رغبة الشرقيين فنوجه إليهم الخطاب قائلين يا أبناء الشرق أفلا تعلمون ان سلطة الغربيين و سيادتهم عليكم انما كانت بارتفاع درجتهم في العلوم والمعارف و انحطاطكم فيها فلم لاتتقد أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع و أمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم و كمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل هل رضيتم بعدما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف ان تدوم لكم تلک الحالة الوخيمة التي أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عادت ترق لكم قلوب الأعداء فضلا عن الأصدقاء فهلموا لاقتناء المؤلفات و اقتناص صيد المعارف واعتصموا بعرى الاجتهاد في نيل العلوم واستضيئوا بسنا الحق لتسترجعوا مجدكم و تنالوا حقيقة استقلالكم فتفوزوا مع الفائزين».

بيروت في ١٥ اذار ٨٣

سيدي الاستاذ الاعظم

لئن كان لادوار الزمان قضاء نافذ في الناس فلقد صان الكمال انفس آحاد الرجال عنه فلا تنفعل بالحادثات ولا تؤثر فيها التقلبات بل تجد في مقام التجرد الذي تستوي فيه مظاهر عبث الايام بابناء الزمان والسيد لا زال محجة هذا القول ما ترك فضيلة ولا قعد عن مكرمة ولا فرق بمنفعة ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كان نافذاً في مريديه فلا لاقوا الخير معروضاً من جانبه ولا ذاقوا الشر طارئاً من جانب الاحداث وهكذا وقع من بعض الاوحال في مكاتبة من يستلم عن السيد من امراء الهند فانقطعت انباءه من سائرهم الى هذه الايام فعسى ان يعوضهم المستقبل مما اضاعوه خيراً فيجد الاستاذ تحت سماء الحرية مستقراً طيباً امينا فلا يحتجب بعد ذلك انوار افكاره عن البصائر وان احتجب ضياء وجهه عن الابصار وقد حمل البصير الينا مفتتح مقالات السيد في الشرق والشرقيين فكانت مقدمتها غذاء للالباب وما يليها مهازاً للعزائم ولا تزال الانفس مشتاقة الى البقية اشتياق الظماء الى بارد الماء فاسأل من كرم السيد ان يرسل اليّ ما طبع منها ومن سواها في البصير وغيرها من جرائد لندرة وباريس جملة فتلك امنية للعاجز فيها شركاء كثيرون ممن عرفوا السيد بالخبر او بالاثر ولست اذكر للاستاذ شيئاً مما لدي من اخبار مصر العلومية فانها تصل باريس قبل ورودها الينا بل قبل شيوعها في مصر ولكني احسب مشتاقاً الى الاخبار الخصوصية عن بعض الاصدقاء فهذه اعرف منها ان عبد السلام بك علي المفتش حال من السلامة والعافية على انه منقطع في منزله اجتناباً للشبهات

الصفحة الاولى من رسالة اديب اسحاق الى السيد الحسيني

القوم عن بعض الاخصاء وان سليم افندي النقاش سار الى مصر باذن حكومتها على ان
يصرّف اموره واشغاله ثم يعود فهو الان هناك يستنجح قِبَل تلك الحكومة عوضاً مالياً
بما لحقه به من حيف بسبب تعطيل مطبعته وجريدته بلا موجب معلوم وان سعيد البستاني
عُزل اثر الفتنة ثم اعيد الى الخدمة بمثل الراتب الذي كان له من قبل وهو الان على حد قول
النقاش: وجود ذكره في الحياة سلامة . اما ابو نزار فقد ابلغت ابيه وعد السيد بتقديم
الى باريس عن قريب فكاد يطير بذلك سروراً وهو مقيم هاهنا على الوعد والراحة يترصد
حسن الوفاء ويعد الايام ويستطلع البريد عسى ان يجيئ كتاب السيد بانتزاع ولا
باس في تعليلنا بالاماني فما الحياة الا الامل وله في تحقيقه رأيه العالي للمؤيد وامره
الكريم المطاع ومني على حضرته السلام بالاجلال والاعظام

اديب اسحق

صورة عن الصفحة الاخيرة من رسالة اديب اسحق إلى الافغاني





خطبة بالاسكندرية

(زيزينيا)



خطبة بالاسكندرية

(زيزينيا)

يا أيها السادة و يا أيتها السيدات.

أرى من الواجب أولا أن أثني على الجراثيم الشريفة الشرقية التي مضت عليها الدهور و مرت العصور، و هي في حالة الكمون، لمنع الموانع الخارجية و قسر القواسر الداخلية. و مع ذلک لم تفقد مزاياها العالية، و لم تَـقْدُم سـجاياها السـامية، بـل برزت و نمت، فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر، لاعلاء كلمة العلوم و رفع منار المعارف، و تأييد أمر الفضل اعتقاداً أن العلم سلطان عادل حكيم، إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى و الثروة لأنهما لايحصلان إلا بالتجارة و الزراعة التى لاتحصل إلا بالعلم، و لزمه الطمأنينة و الراحة لأنه يعين الحدود و يُبين الحقوق، فيكون لكل من الناس خط لا يتخطاه، وحد لايتعداه، ووليته الحرية لأنه يُبيِّن للانسان مقدار نفسه، فيعرف بذلک قدر غيره، ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعا أصم، و لايطيع لمن يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء، فلا يـؤخذ إلاّ بـالقانون ولا يـدين إلاّ للشريعة، و تلته الشفقة لأنها لاتحصل إلا بأن يدرک الانسان مـا أَلَمَّ بـغيره مـن المصائب إدراکاً يجسِّم ذلک في خياله، حتى كأنه يشعر بألمه. و هذا الادراک هو عين

العلم، و علماً بأن الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر و الفاقة، و يواليه الارتباک و الاضطراب، و يألفه الذل و العبودية، و تلزمُه القسوة و الشراسة. ولذلک فإني أقدم الشکر للأفاضل الکرام الأرومات، الشرفاء الأصول، الذين اجتمعوا في هذا المقام لاحياء العلم الموجب لتلک المزايا، و دفع الجهل الداعي لهذه المعاني.

و ثانيا، إنه لمعلوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تماثل الشخص الواحد المؤلف من الأعضاء و الجوارح. فکما أن قوام الأعضاء و نموها يکون بالقوة الحيوية، تقوى بازديادها و تضعف بضعفها على نسبة واحدة، کذلک جسم الامة لاتحصل لطبقاته القوة إلا بروحه‌الحيوية التي هي عبارة عن الميل إلى المعالي و الشوق الى الکمالات. و ليس بخاف عنکم ما ألَّم بروح الجنسية في الأمم الشرقية من الضعف و الوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات، فلاتؤاخذوا من قام فيکم خطيبا، إن رأيتم في صوته تهدجا وفي عباراته قلقا، و في معانيه اضطرابا، فما الخطباء إلاَّ من طبقات الأمة التي ألم بها الضعف بروحها الکلي فسرى الى طبقاتها وأعضائها. و لهذا فاذا رأيتم في خطابتي نقصا، فلابد من التجاوز عنه لکوني رجلا شرقيا.

و إذ تقرر لي ذلک فإني أشرع في بيان المطلب، فأقول: لاأريد أيها السادة أن أذکرکم بمجد آبائکم الکرام، و إنکم إمّا أن تکونوا من أبناء المصريين أو من حفدة الفينقيين، أو من سلالة الکلدانيين. و إن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها، ومن الحساب غايته، و من المساحة قاصيتها و من فن جَرّ الأثقال منتهاه، و علَّموا اليونان الحکمة و الفلسفة. بل إن شخصا واحداً منهم قد بعث في اليونان روح المعرفة و علمهم فنَّ تدبير المنزل على حين کانوا همجا متوحشين، و أبان لهم کيفية الزراعة و الصناعة على حين کانوا يتعيشون بالصيد و القنص، و ان جل علمائهم و معظم حکمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموا في مدرسة مصر العظيمة.

ولا أذکرکم بالفينيقيين و أنهم وضعوا أصول الصناعة، و خاضوا عباب البحار.

و كانت انجلترا و اليونان من مستعمراتهم. ولاتزال أسماء بلاد أسبانيا و سلافينا شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم، و أن أهلها كانوا لايعرفون الصناعة و لا التجارة. بل كانوا يقدمون لجدودكم كنوز الطبيعة، و معادنها الثمينة، ليأخذوا منهم الأقمشة و الآلات و سائر ما يحتاجون اليه، و أنهم علموا اليونان الخط. و كان أعظم حكمائهم منسوبا اليهم و هو تاليس[1] الصوري.

و لا أعيد ذكر الكلدانيين جدودكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت، وقسموا الفلك بالدوائر، و عرفوا معدل الأنهار و منطقة البروج و دائرة نصف النهار، و وضعوا الاسطرلاب و عرفوا القطب واخترعوا الكرة ذات الحلقتين.

لا أذكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين، ولا تخافون فيه منكرا أو معترضا، فإن الهرمين، و المسلات، و أعمدة الكرنك، تفقأ بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية و النقص في الفطرة، و إن تلول نينوى، و أطلال صور و بعلبک و منفيس و ثيبة[2]، ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون الينا بعين الاستخفاف و الاحتقار، و انما أريد أن أعطف نظركم الى حالتنا الحاضرة، فإنكم تعلمون بما حصل لنا من الانحطاط، وما حاق بنا مِنَ الذل و الهوان، و ان النوائب قد خفضت منارنا و الأجانب اقتسمت ديارنا. ولا شک أن هذا حادث من الحوادث فلا بد له من علة يوجد بها. و يعدم بعدمها. وبعبارة ثانية إنه قدوضع في دائرة الوجود عوالم متعددة، و لكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات اللستيكية التي تدفع تارة وتجذب أخرى،ن و ترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة، و إنه قد وضع في كل نبات و في كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه، و من التوليد ما هو حافظ لنوعه. و لاشک أن ما وضع فينا من قوى الادراک لم يكن الالتنال مرادنا من

۱. طاليس الفيلسوف الاغريقي، و ينسب الى صور في لبنان.

۲. ثيبة هي طيبة المدينة المصرية القديمة.

السعادة. فلابد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع. و اذا سبرنا الموجودات سَبْراً فلسفياً فلا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين، و هما التعصب و الاستبداد.

فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين. فإنّا اذا نظرنا بعين التأمل البصير الى الشارعين من عهد (مهادبو) الى زرودشت الى موسى، الى عيسى، الى محمد (صلعم) لانجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ الحق، و هو الله، و الحث على الفضائل، و فعل الخير، و الزجر عن الرذائل و الشرور. و بعبارة ثانية لانلق بها الا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و لكنا إذا نظرنا الى الكثير من الذين تبعوهم، فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق و النفاق، و اتخذوها و سائط لاضرام الفتن و وسائل لالقاء الإحَن حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول:

إن الديانات ألقت بيننا إحَناً.. و أودعتنا أفانين العداوات.

و ما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله في قتل الأحباء. فبئس ماكانوا يفعلون.

و أما ألاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأي واحد من الناس لاتتحرک الابارادته و لاتفعل إلا لرضاه. فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لامحالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل و الذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانياً فيه. و من المعلوم أن الرجل الواحد، ولو انفرد في العقل و الذكاء والهمة وعلو النفس، لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كبيرة. وهاهنا يمكن لي أن أبشركم بأن قد زال عناهذا المانع بما نلناه من الحكومة الشوروية. فلم يبق إلا أن تسعوا في صيانتها و تأييدها. و لاتكتفوا بمجرد حصولها اذلا يخفى عنكم أن الحكومة هى كسائر الأجسام الطبيعية و الاجتماعية. بمايطرأ عليها من التحليل.

و حيث أنا شعرنا بالألم، و علمنا بسقوطنا في هذه المهواة، و أن أنفسنا تميل الى الخروج منها، فلابد لنا من البحث عن الدواء الحقيقي لهذا الداء الحادث، فإذا رجعنا

إلى بصيرتنا النورانية و فطرتنا الأصلية علمنا بأنه لايمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب. فان المتحرك لا يسكن و الساكن لا يتحرك إلا بالعلة. ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة. فهي الحركة للنفوس الداعية الى المجاراة و المباراة، والباعثة على الاهتمام و الاقدار، و على قدرها تأتي العزيمة و ترتفع القيمة. و على حسب تأصلها في الأنفس و ضعفها يكون صعود الأمم الى معارج العز و الثروة، و هبوطها الى دركات الذل و الفاقة.

ولاشك أن الغيرة لاتحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لاشرف لهم إلا بجنسهم، و لاقوة إلاّ بأمتهم، و لافخر إلاّ بوطنهم، و أنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء الى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة في الثوب الجديد، أو بمنزلة العبد الذي يفتخر بسيده. و لهذا أرجو منكم يا أيها السادة ان تقيموا حزباً يصون لوطنكم حقوقه و يحفظ عليه بهاءه. على أني لا ألومكم على انتماء بعضكم الى الأجنبيين، فان ذلك لم يكن الافرار من الظلم و حرصا على الحقوق الانسانية و المدنية. و لكني أومل منكم ان تؤيدوا أمر الوطن و تشيدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم به أمر العدل و الانصاف، فلا يعود بكم من حاجة الى حماية الاجنبي، بل تمزقوا أوراق الانتماء، و تذاكر الحمايات، حتى يكون شرفكم منكم واليكم، و حمايتكم في ظل قوانينكم، ولا تكونوا رقعة بالية في ثوب الاجنبي الجديد.

و لاشك أنكم تعلمون أن الحزب الوطني لاتحصل له القوة، و لايكون له البقاء، ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة، مهذبة التراكيب، جيدة الأساليب. فان لم يكن لهم ذلك لاتستقر فيهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم، و ان ذهب جماعة كثيرة منهم الى أوروبا و تعلموا اللسان الأجنبي، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال، و وطنهم يكون كالبلد الذي لاماء فيه، يجلب لأهله الماء من ضواحيه، فهو عرضة للظمأ و سوء الحال، و أهله على شفا الاضمحلال.

فإن سأل سائل: كيف يمكن بث الغيرة و انشاء الحزب الوطني و احياء اللغة؟ قلنا

إن أعظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء، و ينطقون عن الغيرة و الحمية بمايبين لنا الحقوق و يعين الواجبات، و يذكرنا بمجد آبائنا و ذل أبنائنا. ويريناحالة الأجنبيين، و ماهم عليه من القوة والثروة و المجد و السطوة، فنعلم أسباب السقوط و وسائل الهبوط، و يتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن الآخذة بأطراف الحق، فإنها تقرّب الأقصى باللفظ الموجز، وتنبيء بأخبار السلف، و تبين لنا أحوال جيراننا. فترينا المصالح و المفاسد لنجتلب تلك ونجتنب هذه. و لاشک أنه لابد في عالم المدنية من كل منهما، و لايمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما. و لا فرق بينهما إلا أن الخطابة تحرک الدم بحركة الخطيب وقوة المشافهة، و أن الجرائد تثبت المطالب في الأذهان باعادة النظر الى مالا أثبت في الصحائف.

ولكني أجلكم يا أيها السادت عن أن تحسبوا أنكم تنالون مزايا المدنية، و تحوزون المعارف و العلوم، و تستكملون أسباب التقدم والسعادة، و تبلغون ذروة المجد و الشرف، إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال. بل أعيذكم من أن تجهلوا أنه لايمكن لنا الخروج من خطة الخسف و الجهل، و من محبس الذل و الفاقة، و من ورطة الضعف و الخمول، مادامت النساء محرومات من الحقوق، و غير عالمات بالواجبات، فإنهن الأمهات اللواتي تصدر عنهن التربية الابتدائية و الأخلاق الأولية. و لاشک أن أول ما ينقش في لوح ذهن الانسان يكون ثابتا صعب الزوال. و قد قيل: العلم فى صغر كالنقش في الحجر. و أقول إن هذا النقش هو السبب الأصلي في اختلاف المذاهب، و تنوع المشارب، فإن وجدت فيه الكدوره، فلا صفاء في الذهن و لاسلامة في المشرب، ولكن اذا كانت الأمهات عالمات، عارفات بحقوق الانسانية، متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف و المدنية، فلا شک أن أولادهن يتخلقون بأخلاقهن، و يكتسبون منهن تلک المزايا الفاضلة. و عندي أنه إذا حصل التساهل في تربية المرأة، و كانت رجال الأمة جميعاً راسخين في العلم و

المعارف، مترقين في درجات الكمال، فلا يمكن بقاء الأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال. فاذا انقرضوا، و خلفهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على مابهن من النقص في الكمالات العلمية، رجعت أمتهم الى ماكانت عليه من الخسف وسوء الحال.

أقول هذا و في يقيني أن حِلْمكَم يقيني الملام، و أن تلطفكم يضمن لي حسن الختام.



٩

السياسة الانجليزية
في الممالك الشرقية



السياسة الانجليزية في الممالك الشرقية

بلغنا أن الحكومة الانجليزية قد عرضت لائحة في المسئلة المصرية على الدولة العثمانية تسكينا لروعها، و تطمينا لبالها، تذكر فيها أنها ما قصدت الاستيلاء على مصر، و لاتود وضع اليد عليها، و لكن سوف تبق العساكر الانجليزية في البلاد النيلية الى مدة زوال القلاقل، و حصول الراحة، و تشكيل المجالس و المحاكم. ولاتود الدولة البريطانية أن تمس حقوق الحضرة السلطانية بمداخلتها في مصر.

نعم. هذه هي السياسة الانجليزية في جميع البلاد الشرقية، عملت بها في الممالك التي أرادت الاستيلاء عليها، و قد حذقت فيها و جربتها مرات عديدة، حتى إذا خاض العاقل فيها رأى أن لاسياسة للانجليز سواها كأنها عرفت عقول الشرقيين، و علمت ما فطروا عليه من السذاجة و شدة الاعتقاد بمواعيد عرقوب، فتأخذهم على غرة و تستلب بلادهم، و هم في أمن منها يثقون بعهودها، ولايعرفون أن هذه الحكومة إنما تقتنص بأوهاق الايمان[1] ولاتسلك في فتوحاتها إلاّ مسلك الوداد، حتى إنها قل ما تملكت بلداً بالقوة القاهرة. و إن الشر لا يأتي إلاّ من معاهداتها.

---

١. الوهق، محرک و يسکن، الحبل يرمى في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان. الجمع أوهاق (هامش المنار)

أليست هي التي أزالت السلطنة التيمورية التي كانت منبثة في جميع أرجاء الهند بمداخلتها الودادية و مواعيدها المؤكدة؟ أليست هي التي نقضت الحكومة النظامية في بنغالة بعساكرها التي وضعتها للمحافظة على تلك البلاد؟ أليست هي التي أزاحت السلطنة الكهنورية بنفس جنودها الذين أقامتهم لتوطيد الراحة فيها؟ أين ذهبت حكومات أمراء الكرناتك و مدراس التي كانت مطمئنة بالعساكر الانجليزية و معتمدة على معاهداتها؟ أين حكومة بنجاب و ممالك أمراء السند؟ أين حكومة المراتيين في بونه؟ ذهبت كلها لاعتماد أهلها على وعود الانجليز وحماية عساكر الملكة. و ما أبادهم، لعمري، سوى تلك العساكر نفسها التي وضعت لصيانتها من الفساد الداخلي، فاحذروا يا أهل الديار النيلية من أن يحل ببلادكم ما حل بغيرها. ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده.

وقد بلغنا منذ قدمنا لوندن[١] أن معظم الأوامر التي يجريها الخديو تكتب أولا في الوزارة الخارجية بلوندرة، ثم ترسل الى المندوب الانجليزي بمصر، والمذكور يقدمها لحضرة الخديو ليجريها كأنها صادرة عن أمره باختياره، و لاأمر له فيها ولا اختيار، وربما هذا كان الباعث على استقالة رياض باشا من الوزارة.

هذه هي السياسة الانجليزية التى كشفت عنها غطاءها التجارب، و بهذه السياسة جالت في ميدان جميع فتوحاتها، فلا أظن أنها تتمكن بعد الآن من احتلال عقول الشرقيين بهذه المواعيد[٢]. و ما أظن أن السلطان و رجال دولته بعد ما علموا نبأ معاهدات الانجليز في الهند أن يعتمدوا عليها، و يثقوا بأصحابها، ولاريب أنهم قد

---

١. كذا في الأصل المطبوع. و هي لندن.

٢. إن أمير مكة حسين بن علي و أولاده قد خيبوا آمال السيد جمال الدين فانخدعوا بالوعود الانكليزية على قول الذين يحسنون الظن فيهم بغباوتهم، و الذين يدافعون عنهم ـ ويرى آخرون انهم خائنون لامتهم لامخدوعون، فإنهم يطلبون الملک، و لم تسم همهم الى طلبه إلا من طريق الانكليز، فساعدوهم على اخذ البلاد العربية ليشتركوا معهم وتحت ظلهم في التمتع بحكمها (هامش المنار)

اطلعوا على المعاهدات الانجليزية التي طبعت في أربعة مجلدات بمطبعة (نول كشور) في بلدة لكناهور. و منها علموا كيف يستولى الانجليز على البـلاد بحـرقة العـهود الفارغة و المواثيق الباطلة، و فيا قلناه عبرة لمن يعتبر، و سوف نعود إلى الخوض في هذا الموضوع متصلا.





اسباب الحرب
بمصر



اسباب الحرب بمصر

لقد ذهب الناس مذاهب شتى في أسباب الحرب التي قَدَحَتْ الانجليز زنـادها على المصريين، فنهم من زعم ان الطمع في الاستيلاء على البلاد النيلية الخصيبة كان الباعث على ذلک، و منهم من اعتقد أن مصالح بريطانيا في خليج السويس حملت الانجليز على فعل ما فعلوا، وظن قوم أنهم اندفعوا الى تجشم تلک الخسائر الباهظة غيرة على حفظ نفوذهم السياسي و التجاري بالديار المـصرية، و التأمـين عـلى استيفاء ديونهم، و هلم جرا.

تلک، لعمري، تعليلات سارت بها الجرائد رجماً بالغيب أو تمويهاً عـلى عـيون الناس.

أما أسباب الحرب الحقيقية فهي ما كان ثبت في عقول الانجليز و الفرنسيس من أن جلالة السلطان عبدالحميد قد سعي منذ تولي الخلافة و المـلک في جمـع كـلمة المسلمين المنتشرين في أقطار الهند و أفريقية و سورية و العراق و اليمن و الحجاز و مصر، و غيرها من البلاد لكي يجعلهم عصبة مستمسكة بعروة الخلافة الوثق، و أمة تتساند بعضها إلى بعض كالبنيان المرصوص، و أن يكـون السـواد الأعـظم مـن المسلمين في يد أمير المؤمنين يستنجدهم في المُلمّات لمقاومة دول أوروبا إذا طمعوا في سلب بلاد المسلمين. فكان الفرنساويون يـقاومون نـفوذ السـلطان و خـلافته في

مسلمي الجزائر و تونس، مخافة أن يكون ذلک و بالاً عليهم، و كانت الانجليز تحاذر من إنقياد مسلمي الهند الى دعوى الخلافة و من الانضمام الى العصبية الاسلامية. وكانت تلک الدولة القيصرية قد بلغها أن الحضرة السلطانية بعثت برجال الدين الى المسلمين ليدعوا اخوانهم الى طاعة أميرالمؤمنين، و ينشروا بينهم رسائل تولد في عقولهم فروض الانقياد الى الراية النبوية إذا نشرها السلطان و دعاهم إلى التشمير عن ساق الجد لنصرته و الجهاد في سبيل الملک والدين.

وما زاد في طنبور الانجليز نغمة إلاّ النشرات التي كان السيد (نصرت علي) ينشرها في دهلى بايعاز السلطان، فلما أخذت مشروعات السلطان و مندوبيه تضرم نار الغيرة الدينية، و تثير الحمية الاسلامية في نفوس بعض من الهنود، اضطرت الحكومة الانجليزية بالهند إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع سريان تلک العدوى. و عثرت في أثناء ذلک على رسائل منتشرة بين المسلمين كانت قد طبعت في القسطنطينية بدار الطباعة الشاهانية، و أرسلت إلى الأقطار الهندية لانهاض همة المسلمين، فألقت القبض على كثيرين من الذين وجدت عندهم من تلک الرسائل و حاكمتهم، و من ذلک الوقت شرعت انجلترة تتوجس في تلک المقدمات نتائج وخيمة في ممالكها الهندية، فكمنت بالمرصاد تترقب الفرصة الملائمة لتزيق شمل تلک العصبية الاسلامية التي يصفها الافرنجيون باسم (بانسلاميزم[1]) و فيما كانت تضرب أخماسا في أسداس، و تقدم رجلا و تؤخر أخرى، بلغها أن الحضرة السلطانية قد باشرت تنفيذ مشروعاتها بالديار المصرية، و ضم مسلمي تلک البلاد أيضا الى العصبية الاسلامية، بواسطة الشيخ محمد ظافر، والسيد أحمد سعد المدني، و بسيم بک، وراتب بک، و أحمد عرابي و أحزابه، فأصدرت الدولة البريطانية أمرها الى مندوبها بمصر بأن يستقصي حقيقة الخبر.

أما ذلک المندوب فكان بادي بدء يعتقد أن الحرب الأهلية عبارة عن عصبية

---

۱. Pan Islamism: الجامعة الاسلامية.

عسكرية جُلُّ سعيها في اصلاح شؤونها و طرد الضباط الشركس من مصاف الجهادية المصرية، و لكن خيل اليه بعد ذلك أن الحضرة السلطانية قد اغتنمت من ثروة العساكر المصرية، و اتخذت عرابي باشا آلة لقضاء أغراضها، و توطيد نفوذها في القطر المصري وضم المصريين الى العصبية الاسلامية، فرفع المندوب الانجليزي تلك الأخبار الى لورد جرانفيل، و أثبت وجود عصبية دينية قد تردت برداء عصبية سياسية وطنية، تدعي تحرير الفلاحين من ربقة المرابين و الأجانب. و في الحقيقة ليست سوى عصبية اسلامية دينية تحت قيادة السلطان أميرالمؤمنين غرضها الوحيد مقاومة دول أوروبا و انهاض همة المسلمين في الهند و الجزائر وتونس و بلاد العرب، فتداركت انجلترا العواقب، و صممت على إذلال تلك العصبية الاسلامية قبل أن يستفحل أمرها، لأن الانجليز تعتقد أن مصر باب الهند وخليج السويس دهليزها فإن استفحل أمر عرابي باشا و حزبه لحق بهم المصريون على اختلاف أجناسهم، و تبعهم السوريون و العرب، و أنشأوا أمة عظيمة الشأن شديدة البأس تضر الانجليز و مستعمراتهم في الهند. فرسخ في عقول رجال السياسة البريطانية أن منع إفشاء الوباء خير من علاجه بعد انتشاره، و صمموا على إخراج عرابي باشا و أحزابه من الديار المصرية، إما بالحسنى و إما بالاكراه، طمعاً في إطفاء نار الفتنة، و تمزيق شمل العصيبة الاسلامية المتظاهرة بشعار الوطنية، فلما آيسوا من إخراجهم بالحسنى، عولوا على إذلالهم بالأساطيل المدرعة، و المدافع المثمنة، و الجنود البحرية و البرية، و ما انثنوا حتى فتكوا بهم في ملحمة التل الكبير، و كانت القاضية على عرابي باشا و أحزابه، و قد ثبت في عقول كثيرين أن إذلال عرابي و أنصاره قد أذل العصبية الاسلامية إذلالاً لاعز بعده ماتوالى الفرقدان.





الحق و الباطل

أو نتائج سياسة الانجليز في مصر



الحق و الباطل

ما اختلف رأيان في أمر إلا كان أحدهما حقاً و الآخر باطلا. إن الحق أوسع الاشياء تواصفاً، و أجلاها برهاناً، و أوضحها بيانا. و لقد صنف الحكماء فيه كتبا، وبينوا سننه، وذكروا شواهده، و قسموه الى أقسامه من حقوق الملل و الدول و الرعاة و الرعايا، و شرحوا في مصنفاتهم أن الحق قوام الاجتماعات الانسانية، منزلية كانت أو مدنية، و أن مدة دوام الاجتماعاتت الانسانية، منزلية كانت أو مدنية، و أن مدة دوام الاجتماعات و بقاء الدول بمقدار دوام الحق فيها و بقائه، لأن بالحق يحصل التكافؤ بين القوى المجتمعة لاكتساب الأمنية و السعادة اللتين هما غاية سير الأمم في حياتهم.

فاذا حصل الانحراف عنه زال التكافؤ فاضمحل الاجتماع، و وقفت الأمم دون بلوغ غايتها.

ولو تأمل البصير في زوال الأمم الغابرة لايرى له سببا سوى الحيدان عن الحق. و ان الحق مهما كان لديه من الظهور و البروز، وسعة المجال في التواصف، أضيق الأشياء تناصفا و تعاملا، و أخفى الأمور عمن أراد أن يسلك مسالكه، ويزن بميزانه أعماله و أفعاله، لأن الحق يكون للانسان و عليه. فاذا كان عليه فحينئذ يشاب إدراكه المتبجس من محض عقله بالحاسات الطبيعية، و يمتزج بالأوهام

الناشئة عن عاداته، فيخفى عليه محجته، و يسلك مدحض الباطل، ظنا منه أنه على الحق، غيرحائد عنه، و هذا هوالسبب لاختلاف الأمم في آرائهم و مسالكهم. ولايعرف الحق بنفسه إلاّ من انقادت طبيعته لعقله، و أزال ناشئة العادات عن لوح ضميره، فصار عقلاً صِرْفاً، يخضع لحكمه و يهتدي بنوره، لايجد الباطل فيه سبيلا، ولا يضل عن رشده أبداً.

و قليل من يتحقق في الانسان بهذه الصفة و ان كانت حماة الحق كثيرة.

أنظر الى الحزب الحر[1] فى الحكومة الانكليزية كيف كانوا يحامون عن حرية الأمم، و يحثون الدول على إطلاق ربق العبودية عن الشعوب، ويدافعون عن الأيرلنديين، و يجاهرون بذمائهم الحزب المحافظ، ويذكرون شنائع أعمالهم في حرصهم على الفتوحات عند اعتزالهم عن الحكم. و كانوا ينددون على دزرائيلي في إقدامه على حرب الأفغانيين، قائلين له إن شيرعلي خان[2] حر في بلاده، له أن يقبل سفير الروس و يرفض سفير الانكليز، و ليس لأحد أن يعارضه في أمره هذا، مع أنه كان لدزرائيلي أن يقيم الحجة عليهم قائلا إن رفض شير علي لسفير الانكليز و اقتباله لسفير الروس ـ و قد كان مصادقا لنا و معاهدا إيانا ـ دليل على اتفاقه مع الروسية، ومحالفته لها، فيجب علينا أن نتدارک هذا الامر قبل ظهور نتائجه الوخيمة كي لا نجلب بأيدينا مضرة على‌البلاد الهندية. و لما آل الأمر إليهم، و أخذوا زمام الحكم بأيديهم، ماحرروابلادا، و لا أعتقوا عباداً ولا أطلقوا رقابا، بل صاروا على الأمم‌أشد من‌الحزب المحافظ،و زادوا في‌التحريج والتضييق وأحكموا حلق العبودية، و شددوا ربق الرقبة، و ضيقوا المجال على النفوس التي تهوى الحرية و تميل اليها.

وها هو صراخ الأيرلنديين ينبئک عن سيرهم في ساحة سياستهم، و سلوكهم في مذهب إدارتهم.

---

۱. المقصود هو حزب الأحرار الذي تزعمه في ذلک الوقت غلادستون.

۲. امير افغانستان.

و أعجب من كل هذا أن المصريين بأجمعهم، ولا أستثني منهم أحداً، أرادوا أن يضعوا في بلادهم أساس الحرية، بتشكيل مجلس النواب، تملصا من ربقة الاستبداد الذى يستجلب الوبال على المستبد و من استبد عليه كليهما، و خروجا من مضيق العبودية التي نشأت من الأيثار و الاستيثار بلا ملاحظة المنافع و المضار، و طلبا للانخراط في سلک الأمم المتمدنة، رجاء أن يحظوا من السعادة بما حظيت به الأمم، واتفق معهم خديوهم لمّا أن رأى صدق نياتهم و إصابة رأيهم، و أن حكومته لاتقوى إلاّ باتفاق كلمة الأمة، وهو نتيجة المجلس الذي تسعى الأمة في تشكيله.

و لما رأى الحزب الحر في الحكومة الانكليزية ميل المصريين الى الحرية، و سيرهم اليها، و سعيهم في طلب اسبابها، ماوَنَوا أن جبهوهم بالرد، و عارضوهم بالعنف، ودافعوهم عن الوصول اليها، و أوجبوا الشقاق بين الراعي والراعية، علما منهم أن اتفاق كلمة المصريين لاصلاح بلادهم بالادارة الشوروية[1] يصد الحكومة الانكليزية عن نجاحها في مقاصدها المُشِطَّة، و يمنعها عن استملاک تلک الاقطار بمداخلتها الودادية، كما فعلت من قبل بالممالک الهندية. و ألقوا في روع الخديو، ودسيسة منهم، أن هذه المساعي ليست لتأسيس الحرية و نصب دعامة المدنية، و انما هي لتغيير الحكومة و استبدالها. و ساعدهم على ذلک بعض وزرائه الذى جلب إليه الجهلُ العُجْبَ بنفسه، و الاستبداد برأيه. و الخديو، لسلامة قلبه، ظن أن هؤلاء لايريدون إلا تشييد حكومته، و لايبتغون إلاّ تأسيس مباني إمارته بمقاومة المعارضين، و مصادمة المقاومين من أهل الوطن، فأصغى اليهم، و اعتمد بكلّه عليهم، و جاهر أعوانه الذين كانوا يسعون في اصلاح البلاد، و نجاح العباد، وصون حكومته عن دخل الأجانب بالمقاطعة و المناوأة، فاضطر أعونه لمّا أن رأوا حيدانه عنهم و ميله إلى الذين لا يريدون إلاّ خَتْل المملكة، واختلاسها من أيدي مالكيها، أن يقابلوه بما قابلهم به.

---

١. الصواب هو الشورية من الشورى، و لكن صحف ذلک العهد كانت ترسم الكلمة على هذا النحو مع كثير غيرها.

و بعد أن خلبوا قلب الخديو بموارباتهم، لاحظوا ما للأمة الفرنساوية من الحقوق في تلك الأقطار، فعلموا أن نجاحهم في مقاصدهم لايكون إلاً بـاتفاقها مـعهم في الرأي دون العمل، فوجدوا منه مقتحما، بذل جهده في إمالة آراء الأمة اليهـم، بـلا تَرَوٍّ، في أن حالتها الحاضرة تمنعها من مشاركتهم في الأعمال.

ثم لمّا علم الحزب الحرُّ في الحكومة الانكليزية أن سهام موالستهم قد أصابت، جندوا الجنود، وألّبوا العساكر، و ساقوهم لفتح الديار المـصرية، مـتظاهرين بأن الغرض تأييد الخديو في حكومته، و دَفْعُ المفسدين الذين يريدون خلعه، و كأنهم أرادوا بسيرهم هذا أن يجعلوا جزيرة قبرس في البلاد العثمانية بمنزلة كلكتا، و خلع اسماعيل باشا و نصب توفيق باشا كخلع سراح الدولة من البنجالة و نـصب مـير جعفر، فيفعلوا في هذا فعلهم في البلاد الهندية. و لاغرو في ذلک فإنه قد سبقهم الى مثله أسلافهم من قبل. و إنما العَجَب أن يصدر هذا الفعل مـن الذيـن رفـعوا لواء الحرية، و نادوا بأعلى صوتهم بفک رقاب الأمم عن العبودية، كأنهم عن إنعزالهم ماكانوا يحامون عن حرية الأمم، إلاّ لأن يأخذوا زمام الحكومة بأيديهم، فجعلوا المحاماة عن الحق آلة للوصول إلى باطلهم، أو عموا عن معرفته بعدما استقروا على منصة الحكم، و استبدوا بالأمر، كما هو دَأْبُ كل من لم يخلص عقله عن شوب الهوى و اتباع العادات. بل يمكن أن يقال إن هؤلاء في حرصهم على استلاب حقوق الأمم مع دعوى حماية الحرية عجزوا أن يلبسوا باطلهم بلباس الحق، و أن يقيموا دليلا سفسطيا على مداخلتهم في القطر المـصري، حـتى وقـعوا في المـتناقضات و أتـوا بالمتضادات. فإنهم رأوا وجوب الحرية على المصريين لطـلبهم عـرض مـيزانـية المراقبين على مجلس النواب، مستدلين بأن هذا إجحاف بحقوق المراقـبين و نـقض للعهود المبرمة بين الحكومة الخديوية و بين الحكومتين الفرنساوية و الانكليزية في أمر المراقبة. ثم إنهم حرصا على استملاک مصر رفعوا المراقبين بلااستشارة مـن الحكومة الفرنسوية ولاموافقة منها، و تشبثوا فيه بأمر الخديو، و طلب شريف باشا. و لاشک أنهما لم ينطقا إلاّ بمالقنوهما مما يؤسسون عليه أساس تملكهم.

متى كانت الحكومة الانكليزية تصغي الى الخديو و تأتمر بأوامر شريف باشا، حتى يظن أن رفع المراقبين كان مبنيا على مجرد الامتثال و الائتمار لاغير؟ فياله من برهان ما أدحضه، و من دليل ما أضعفه، و من عذر ما أنكره! ثم إنهم هم الذين هتكوا حقوق الأمم، و أوجبوا العطلة في تجارتها بإقامة الحرب في ترعة السويس. و الآن، إغفالاً للدول، و تسكيناً لجأشها، تراهم يشكون من وقوع الخلل في التجارة أيام الحرب لشَغْلهم الترعة بسفنهم الحربية، بأمر الخديو على حسب دعواهم، فكأنهم يشكون من أنفسهم، و يسخرون بأقوالهم هذه من عقول الأمم، و يتلاعبون بالخديو و رجاله لاستلاب ملكه.

و ليت أن صدرهذا الاجحاف بحقوق المصريين عموما، و حقوق الخديو خصوصا، من الحزب المحافظ، حتى لايقال أنه لايوجد في الانكليز حزب يحامي عن الحرية، و يدافع عن حقوق الأمم. و ما تظاهر بعض رجالها بهذا الاسم إلاّ رياءً، وسمعة أو مكيدة منهم، حتى ينتهزوا الفرصة، و يستلبوا البلاد على حين غرة من أهلها. ودع الآن دعوى محاماة هؤلاء المجازفين عن الحرية بالباطل، حتى نتكلم في النتائج التي ترتبت على مداخلة الانكليز في مصر، و ما يمكن أن يترتب عليها، فنقول إن مداخلة الحكومة الانكليزية في القطر المصري أوجبت نفور مسلمي الهند عنها قاطبة، سنيين كانوا أو شيعيين أو وهَّابيين. و قد انتشر بينهم، وَقَرَّ في أذهانهم إمَّا من استنباط انفسهم أو بدسائس الدول التي لها مآرب في الهند، أن غرض الحكومة الانكليزية و بغيتها الحقيقية من الاستيلاء على مصر أن تجعل هذا الاستيلاء مَدْرَجَة لوضع اليد على الحجاز و إدخال مكة المكرمة في حوزتها. و إذا استتب لها الأمر في تلك البلاد التي هي محتد الديانة الاسلامية، و مغرس شريعة المسلمين، و ركن دينهم، فحينئذ تهتم في إزالة هذه الديانة عن وجه الأرض. و اعتقدوا بعد دخول العساكر الانكليزية في مصر أن هذه الحكومة في فتوحاتها لاتقنع بالضرائب والجبايات التي تقتنيها من الذين تستعبدهم كالحكومة الروسية،

بل تحرص على تبديل الديانات و تَكِـدُّ في تـغيير الشرائـع فـحصل لهـم قـلق و اضطراب شديد، كما هي عادة الشرقيين في الحرص على صيانة ديانتهم، و الخوف من وقوع الخلل فيها، و كل ينتظر نجاة، و يطلب خلاصاً، ويرى أن بقاء دينه مصوناً عن الفساد لايكون إلاّبيد أجنبية. و كنت عند استمرار الحرب في مصر، و أنا أسوح في الهند، لا أرى رجلا من مسلمي هذه البلاد إلاّ قداستولى عليه الحزن و الأسف و أيقن أن غرض الانكليز وضع اليد على الأراضي الحجازية.

و لقد أحكم هذه العقيدة في نفوسهم ما كتبه أثـناء الحـرب صـاحب جـريدة «**أخبار عام**»[1] بلاهور نقلا عن جريدة انكليزية طلب محررها أن تسعى في احالة الديار الاسلامية الى النصرانية، قائلا إن مسلمي الهـند مـا دامـوا عـلى ديـانتهم لايثقون بالحكومة الانكليزية، و يحسبونها حكومة أجنبية غـير شرعـية، لا يجب طاعتها و لا الاستسلام لها، فإذن يجب عليها أن تعطف نظرها الى هـذه الديـانة، وتسرع لرسوخ أساسها الى معالجة ما أوجب هذه العقيدة. و بالجملة فان الحكومة الانكليزية بمداخلتها في مصر قد ضيعت ما اكتسبته المدد الطويلة بحسن سـياسة رجالها من ميل قلوب مسلمي الهند اليها وثقتهم بها، حتى لاترى أحدا منهم في هذه الأوقات إلاّ قد أصَرَّ أذنيه نحو مَرْو وهراة، و شخص بصره الى **عشق آباد** يظن أن ديانته لاتصان من الخلل و الفساد بـالروسيين الذيـن بـغيتهم مـصادمة هـذه الحكومة. ولايخفى على المتدربين في سياسة الشرق من الانكليز ما يمكن أن يترتب على هذه الخيالات الجائلة في مخيلة مسلمي الهند. و أظن أنهم مانسوا النتائج السيئة التي نشأت في سنة ۱۸۵۷ من هذه الأوهام الدينية. و هذه الظنون، على ما علمت، تمكنت من قلوب الأفغانيين و البلوجيين أيضا، ولا أدري أسَرَتْ اليهم من الهند أو فشت منهم فيها. والظاهر أن هذه الأقاويل قد انبعثت من سمرقند و عشق آباد، و طافت بالأفغانستان و البلوجستان، ثم ملأت أرجاء الهند، و تمكنت مـن قـلوب

---

[1] إحدى صحف الهند في ذلك الوقت، كانت تصدر بمدينة لاهور.

أهلها. و إن أثرها إنما يظهر عندما يتخذ الروس بلدة مرومعسكراً لهم، و ليس هذا ببعيد. و عند ذلک فلا علاج. و أما مايُمَنّي به الانكليز أنفسهم من قهر الجرمانيين الروسية (روسيا) باتفاق مع النمسة فتسلم الهند من مهاجمتها، فوا أضْغاثُ أحلام، لأن النمسة (النمسا) أحلم و أحزم من أن تصير سبباً لضعف دولة يستلزم ضعفها زوال نفسها كلية.

هذا مايمكن أن يكون من المضرة على الحكومة الانكليزية في آسيا. و أما في أوروبا فلا يرتاب أحد في أن أرض مصركانت بمنزلة حق مشاع بين جميع الافرنج، يرتعون فيها و يتنعمون بنعمها. فمداخلة الانكليز تغيظ الكل، لأنهم يعدونها اجحافا بحقوقهم، خصوصا الأمة الفرنسوية التي لها في مصر من الحقوق مالا يمكن أن تنساه.

و إن مصر باب للشرق، و لكل دولة من الدول الغربية مأرب فيها. فإذا وضعت الحكومة الانكليزية يدها على مصر، فقد اخذت بمَخْنَق الكل، وضيقت عليها في تجاراتها و فتوحاتها. فالدول مع ما بينها من المنافسات و الضغائن لايستبعد اتفاقها، صونا لمصالحها، على معارضة هذه الحكومة في مداخلتها في أرض مصر.

وبعد هذا و ذاک، إن النفوس في مصر ما قَرَّت، و إن هيجان القلوب ما همد، و الفتنة ما أطفئت، و الخديو ما استظهر بالحكومة الانكليزية ـ لمَّا تمكن في باله من الوساوس التي ألقاها في روعه أهل الدسائس لنيل أغراضهم، إلاّ لأن يستقل بالأمر، و يصان منصبه من آفات يمكن أن تطرأ عليه من الحزب الوطني. و أما الآن، و قد انكشفت له حقيقة مظاهرة الانكليز، و ظهر لديه أن كل هذه الوساوس كانت دسائس منهم للمداخلة في القطر، و تملكه باسم المراقبةِ و المحافظة. فلاشک أنه لايرضى أن يصير هو السبب لمداخلة الأجانب في وطنه، و أن يجعله الانكليز آلة للتصرف في مصر فيفعل كما فعل شاه شجاع الأفغاني، لمّا رأى أن الانكليز يريدون أن يتخذوه وسيلة لاستملاک الأفغانستان، فطلب عظماء الأفغانيين سرا، و قال لهم

إن الانكليز قد أنشبوا أظفارهم في بلادكم، ولست أنا إلاً آلة في أيـديهم فأنـقذوا بلادكم، و إن كان فيه هلاكي. و توفيق باشا ليس أضعف منه دينا، و لا أقل حمية، فن الواجب أن يقتدي به. و حينئذ لا يعدم المصريون دولة تقوم بمساعدتهم، لأنه قد أزيحت اللبسة، و ارتفعت الشبهة، و ظهرت مقاصد الحكومة الانكليزية لدى كل الدول.



شباب الاسكندرية



شباب الإسكندرية

كثيراً ما كنت أجيل أفكارى، وأردد خواطر اعـتبارى فى أحـوال الشرقـيين الذين هم آلى و بنو آبائى، و سعادتى بسعادتهم، و شقائى بشقائهم، و ما وصلوا إليه من رداءة الأحوال و غاية الانحطاط، و التردى فى مهاوى الشقاء، و انفتاح أفواه طمع الغربيين لالتقامهم، و التهام ما بأيديهم، و امتداد سلطتهم فى بلادهم، و كنت في حيرة أطلب الوسائل لخلاص أهالى تلك البلاد مما هم فيه و الارتفاع بهم من تلك الدركات إلى أعلى الدرجات، فكانت تعييني الحيل، و تنقطع بين يدى الأسباب، و كان أسفي يزداد عندما أنظر ذاك المجد القديم الذى كانت تلك البلاد متوجة به، و تيجانها مكللة بفخره، و كان يأسي يغالب رجائى، و قنوطى يغالب أملي، و الأولان يغلبان، إلى أن اتفق لى السفر إلى مدينة الإسكندرية من بضعة أيام، فلما وردت إليها و جدت شبانها على غاية من الفضل و الكمال و كرم الأخلاق، و لطف السجايا، و شدة الشوق إلى المعالى. والتولى إلى نبيل المجد الحقيق، و فى أسمى درجات الشغف بإحياء الوطن، و إعلاء كلمة الأمة، ورفع لواء مجدها و فخرها مع ما هم فيه مـن الغنى و الثروة و توفر دواعي الترف و الانغماس فى النعيم و غير ذلك من الأسباب التى لو اجتمعت لشيخ عمر ألف سنة لاجتذبته إلى اعتناقها، و ألهـته عـن النزوع لسواها فضلا عن فتيان هم فى عنفوان شبابهم، فقد غضوا أبصارهم عن جميع مـا

يملكون من القصور المشيدة، و الجواهر الثمينة و الأموال الوافرة،و ولوا وجوههم نحو اكتساب الشرف و بقاء الذكر الجميل، و تعالت هممهم عن أن تميل إلى اللذات الفانية، و الزخارف البالية، و أخص من بينهم شبان آل بيت منشة، و آل بيت الكونت زغيب، و آل بيت المخلع، و آل بيت قطة، و آل بيت سرسق، و هم من قد بلغوا من المجد ذراه، و من الفخار و الفضل قصاراه، و من حسن التربية أعلى درجاتها، و من الهمم العلية أقصى غاياتها، فعند ذلک استظهر رجائى على يأسى، وأملى على قنوطى، و ظننت بل أيقنت أن سيكون للأمة الشرقية شأن فى أقرب زمان، فليستبشر الوطن و بنوه بالظهور بعد الخمول و الصعود بعد الهبوط، و بالسعادة بعد الشقاء، بل بالبعثة بعد الفناء، و لا أشک أن الشرقيين بما ينالون من نتائج مساعيهم، و ما يجتنون من ثمرات جدهم و اجتهادهم، سيقيمون لهم تماثيل عل أطلال مدينة منفيس بمصر و ربوات صور و تدمر، و على هضاب نينوى و بابل تخليداً لأسمائهم، و تذكاراً لآثارهم و مجد آبائهم و أسلافهم.

ورجاؤنا أن يقتدى سائر الشباب الشرقين بهؤلاء العظماء الفضلاء و أن يتخذوهم قدوة لأنفسهم كى يفوزوا مع الفائزين.

* * *

تعليق:

نشرت جريدة «مرآة الشرق» فى العدد رقم (٢٧) مايأتى:

إن ضيق المقام فى العدد الماضي من المرآة فوّت عليها أمراً عظيما و هو أن تشفع نبذة أستاذنا و مولانا الأجل «السيد جمال الدين» فيما شاهده من شبان الإسکندرية من علو الهمة بما يناسب المقام من الثناء على أولئک الشبان خصوصاً من خص بالذكر منهم، فإنهم أولى بثناء الجرائد الأهلية، بل أخلق بأن تشكرهم الإنسانية و بنوها على تلک الهمة التى صرفوها فى تحسين أحوال و طنهم، و تخليص بنيه من

ورطة الانحطاط شأن الأعاظم الذين علموا معنى الوطنِ و ما هى محبته، فقاموا بما وجب عليهم له، و لقد كان فى نشر ما شاهده أستاذنا منهم بـاعثاً بـعث فى أبـناء المحروسة من الغيرة التى هى أساس الأعمال ما حملهم على أن يجاروهم، و يحـذوا حذوهم... جزا اللّه أولئک الشبان عن الإنسانية أحسن الجزاء، فإنهم و فوا بحث رعايته، و قاموا بغرض خدمتها، فنثنى عليهم ثناء، كما أثنت عليهم هممهم العالية.





المخاطبة بين الانسان والهرّة



المخاطبة بين الانسان و الهرّة

إنّ هرة خطفة حمامة لانسان و أكلتها. فغضب الانسان غضبا شديدا، فأخذ عصاوهجم عليها، و ضربها ضرباً أليماً و قال:

الانسان: يا أيها الحيوان الخسيس الدنی الخائن.

الهرة: يا أيها الانسان، هل يليق بک أن تذكرني و تناديني بهذه الأوصاف القبيحة، إلاّ أن تكون متصفاً بضدّها. فانه لايذم شخص غيره بشیء إلا اذا كان طاهرا منه، و تاركا له تماما و متصفا. و أين أمانتک و شرفک؟ و أي آثار ترتبت عليک حتی لاتكون شريفا غير خسيس ولادنیء؟

الانسان: العجب من وقاحتک. ألا تنظرين إلى عِظَمِ الانسان كيف بإنارته قد عَمَّر الدنيا، و تسلط عليها، و أدخل جميع الحيوانات تحت رق عبوديته؟

الهرة: يا أيها الانسان. إنک لم تبين ما هو الشرف، و إنما افتخرت، و تمدّحت بحرصک و طمعک و ظلمک و عددک، و أنا سألتک عن الفضائل الحقيقية والصفات الجميلة.

الانسان: أيتها الهرة، أفلا تنظرين الى الانسان كيف اخترع العلوم و دوّنها، والصنائع و أتقنها. و إنّ في تفصيل ذلک من الأمور الدقائق ما يعجز الحيوان عن الاتيان بأصغر منه. أوليس هذا من قوة إدراكه و علو شأنه على جميع الحيوانات؟

الهرة: إعلم أيها الانسان أن مهندس الكون العظيم و منظمه قد خلق الهرّة و الحيوانات غنية عن الانسان و غير مفتقرة، بأن وضع فيها جميع ما تحتاج إليه في تحصيل سعادتها مدة حياتها. و ألهمها من الادراک ما تميز به ضارها و نفعها، و من الجلود ماتتق به الحر و البرد، و من الآلات البدنية كالنياب و المخالب ما تدفع به عدوها و نحو ذلک. و أما أنت فخلقت محتاجا «فقيرا» من جميع الوجوه، فاحتجت إلى الاستعانة بالعلوم و الصنائع على تحصيل الراحة في حياتک مثل أدنى حيوان. ومع ذلک لم تصل بعد إلى الراحة المطلوبة.

الانسان: أفلا تنظرين إلى الانسان كيف وضع القوانين والنظامات، و أقام المحافظين على الحقوق لتحصيل الأمن عليها، و تنفيذ أحكام القانون، حتى يتم بذلک اطمئنان كل أحدٍ على جميع نفسه و حقوقه. فهل يوجد في طائفة الحيوانات مثل هذه النظامات؟

الهرة: أيها الانسان، ان بيانک هذا قد دلّني على أنكم أشرار قد جُبلتم على الخيانة والظلم والغدر والعدوان والشقاق والنفاق و جميع الشرور. من أجل هذا احتجتم الى وضع الحدود والقوانين والقيام بتنفيذها لدفع شر بعضكم عن بعض، حتى يكون لكم نوع ما من الاصلاح. و مع ذلک أين الاصلاح؟ أَجِبْني؟

الانسان: أيهاالحيوان. أنظر الى حكمة الانسان. كيف أحكم الارتباط بين أفراده، حيث جعل الملوک العظام والوزراء والولاة المدبرين والرؤساء المتصرفين حتى يكون كل واحد منهم بمنزلة عقدة سلسلة لاجتماع الانسانية، حتى ينال السعادة بالتعاون. و يكون النوع كجسد واحد يشد بعضه بعضا بخلاف بقية الحيوانات فإنهم فُرُطٌ لا رابط لهم.

الهرة: أيها الانسان المشاغب المغالط السوفسطائي. إن بيانک قد أفاد أنكم أخسّاء أدنياء، طبعتم على حب العبودية والرق. فإن الحرّ يستنكف أن يكون خاضعا لشخص واحد. و أنتم قد اجتهدتم لأن تصيروا عبيدالعبيد. و مع ذلک، إن كباركم

هؤلاء قد تسلطوا على نفوسكم و أرواحكم يبيعونها إلى الحروب والمقاتلات، تقاسي من الاتعاب والمشقات ما لايوصف حتى تموت في حضيض شقائها. كل ذلك في تحصيل شهوة سلطان أو فخر كبير. و تسلطوا على أموالكم التي تتحملون فيها المصاعب حتى تحصلوها، فيأخذونها منكم قهراً عنكم ليصرفوها في قضاء شهوتهم و تحصيل أغراضهم، فإن أبى أحدكم أو عجز لايجد رَقَّة ولا رحمة. ولكن يعامل بأشد العذاب والعقاب، حتى إنهم يجردونكم من جميع ثمرات أتعابكم. فإن أبقوا لكم نعمة فما ذاک إلا لتأكلوا و تسمنوا لتصيروا أقوياء، حتى يستعملوكم في خدمتهم و يتسلطوا على أعراضكم... فيهتكون حرمتها إن شاءوا. أفبهذا تفتخر؟ بئس الافتخار!

الانسان: أيتها الهرة، أفما سمعت أن مدبِّر الكون قد شَرَّف الانسان بالأنبياء والرسل الكرام العظماء الذين هم فخر الوجود بأسره؟ أيليق الجدال بعد ذلک في شرفه على جميع الأنواع؟

الهرة: آمنت و صدقت بشرفه و عُلَوِّ مقامه. ولكن يا أيها الأشقياء، أين إيمانكم بهؤلاء العظماء؟ و أين إتِّباعُكُم لشرائعهم و اقتداؤكم بهم في مزاياهم و فضائلهم؟ إنهم بعد ما جاءوكم لم تزدادوا إلا طغيانا و فسقا و عدوانا. و قد نبذتم ما أتَوا به من الحق وراء ظهوركم، ولم تشكروا نعمة الله عليكم ببعثة هؤلاء العظماء المقدسين فيكم لكي يرشدوكم الى طرق خيركم. مع هذا إنک تعلم أن صحيح المزاج لايحتاج إلى الطبيب. فاحتياجكم الى المرشد هو دليل على تمكن المرض من نفوسكم. فكأنكم فُطِرْتُم على المرض، إلاّ أنكم لاتحسون بألمه. فكيف العلاج؟ فمالک لا تقيم دليلا إلا و يكون مفضحا لک؟

الانسان: أيتها المتمشدقة الخسيسة، إنک بهذه الشَقشقة قد أخرجتني عن الموضوع. أنتِ لِمَ خطفت حمامتي، و بأي وجه خنتيني في مالي؟

الهرة: أيها الانسان المُعْجب المتكبر الجهول. أقول لک أولا إنه لايليق بک، ولا

بنوعک، أن تنسبني الى الخيانة، مع أن مدبّر الكون قد أباح لي أن آخذ من العالم ما يسد رمقي، و يدفع حاجتي بأي طريق كان. أمّا أنتم فكل واحد منكم ينتهز الفرصة لأخذ ما بيدالآخر. وكلٌ قوي مَنكم يسلب أموال الضعيف. و ينفقها في القصور المشيدة والألبسة الفاخرة والأطعمة الشهية، و ما يشبه ذلک من اللذات التي لا حاجة به إليها، و إنمّا يحصّلها بَطَراً وازدراء. و اَنَّ أحدكم لايكتفي بقرينته التي اختص بها. بل يطلب امرأة جاره و صديقه، و يخونه فيها. و قد اتخذتم الكذب والنفاق آلة لتحصيل مآربكم، حتى إنَّ الوالد يخون ولده والولد يخون أباه، والأخ يخون أخاه. و تظهرون المحبة والصفاء، و تعلنون الوفاء والأمانة، و تضمرون الغدر والخيانة، تحلفون و تحنثون، و تعاهدون و تنقضون، و تعدون و تخلفون، لايرى أحدكم راحة من أخيه لمحة. بل على توالي اللحظات يحذر سوء أخوانه، و يتوقع منهم الشر. و ثانيا قد نُسِبْتُ الى الخسة والدناءة، مع أنني و من يشاركني في نوعي جُبِلْنا على عزة النفس والشرف و ارتفاع الهمّة. لايرضى أحدنا أن يدخلَ تحت الرقّ، و أن يحني الظهر الى العبودية. ألا ترى أن أضعفنا لو هجمت عليه الألوف بالسيوف، وراموا إذلاله و خذله، و حصروه، و سدوا عليه طرق الفرار، و تقطعت أسباب خلاصه، ولم يبق له الاّ سبيل الموت فإنه يجمع قوته، و يصول صولة الأسود والنمور. و مع صغر جسمه و ضعف قوته يهجم على عدوه فيضرب هذا و يعض ذاک، إلى أن يموت بعزّة و شرف، و يختار الموت الشريف على الحياة الدنية. و أما أنت أيها الانسان، و من يشارکک في نوعک، فقد طبعتم على الذل و على الانكسار، و جُبلْتُم على الحقارة والهوان. فإني أرى أن رجلاً واحداً منكم يظلم صالحكم، و عالمكم، و جاهلكم، و غنيكم، و فقيركم، و ضعيفكم، و جبانكم، و شريفكم، و وضيعكم، و ذليلكم، و غبيكم، و زارعكم، و صانعكم، و تجاركم، و عمالكم، و أرباب سيفكم، و أصحاب قلمكم، و يستصغرهم، و يستحقرهم، و يضيع حقوقهم، و يهتک أعراضهم، و يسلب أموالهم، و يتصرف في أرواحهم و أبدانهم، و

يستخدمهم شهورا و أعواما، و لا يعطيهم مالاً يحفظون به حياتهم من القوت الضروري واللباس الكافي، و ما يتعلق بذلک. بل تراهم في أدنى الضروريات، مع أن الانسان اذا كان عنده ثور أو «حمار» يقضي عليه عمله، لايجد مفراً من أن يطعمه و يسقيه و يأتي اليه بجميع لوازمه. و أنتم عند ذاک الرجل أدنى و أحقر من الحيوانات، لاينظر اليكم نظرة راضٍ، ولايكافىء أعمالكم الشاقة و أتعابكم الدائمة بشيء، حتى إنه لا يراضيكم بكلمة معروف ولا حمد ولا شكر. ولا يلاقيكم بالترحاب والبشاشة، ولا يقطب جروح آمالكم بإظهار الممنونية.

و مع ذلک لا تزدادون الا خضوعاً له و طاعة لأمره، و وقوفاً بين يدي إرادته. أفلا تنظر يا أيها الانسان الغشوم الى الأماكن التي خصصت لمنفاكم، سيبيريا أرض الزمهرير كيف جعلها محلا لنفي أبريائكم الذين لاجناية لهم؟ أولا تنظر الى الالوف منكم و قد سيقت لجزرة الرجال بآسيا و أوروبا و ماتت بالظمأ. أولا تنظر ما فعله الصينيون بصلحائكم و أتقيائكم بأرض كاشغره؟ فيم إذاً نفعتكم علومكم أيها العلماء، و أفادتكم آدابكم أيها الأدباء؟ و ماذا صنعتم بتدبيركم و تفكيركم أيها الحكماء؟ و ما الذي عاد عليكم من قوتكم و شجاعتكم أيها الأقوياء؟ و أي شيء دفعته عنكم سيوفكم و خيولكم أيها الفرسان والمدربون على الحروب والمتعودون على غوائلها، الذين قد أعددتم أنفسكم لمصارعة الموت و تهيأتم لمعاناته، فتعسا لكم من نوع خسيس دنيء ذليل رذيل!

إن حياته عناء، و سعادته شقاء، و حريته عبودية، و عزته ذلة، و رفعته حطة، وعلوه خسة و دناءة، و شجاعته جبن، و جرأته خوف، و فخاره مسكنة (فخرس الانسان الكاتب).

و لما رأيت حجةالهرة رميت القلم و كسرته، و طرحت المحبرة، و قطعت العهد منها، و قلت مادام الانسان بهذه الحالة الردية، فهو أردأ وأسوأ حالا من جميع الحيوانات.



١٤

منافع الوفاق
و
مضار الشقاق



منافع الوفاق و مضار الشقاق

إن للأمم صعودا و نزولاً. و إنها في ارتفاعها و انخفاضها تتناوبها السعادة والشقاوة، و تعتورها العزة والمسكنة. ما يطمح بصرها إلى ذرى المجد الاّ وترى نفسها في حضيض المذلة، و ما تشيم سيوف القهر إلاّ و تجندل بها، و ما تمديدها لفتح الممالک إلا وتنهب دورها، و تغصب بلادها، و تستعبد رجالها. إن الفارس (فارس) الأولى تقلص ظلها بعد بسطة الملک بفتوحات اسكندر اليوناني، وانقرضت السلطنة اليونانية الفسيحة بأيدي الرومانيين، و أباد العرب المملكة الساسانية الراسخة، وجدَعوا أنف الروم. واستولى محمود الغزنوي على البلاد الهندية الواسعة بهجماته المتتالية، و جعل كلمة الاسلام عالية بقهر الوثنيين، و إزالة دولة برهما، وجَثَّ هلاكوخان شجرة الخلافة العربية التي وشجت عروقها، و امتدت فروعها شرقا و غربا. و فتح العثمانيون مدينة قسطنطنية، و أخنوا على الروم واليونان، و دوخوا بلادهم. وقام بعد هؤلاء أقوام تفتح البلاد، و تقهر العباد. ولقد كانت أسماؤها مطوية في طومار الدهر من قبل. أليس لهذه التبديلاتَ من عِلَلْ؟ أفلا توجد لهذه الحوادث مقتضيات؟ أفلا تكون لمقتضياتها معدات؟ بلى. إن الحوادث في عدمها تفتقر الى علل افتقارها اليها في وجودها، و إن عللها مسببة عن مقتضياتٍ تمدها للوجود، و تجعلها أن تستتبع معلولاتها.

و ليست أسباب هبوط الأمم، و عروجها، طلوع نجم، و أفول كوكب كما ذهب اليه البعض. وليس جَزْرُ قوتها. ومد سلطتها مسببين عن الأسباب الطبيعية، لأننا نرى أمما كثيرة شبت بعدما شابت، و بعثت بعدما ماتت، و صارت عظاما نخرة. والأسباب الطبيعية لاتحيد عن سننها ولا تقف عن سيرها، ولا تعتريها التبديلات، ولا يصدها عن مسالكها اختلاف الحركات. هاهي الأمة الايطاليانية أمامک فأنظر إليها يظهر لک صدق مقالي. ولا تغض النظر عن أسبانيا متدبرا فيما كانت عليه، معتبرا فيما آلت اليه. و إن الأمم، ما صعدت إلاّ بنفسها، و ما هبطت إلاّ من نفسها، وفيها سعادتها و منها شقاوتها. و إنها هي السبب الموجب لضعف قوتها، و رفع سلطتها و خراب بلادها. و إنها هي التي تجعل نفسها بنفسها عبيدا أذلاء للأجانب، يحكمون فيها كيفما شاءوا، و يستعملونها في منافعهم بما أرادوا. إن الانسان بجبلته لا يسعى إلاّ إلى سعادته، ولا يدأب إلا لجلب الخير الى نفسه، و دفع الشر عنها، حيث أنه المتصرف في عالمه، و بيده سعادته و شقاوته، فما الذي يهوى به الى مهواة الشقاء و يقوده الى الهلاک؟ و ما الذي يعوقه عن النجاة، و يمنعه من الخروج من الورطات، ولو نسبنا شقاوة انسان الى القوة القاسرة، و عزونا حرمانه الى المزاحمات التي قلما يخلو عنها الانسان في سيره في مسالک سعادته، فما الذي يمكنا أن نقيمه دليلا على انحطاط أمة قاومت الدول القديمة و غالبت الأمم العظيمة، وفتحت البلاد، و قهرت العباد؟ و ما السبب الذي يوجب ترعرع أمة، و هي لقلة العَدّد فاقدة العِدّد، و يجعل لها يدا عالية و قوة قاهرة،؟ هنا يلزم السَّبْرُ والدوران.

إن الأمة العربية (في) صدر الاسلام ماكان عددها يزيد عن المليونين. و إنها مع الفقر المدقع وقتئذ، وخلوها عن العلوم والصنائع قد أرغمت الأكاسرة و دمغت القياصرة. و الآن بلغ عددها ۳۰ مليونا و هي قاصرة عن إدارة نفسها عاجزة عن صيانة بلادها.

إن العثمانيين، مع قلة العدد، قد أرعدوا الدول الغربية، و أذلوا الجبابرة. و تراهم من نصف قرن، مع سعة بلادهم، و كثرة رجالهم، يسترحمون ملوك الافرنج، ويحتمون بهم، و يزعمون أن لاحياة لهم على البسيطة إلا بهم.

و إذا رجع البصير الى نور بصيرته، أفما يحكم بأن هاتين الأمتين قد فقدتا الآن أمراكان هو السبب لعلو شأنهما و بسطة سلطتهما و رفيع منزلتهما؟ فيجب علينا أن نسبر حركاتهما الفكرية و أخلاقهما النفسانية، حتى نقدر أن نجد الأسباب الحقيقية التي أوجب وجودها جلب علو كلمتهما و انعدامها أوجب انحطاطهما، فنقول:

لايمكن أن تنال أمة من الأمم سعادة ما إلاّ بالتئام آحادها التئام أعضاء الجسد بعضها ببعض. ولا يحصل لها علو الكلمة، و بسطة الملك إلا أن تصير مسالك حركات أفرادها كأنصاف الدائرة منتهية إلى نقطة سعادة الكل، غير خارجة عن محيط الجنسية، و أن يلاحظ كل منها منفعة الكل أولا و بالذات، و ينظر الى منفعة نفسه ثانيا و بالعرض، حتى يكون خير الكل كينبوع تتشعَّب منه جداول خيرات الآحاد. و حينئذ يجذب كُلٌّ الآخر عند دفعه إياه، و يقبل عليه عند إعراضه عنه، فيرتفع الشقاق و يزول النفاق و تعتدل الاخلاق، لأن كلا يعلم إذ ذاك أن الآخر لايسعى إلا له ولا يدأب إلا في إيصال المنفعة اليه. وليس له أن ينال الخير إلا به، فهو بمنزلة نفسه، و منه سعادته، و به يذود الشر، فيحبه محبة ذاته و يعامله معاملة نفسه. وإذا بلغ كُلٌّ مع الآخر إلى هذه المنزلة من الالتئام، فلا يمكن أن يتحقق في الأمة فساد الأخلاق، لأن منشأ الأخلاق الرذيلة المزاحمة في المنافع، والمنازعة فيها. فمن ذا الذي يوالس الساعي في خيراته، و من يغش الباعث على سعادته، و من يخون قوام حياته؟ و لهذا تلتئم الأفكار، و تتحد الآراء، و تأتلف الأهواء، و تترادف الأيدي، و تتناصر السيوف، و تجتمع القوى، فتصير الأمة التي حازت هذه الدرجة من

الوحدة مقومة في نفسها، متمكنة من صيانة حوزتها، قديرة على قهر الأمم التي تغالبها، كما وقع للعثمانيين و للأمة العربية من قبل.

و كَوْنُ كل من أحاد هذه الأمة المتلبسة بالوحدة ناظراً الى ما يجلب الخير والسعادة الى الكل، يبعث كلا على الأفعال الشريفة التي يستفيد من نتائجها بجموع الأمة فتكثر بينها الصنائع النافعة، و تنتشر العلوم الحقيقية والمعارف الصادقة، وترتقي بها إلى ذروة المدنية، و أوج المجد، متمتعة بثروتها، متنعمة بثمار مساعيها، يحف بها الأمن و تكتنفها الرفاهية، و هي تسود ولا تساد، ولا تضرب دون نفاذ مقاصدها الأسداد، كالأمة العربية في الأزمان السابقة.

و لما ظهر أن علة صعود الأمم هي اتفاق الكلمة والاتحاد التام بين أفرادها، عُلِم أن سبب النزول (هو) التفرُّقُ و عدم الاتحاد، و عن تفرق الكلمة ينظر كل إلى نفسه، و يسعى لمنفعة شخصه، فتختلف جهات حركات الآحاد، و تتغاير مسالک المنافع فيكثر النفاق، و يزيد الشقاق، و يروج سوق الخيانة والكذب والافتراء، و تتمكن العداوة و البغضاء، و تتشتت الآراء، و تتنافر القلوب، و تتفلق الآحاد، و يستولى الكسل، و تغلب الجبانة و تحصل الوحشة فتضعف الهمم و تقنط النفوس. و حينئذ تندثر العلوم، و تندرس المعارف، و تنطمس مسالک النجاة، و تخفى محجة الحق، فتهبط الأمة عن ذروتها و تتناثر طبقاتها، و تتلاشى أعضاؤها، و تنحل عقدتها، فلا يمكنها أن تسوس نفسها، ولا تقدر أن تذود عن حوزتها، فتصبح مملوكة، بعد ما كانت مالكة، تخضع لكل قاهر، و تنقاد لكل أمر.

ولقد أوجب هذا التفرق انقسام السلطنة العربية أولا و اضمحلالها ثانيا. و قد كانت ممتدة الى جبال بريني[١] و شعاب هيمالايا. والسلطنة التيمورية العظيمة في الهند ما زالت إلاَّ بهذا السبب بعينه. و إن ضعف العثمانيين في هذه الأيام ما نشأ إلا عن

---

١. جبال بريني: جبال البرانس في شمال اسبانيا و جنوب فرنسا.

تزعزع أركان الاتفاق الحقيقي بينهم. نعم، إن الله لايغير ما بقوم حتى يـغيروا مـا بأنفسهم.

و نحن نكتب فيما بعد مقالة نبين فيها الأسباب التي يمكـن بهـا إيجـاد الاتـفاق وإعادته بعد زواله و نشرح الباعث على حصول الخلل منه والموجب لاضمحلاله. لعل الله يهدي بها من يشاء من عباده.



١٥

الانجليز في الهند و مصر



الانجليز في الهند و مصر

إن من تتبع حركات الانكليز في السنين الأخيرة رأى أنهم يهتمون مزيد الاهتام بالاستيلاء على جميع الطرق المؤدية الى البلاد الهندية. فقد حاولوا منذ مدة أن يضبطوا مضايق أفغانستان و بلوجستان. و هم الآن يريدون البقاء في مصر والتسلط عليها.

و سبب إتباعهم هذه السياسة حرصهم على ممالكهم الهندية، و خوفهم أن تنتزع من أيديهم في زمن ربما كان قريبا. و ماوقع في روعهم من هذا الخوف بعثهم على نهج مسلك يصادمون فيه أمما أخر، والتمسک بمقاصد و مطامع تذهل رجال السياسة و تهيج الغيرة في صدور الدول.

و ان الانكليز يعلمون لامحالة أن سكان الهند على اختلاف أجناسهم، و تباين مذاهبهم، و تفاوت مراتبهم، يكرهون ظلمهم كرها شديدا، و إن صوت مدفع قريب في إحدى جهات سواحلهم، أو في بعض أنحاء تخومهم يكفي لاثارة حرب عمومية تمتد نارها من سيلان الى أحصنة هملايا.

و إنهم لايجهلون ضعف سلطتهم و وهن قوتهم، وقد تحققوا عدوان رعيتهم الهندية، و تأكدوا من عدم كفاءة عساكرهم في أوقات الحاجة، و لذلک صاروا يريدون إفراد الهند، و عزلها عن سائر العالم، بأن يضربوا حولها شبه سور من الموانع

التي يلقونها في سبيل السياح من أي أمة كانوا، مخـافة أن يكشـف الأجـانب سر ضعفهم المحجوب بستار قوة ظاهرية. و مع أن جهدهم مـبذول في حـفظ مـلكهم المترجرج، لم يتخذوا من الوسائل السديدة ما يقوي شوكتهم، ويوطد دولتهـم، اذ ليس من عادتهم أن يوالوا الأمم و يستميلوا الشعوب، بل دأبهم غيظها والاساءة اليها، والاعتداء على حقوقها والاستخفاف بمصالحها. ألا ترى أنهم ملكوا الهند منذ مائة سنة ونيف، و أن الهنود صاروا من ثَمَّ عبيدا محرومين من حقوق الانسـانية، لاينالون مرتبة حربية ولا منصبا سياسيا. وقد فقدوا حرية الضمير، و هي أشرف الحريات و أقدسها. و كان الواجب على الانكليز أن يخـففوا الضرائب، و يـقللوا المكوس، كي يبق للأهالي بعد أداء الرسـوم شيء مـن ثمـرة أتـعابهم يـنفقونه في حاجاتهم و تحسين أقواتهم اليومية. فما التفتوا الى ذلک، بل عطلوا تجارة الهـند و شلوا صناعتها، بما يقذفون اليها من مصنوعاتهم الأوربية، و قـطعوا الاتـصاليات بينها و بين جيرانها الأفغان، بحرب جائرة شهروها عليهم بغيا و عدوانا، فكسبوا منها وبالاً و خسـرانا.

وقد نشأ عن هذه الحرب التي ركب فيها المعتدون متن الشـطط والغـواية أن الأفغان صاروا أعداء ألداء للانكليز، و حالفوا الدولة الروسـية عـلى التـناصر و التآزر حين تجيء الساعة.

و إذ حبط سعيهم في أفغانستان، و أخذهم الحسد الشديد من حلول الفرنسيين في تونس، و شعروا بتفاقم كره الهنديين لهم و ميلهم الى اعانة أي دولة تريد مغالبتهم على أجمل أملاكهم الأسيوية، وقع في قلوبهم خوف شديد أعمى بـصائرهم عـن الهدى فارتكبوا غلطا جديدا ترتبت عليه نتيجتان لابد أن تضراهم في الاستقبال.

و أما الغلط فهو تداخلهم في مصر بالمكر والاحتيال وهما سلاحهم القـوي في جميع الأحوال، و اضمارهم مد سلطتهم الى عبر البحر الأحمر وانشاب أظافرهم في ولايتي اليمن و الحجاز.

والنتيجة الأولى التي جرَّها تدخلهم في مصر أنهم غاظوا كثيرا من الأمم الأوربية، ولا سيما فرنسا. فإن لها في وادي النيل مصالح لاريب في أهميتها، ولا خلاف في سابقيتها. ولو تبصروا لعلموا، مع ماهم عليه من الاغترار بقوتهم، أنَّ صداقة الأمة الفرنسوية ضرورية لهم في ما عسى أن يطرأ على الشرق من الحوادث الجسيمة، والانقلابات الفعلية، حال كون فرنسا تستغنى عن ودادهم ولا تفتقر الى ولائهم، فلا جرم أن الاساءة اليها غلطة من أعظم الغلطات التي وقع بها كبير وزرائهم.

والنتيجة الثانية التي تضر بانكلترا أيضا هي أن تداخلها الشنيع في مصر أوجب مزيد الغضب للمسلمين عموما، ولمسلمي الهند خصوصا. ولا يخفى أن مسلمي الهند يحترمون سلطان العثمانيين، و يغارون على ممالكه، و يدعون له في جوامعهم. فلما دخل الانكليز البلاد المصرية حدثت ثورة خفيفة في ميريت فأخمدوها بما أشاعوا من أنهم لم يتصدوا لقتال عرابي إلاَّ لعصيانه، ولا دخلوا مصر إلاَّ طاعة لأوامر السلطان.

ولولا هذا الخداع لانتشرت الثورة في جميع الهند الاسلامية غير أن الرجوع إلى مثله في الاستقبال يكون خاليا من الفائدة، عاريا عن النفع، خصوصا إذا تأكد الترک أن انكلترا تريد استملاک مصر، و هي أهم أملاكهم الافريقية، بقصد أن تستولى فيما بعد على الحجاز واليمن. و ذلک لأن حصول مثل هذا اليقين في أذهان العثمانيين، مع اعتقادهم ميل مسلمي الهند إليهم يبعثهم على تأييد سياسة الدولة العظيمة الطامحة الى الأقطار الهندية، و إن لم يكن لهم فيه منفعة حقيقية، لأن قلوبهم تتشفى من غيظها بكبح أمة تحاول تقسيم بلادهم. و محافل السياسة في انكلترا تعلم أن التمادي في الاعتداء على حقوق السلطان يسوقه الى مظاهرة خصومهم في الهند. و حسبه في ذلک أن يغري علماء مكة المكرمة بالحَثِّ على مناوأتهم والخروج عن طاعتهم، أو أن يبث الى الهنديين رسلا يدعونهم الى نبذ نيرهم والتخلص من ربقهم.

ولو صرفنا النظر عما عسى أن ينهج الترک في الاستقبال من المسالک السياسية، لوجدنا مجرد حلول الانكليز في مصر، مع ما أضمروا من بسط سلطتهم على الحجاز واليمن، مهد الاسلام و حصنه الحصين، سببا كافيا لحمل المسلمين في الهند على إعانة كل دولة قصدت بلادهم محاربة الانكليز.

و من الخطأ المبين أن يتكل الانكليز على مساعدة الطوائف غير الاسلامية، لأن مظالمهم شملت سكان الهند جميعا. فإذا جاء يوم المحاسبة، وحان وقت المطالبة، يشترک الكل في العمل اشتراکهم في الذل المضروب عليهم، و يتفقون على فک سلاسل أسرهم اتفاقهم على بغض ظلمهم. و شواهد ذلک كثيرة أجتزیء منها بأن ناناً صاحب[1]، و هو من غيرالمسلمين، جاهر الانكليز سنة ۱۸۵۷، بعداوة شديدة أشد من العداوة التي لقوها من فيروز . شاه و بكم صاحب.[2]

و ربما شک قوم في ائتلاف الطوائف الهندية، و ميلها الى التعاون والتضافر لجهلهم سير الانكليز في حكم الهند و معاملة أهلها و سلب ثروتها. و لذلک سأكتب مقالات يزول بها الريب، و يحصل اليقين.

---

۱. أحد أمراء الهند و قواد ثورتها على الانكليز سنة ۱۸۵۷.

۲. من زعماء حركة العصيان الهندي ضد الانكليز.

١٦

المسألة الهندية



المسألة الهندية

اكسبني الاطلاع على جريدتكم، علماً برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة في البلاد الشرقية و إقدامكم على نشر ماتقفون عليه منها، خدمة لأوطانكم و تأييداً لاعتدال سيركم و هذا ما بعثني أن أكتب اليكم بعض ما وصل إليّ في مسألة من أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت و هي المسألة الهندية، و ربما ترون من المفيد نشر ما أقدم لكم من ذلك.

كأني بالحال في بلاد الهند و قد اشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية عندما تضطرب راسياتها، و تهتز ثوابتها، وتتنفس صوامتها، اعداداً لزلزال يوجب الانقلاب فيها، غير أن المألوف في تلك الاحوال أن تكون متالف الانقلاب و مضاره مهلكة للشرقي لتساهله و سوء تصرفه، و فوائده و ثمراته غنيمة للأوربي لحزمه و تجويد الرأي فيما يفعله. و المنتظر في الهند على خلاف المألوف فقد تسقط بتبدل الاحوال فيه دولة من أعظم الدول الاوربية. و أحذقها في السياسة الخارجية، و تنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوربية، هذا ماتفترق به هذه المسألة عن سائر المسائل.

لايفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تتباين في العقائد و الاخلاق حتى يخيل للناظر في أطوارها أنها اجناس متباينة، غير أن هذا

الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسية اذا تـولت طـائفة مـنهم أمـر الحكومة في باقيها مادامت خصائص الطوائف محفوظة. و لمادالت الدولة للانكليز فيهم سكنوا اليها زمناً ثم نبذتها طباعهم فهموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة و حملوا بغارة واحدة على الانكليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيا هموا به، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة.

و من ذلک الوقت أخذت الدولة الانكليزية حذرها فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف و إيغار صدور كل طائفة من الاخرى وآلتها في ذلک أصل الخلاف الموجود بينهم و أدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجالة بين الوثنيين و بين المسلمين، و في أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض. و الاساس الثاني سد نوافذ الاخبار عن الهنديين قاطبة حتى لايقفوا على المشاكل السياسية و الورطات الحربية التي تقع فيها انكلترا، و لا تكون بينهم و بين الأوربيين صلة سياسية يلجأون اليها اذا هموا بمثل عملهم السابق، و لايطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حـال خير مماهم فيه. قطعتهم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شيء من أحواله ليستمر بهم الاذعان بأن لاقوة إلا بانكلترا، و لا ملجأ منها إلا اليها، و لا حيلة في الادبار عنها إلا الاقبال عليها، و لا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى. و هذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب، و ليس في نـظر العـقلاء أجـود مـنها لولا تصاريف القدرة الالهية مما لايطاوله بناء، ولا يعاجله دهاء.

وي انتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة. لم يكـن في حسبان أحد من حكام الهند ان يزحف جيش الروس على حدود الافغان، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله، فاذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قمم جبال الهند، و صاح بالخبر المفزع فلم يبق هندي إلا و بلغ منه الخبر

حد اليقين، فذلک قد أعجل الدولة عن التدبير فی كتمانه. فتراجعت العقول من غيبتها، و انطلقت الآمال من محابسها، و خيل للنفوس أن المعارک أصبحت على حدود بلاد الهند.

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوربية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم و لها من المصلحة في بلادهم مايضارع مصلحة الدولة الحاكمة. فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعاً. و مذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين و إن كانت مشابهة الا ان من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين الى أمد حتى يتمكن من السلطة، و يكون من أحوال البلاد على خبرة، فلهم في تقليب الحال متنفس. بل تعالت أفكارهم الى أسمى من ذلک فظنوا أن لاطاقة للروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة، فن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملک لطلابه من أهالي البلاد و تمدهم بالمعونة على سالبه منهم لتكون البلاد عوناً لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها، ثم إن شاءت بعد ذلک غالبتهم، و في هذا متاع من الاستقلال الى حين، و فسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون ما يصل اليهم. هذا مايرتفع اليه الخيال في رؤس الهنديين على اختلاف طوائفهم و لا أظنهم يخطئون فيما يظنون، و لا تجد طائفة منهم عوناً على ماتؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى.

وقد ضعف الأساس الاول فيوشک أن يتضعضع البناء. همدت نيران الضغائن التي كان يسعرها الحكام في البنجالة بين المسلمين و الوثنيين، و بعد أن كانوا متدابرين يذهب كل منهم الى حيث لايلتقي مع الآخر أبد الابدين، انعطف كل في سيره الى مايقارب الآخر فلا يمضى كثير من الزمن إلا و قد عادوا متقابلين.

لايفتر الحكام عن امداد اللهيب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الاقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء باردا فلا تلبث أن تصير برداً وسلاماً. قبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت مناكبها نحو مطلوبها القديم هذه من

أقوى قبائل الهند و أشدها تمسكا بعوائدها و أحرصها على الاستقلال. أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الانكليزية، و لكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئاً سوى الخراج، فقد تحالفت هذه القبائل على و فرة عددها أن لاترفع من أمرها شيئاً جزئياً كان أو كلياً الى حاكم انكليزي، و اتفقت على أن يكون تدبير شؤنها مفوضاً لرجال منها ينتخبون بالاقتراع، و ما كان عاماً من شؤونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتمدنة، و ما كان خاصاً كالفصل في الخصومات جنائية كانت أو قضائية ناطته بقضاة منها لاينازع في حكمهم، و لا يدافعون في قضائهم، ولو أن مرتباً رفع أمره في خصومة الى القاضي الانكليزي لأعدموه حياته و ذهب دمه هدراً لايطالب به أحد. كل ذلک و لا يستطيع حاكم من حكام الانكليز أن يقف على شيء من أحوالهم الداخلية. بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوروپاو ثبتوا على صنائعهم و روجوها بينهم، و بذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الاوربيين في كل نوع، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم.

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الأبية النفس أخذت الاهبة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها. و لست بالواهم إن قلت بتواتر رسلها و كتبها الى الحدود الشمالية لتجاذب حبال الصلة بينها و بين رؤساء المنفذين في زعمها.

حكومة حيدرآباد ملت سيطرة الانكليز عليها، و نظرت الى قوتها العسكرية و اجتماع رعاياها على بغض المتحكمين في شأنها، الآخذين على يديها، و جاءها خبرالزحف الروسي، فشدد عزيمتها، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الانكليزية، و قبائل (السيک) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لجج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان، ليعيدوا مجدهم الأول، و يأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم، و فتک بأشرافهم. و لم يمض على ذلک الزمن الطويل فينسى، و لم يأتهم عوض عما فقدوا فيتسلوا عنه.

أحست حكومة الهند بمبادىء الاضطراب، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال، منعاً للمواصلات بين الهنديين و الروس، و منعت تجار الأفغانيين من الجولان في البلاد الهندية، و صدَّت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخوص إلى حيدرآباد لكثرة أبناء العرب فيها، و اشتدَّت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند، و على كل وطني يصل إلى الحدود الشمالية، و أخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي، و أنطقتها قهراً بما يغشي وجه الحقيقة، و يصرف الأفكار عما شغلت به من أعداد العدد و تحويل مراكز الجند، وحشد الجيوش، و توفير الذخائر في مواقع المخافة، و أرسلت عيونها على موارد البريد، و رسمت بفتح المغلقات، و أخذت بكل احتياط. و مع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة، و قطع طرقها الواسعة، وتسوير حدودها الممتدة. فالأخبار بين أمراء الهند و بين الروسية متواصلة، و قد علم رجال الحكومة أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧[١] حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة ايران، وكتمان خبر الحرب عن رؤساء، الفتنة، حتى تمَّ الأمر لحكومة انكلترا في اخماد الثورة و إنهاء الحرب على شروط توافقها. أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون فى الهند، ولايخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية.

و إن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد. أما مازعموا من أن بعض النوابين و الرجوات عرضوا أنفسهم و جيوشهم لمساعدة انكلترا عندما طاش ميزانها مع الروسية، فذلك مما يعجب خبره! و يضحك معجبه. فان رجالا من الانكليز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء و أغروهم أن يتقدموا بعرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوهم بذلك أنها معضدة من رعاياها، ففعلوا على أن ينالوا أجراً على فعلهم ثم خابت آمالهم

١. يعني سنة ثورة الهند

فانقلبوا على أعقابهم. ولوفرض صحة مازعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير القوي، فاذا حم الصدام كان أول خاذل له، خصوصاً اذا أحسَّ بل توهمَ الانقلاب بالهزيمة

بق شيء في مجمل خبرنا نذكره تتميا للبحث و هو: أن للدولة العثمانية شأناً في المسألة الهندية لايسوغ إنكاره، فان لها عدَّة كافية، و قوة وافية، يمكنها أن تستخدمها لآرائها السياسية متى شاءت، و يسهل عليها أن تستفيد منها اذا أقبلت عليها بشيء من التدبير. تلك قوة خمسة و اربعين مليوناً من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة، و أنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي الأجانب، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكميهم، و أوصال أعمالهم معقودة بأوامرها. ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادهاالجلي في هذه المجاراة. و لكن مما يوجب الأسف أن هذه العدَّة ربما تتبدد، و تلك القوة تضمحل، و لا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا مايكسبه باذل ماله لعدوه و فقهم اللّه للسداد في آرائهم، و الصلاح في أعمالهم.

يقول رشيد رضا: لم نعثر للاستاذ رحمه اللّه تعالى على مقالة في جريدة مصرية بعد عودته من باريس الى سورية و ترک جريدة «العروة الوثق» الاهذه المقالة، و هي تشبه مقالات العروة الوثق السياسية التي كانت من نفثات السيد جمال الدين في قلم الاستاذ. و كان الحكيمان يرجوان من تحرش الروسية بالهند فى تلک السنين أن يفضي الى ترک الانكليز لمصر و السودان فلذلک كانا يعظمان شأن ذلک التحرش.



الشرق والشرقيين



الشرق و الشرقيين[1]

الانسان انسان بعقله و بنفسه. و لولا العقل و النفس لكان الانسان أخس جميع الحيوانات و أشقاها. لأنه في مبوته (غير مفهومة و المرجح انها حيوته أي حياته) أضيق مسلكاً و أصعب مجازاً و أوعر طريقاً منها قد حفت به المكاره و أحاطت به المشاق و اكتنفت به الآلام. لا يمكنه بمعاشه، و هو منعزل عن أبناء نوعه. و لا يطيق الحر. و لا يتحمل ألم البرد. و لايقدر على الذود عن نفسه. و ليس له من الآلات الطبيعية ما يثقف به معيشته. و هو محتاج في ضروريات حيوته (حياته)، و مفتقر في الكمال فيها إلى الصناعة. و لا يمكن الحصول عليها، إلا باجالة الفكرة و التعاون بمن يشاركه في العقل من النوع البشري.

و العقل ما به تستنبط المسببات من أسبابها، و يستدل بالعلل على معلولاتها، وينتقل من الملزومات الى لوازمها، و تستكشف الآثار حين ملاحظة موثراتها، وتعرف العواقب ضارها و نافعها، و تقدر الأفعال بمقاديرها، على حسب ما يمكن أن يطرأ عليها من الفوائد و الخسائر في عاجلها و آجلها، ويتميز الحق من الباطل في

---

[1]. هكذا وردت كلمة «الشرقيين» في عنوان المقال المنشور في جريدة «أبو نظارة زرقا»، و كان يجب أن تكون الشرقيون. و لكن ربما يعود ذلك إلى أن ناقل المقال بخط يده، الذي هو صاحب الجريدة اليهودي المصري يعقوب صنوع، كان يحرر معظم مقالاته بالعامية المصرية.

الأعمال الانسانية نظراً إلى مهيع السعادة و منهج الأمن و الراحة. لا يضل من استرشد و لا يغوى من استهداه. و لا يحوم الشق حول من ركن إليه. و لا يعثر في المداحض من اعتمد عليه.

ولا يلتبس الحق بالباطل على من استنار بنوره ـ و ان الخير كله به. و ليس الشر إلا بالحيدان عن صراطه القويم. من فقده فاتته السعادة لامحالة، ولو أخرجت له الأرض أفلاذها، و أسبغت عليه الدنيا نعيمها ـ و ان الأمم ما سادت إلا بهدايته. وما ذلت بعد رفيع مقامها وعظم منزلتها إلا بعد أن أعرضت عن خالص نصحه. وتوغلت في بيداء غوايتها. و استعملته في مسالک ضلالتها.

و استخدمته لقضاء أوطار طبائعها الخسيسة التي تجلب عليها الشنار، و توجب المعرة و الصغار ـ و النفس هي منشأ أخلاق كريمة و أوصاف عقيلة (أي عاقلة) هي قوام الاجتماعات المدنية و المنزلية، و أساس التعادل في المعاملات، و ميزان التكافیء في المؤازرات، و مقياس التوافق في المعاونات، و لا يمكن التألف بين القوى المتفرقة، لاقتناء ما يقوم به حيوة (أي حياة) الانسان، إلا بها. و لا تلتئم أهوية النفوس المختلفة، لاكتساب ضروريات معاشها، إلا بسببها. و هي التي تجعل الأفراد الانسانية، مع تضاد طبائعها، بمنزلة شخص واحد يسعى بأعضائه، المتخالفة في أشكاله وجوارحه، المتباينة في هيئتاتها، إلى مقصد واحد لايمكن الوصول إليه إلا باستعمالها، بحركات قد اختلفت مع وحدة جهتها أو ضلعها ـ و سيادة الأمم الغابرة والحاضرة، هي من أخص نتائجها. لأنها لايمكن حصولها إلا باتفاق كلمة احادها، و اجتماع آراء افرادها. و لاتتفق الكلمة عن بعد (أي عندما، كمايرجح) تجتمع الآراء، إلا بالتكافیء في المساعي، و التوازن في تحمل المشاق، و الاشتراک في المنافع، و المساواة في الحقوق، و التعادل في التمتع بثمرات الأعمال بلا تفاضل و لا استيثار (استئثار). و كل هذه، في وجودها و بقائها، تحتاج إلى الأخلاق الكريمة والأوصاف العقيلة، التي بها يعرف الانسان حقه و يقف عنده ـ و لا تشتتت أمة ..

ولا ذل قوم .. و لا اضمحلت سلطنة .. ولا تفرقت جمعية .. إلا بفساد أخلاقها، وتطرق الخلل في سجاياها.. لأنها بفسادها، و تطرق الخلل فيها، توجب تخالف الأيدي، و تباعد الأهواء، و تضارب الآراء، و تبائن (أي تباين) الأفكار، فيستحيل حينئذ الاجتماع، و يمتنع الاتفاق ـ و إذا أمعن البصير في حقيقة الأخلاق الرذيلة، يعلم، انها بذاتها، تبعث على التفرق و الاختلاف، و تمنع عن الاجتماع والايتلاف (الائتلاف). و ما ينشأ عن ذات الشيء، لا يمكن زواله، و ما دامت ذاته باقية. فاذا تمكنت الأخلاق الرذيلة من أمة، فلا يرجى لها نجاح، و لا يحصل لها فلاح، مالم تسع في مديلها (غير مفهومة، يرجح انها تعديلها)، ولم تدأب في تقويمها ـ و يمكن أن يقال أن بين كمال العقل، و طهارة النفس، و تخلقها بالأخلاق الفاضلة، تلازماً. لأن العقل إذا بلغ كماله يقهر الطبيعة. فحينئذ تسلم النفس عن سوراتها، وتخلص من عكر مذماتها، فتنقاد للعقل مستسلمة له، خاضعة لحكمه. و يستعملها العقل على نهج الحق و العدل ـ و ليست الأخلاق الفاضلة، إلا أن تزن النفس أعمالها بميزان العدل، و لاتحيد في هواها عن صراط الحق.

و بعد هذه المقدمة، يمكن لنا أن نقول أن الشرق، بعد ما كان له من المجل الرفيع، والمقام المنيع، و السلطنة العظيمة، و بسطة الملك، و عظيم الشوكة، و كثرة الصنائع والبدائع، ووفور الأمتعة و البضائع، و رواج سوق التجارة، و ذياع العلوم و المعارف، و شيوع الأدب و الفنون.. ما هبط عن جليل مرتبته، و ما سقط عن رفيع منزلته، ولا استولى الفقر و الفاقة على ساكنيه، و لا غلب الذل و الاستكانة على عامريه، ولا تسلطت عليه الأجانب، و لا استعبدت أهله لأباعد، لاعراض الشرقيين عن الاستنارة بنور عقولهم، و تطرق الفساد في أخلاقهم، فانك تراهم في سيرهم كالبهائم لايتدبرون أمراً، ولا يتقون في أفعالهم شراً، و لا يكدون لجلب النافع، ولايجتنبون عن الضار.. طرأ على عقولهم السبات، و وقفت افكارهم عن الاجالة في إصلاح شئونهم، و عميت بصائرهم عن ادراك النوازل التي أحاطت

بهم.. يقتحمون المهالک، و يمشون المداحض و يسرعون في ظلمات أهوية نفوسهم التي نشئت عن أوهامهم المضلة، و يتبعون في مسالكهم ظنوناً قادهم إليها فساد طبائعهم.. لا يحسون المصائب قبل أن تمس أجسادهم. وينسونها كالبهيمة بعد زوال آلامها و اندمال جراحها. ولا يشعرون لاستيلاء الغباوة على عقولهم، واكفهرار ظلمات غشاوة الجهل على بصائرهم. اللذائذ التي خص الانسان بها من حب الفخار و طلب المجد و العز و حسن الصيت و بقاء الذكر، بل لاستيلاء الغفلة على عقولهم. يحسبون أن يومهم دهرهم. و التقمقم كالسارحة شأنهم لا يدرون عواقبهم، و لا يدركون مآل أمرهم، و لا يتداركون ما فاتهم، و لا يحذرون ما يتربصهم من أمامهم و من خلفهم. و لا يفقهون ما أكمن لهم الدهر من الشدائد والمصاعب. و لذا تراهم قدرثموا (أي راموا) الذل و ألفوا الصغار و أنسوا الهوان، وانقادوا للعبودية، ونسوا ما كان لهم من المجد المؤثل و المقام الأمثل ـ و بعد انحدارهم عن ذروة العقل، الذي لا كرامة للانسان إلا به، غلبت عليهم الخسة والنذالة. ورانت على قلوبهم، الجفاء و القسوة. و تمكن من نفوسهم الظلم و الجور. واستولى عليهم العجب، لا عن جاه يدعو إليه، و لا عن فضيلة تبعث عليه. وتظاهروا مع الذل المتمكن من قلوبهم بالكبر و العظمة، و فشا بينهم الشقاق والنفاق. و تلبسوا بالغدر و الخيانة. و استشعروا الحسد و النميمة و تسربلوا بالحرص و الشره. و تجاهروا بالوقاحة و الشراسة. واتسموا بالخشية و الجبانة. وانهمكوا في الشهوات الدنية. و خاضوا في اللذات البدنية و تخلقوا بالأخلاق البهيمية، متوسدين الكسالة و الفشل. و اتصفوا بصفات الحيوانات الضارية يفترس قويهم ضئيلهم. ويستعبد عزيزهم ذليلهم. يخونون أوطانهم. و يظلمون جارهم. و يستلبون أموال ضعفائهم. و يخوسون (ربما المقصود يحنثون) بعهودهم. و يسعون في خراب بلادهم. و يمكنون الاجانب من ديارهم لا يدفعون ذمارا. ولا يخشون عارا. عالمهم جاهل. و أميرهم ظالم. و قاضيهم خائن. ليس لهم هاد، فيرشدهم إلى سبيل نجاتهم، و لا زاجر، فيكفهم عن

التمادي في غيهم. و لا وازع، يقدع (اي يمنع) الجائرين عن نهش عظام فقرائهم ــ و صاروا جميعاً، بسخافة عقولهم، و فساد أخلاقهم، عرضة للهلاك، و أشرفوا على الزوال ــ تأمل فيما أقص عليك من أعمال الشرقيين من قبل، حتى تعلم انهم هم الذين، بحيدانهم عن سنة العقل، قد أوقعوا أنفسهم في الذل الدائم، وجلبوا، بعدم تدبرهم في عواقب أمورهم، الخراب و الدمار إلى بلادهم، و اضعفوا، بسوء سياستهم، سلطنتهم القوية. و مكنوا أعداءهم من بلادهم، جهلا منهم بنتائج أعمالهم ــ و ها هو ذا ــ.

ان العثمانيين قد اتفقوا مع الروس على مقاسمة البلاد الايرانية حينما تغلب الأفغانيون على أصفهان أيام شاه سلطان حسين. ولو نظروا بنظارة التدبر إلى الأمة الروسية، و ما لها من العلاقات مع اليونانيين و الرومانيين و السربيين و البلغاريين وغيرهم من رعايا السلطنة العثمانية، و ما يمكنها أن تحوزه في مستقبل أمرها من القوة و البسطة، لما اختلجت ببالهم مخالفتها.. و لا خطرت في أذهانهم مؤامرتها ــ بل كانوا يسعون في قلع أسها قبل استحكامه، و قطع شجرتها قبل أن تشج عروقها. وانهم جاهروا الايرانيين بالحرب من طريق بايزيد. و قد كان عباس مرزا بجيوشه يقاومون الروسية و يدفعونها عن بلادهم. فوهنت قوتهم. و ضعفت مريرتهم (عزيمتهم) و استملك الروس، بسبب هذا الاقتحام، أكثر بلاد أذربيجان. ولو استشار العثمانيون عقولهم و فتنتذ لأشارت عليهم بأن ضعف الايرانيين و قوة الروس هما معا علة لتزعزع أركان السلطنة التركية. و لكنهم اتبعوا خطرات أنفسهم. و تزينت لهم أوهامهم. و ظنوا انهم يحسنون صنعاً. فأسرعوا في هلاك أنفسهم، و هم لا يشعرون. و كان عليهم، اهتداء بنور العقل، و سلوكاً في مسلك السياسة الحقة، أن يلاحظوا الجامعة القوية التي بينهم و بين السلطنة الايرانية.. فيتفقوا معها على كبح شره الروسية، و إضعاف قوتها، أمناً من غوائلها، و حذراً من آفات مطامعها ــ و انهم، أي العثمانيين، جبهوا سفير (تبو سلطان) سلطان (ميسور)

بالرد، حين عرض عليهم من طرف سيده، استبدال (البصرة) ببعض البلاد الهندية التي كانت في حوزته. فامتعضوا من هذا الطلب، وردوا السفير خائباً ـ و كان غرض (تبو سلطان) من طلبه هذا، أن يكسر سورة الانكليز، ببسط السلطة العثمانية في الهند و تمكنها منها. و ذهل العثمانيون تهاونـ(الحرف الأخير محذوف و المرجح انها تهاوناً) منهم عن العلاقات التامة التي بينهم و بين الهنديين. و ان سلطنتهم لو امتدت إلى تلك الممالک لذهل جميع حكامها بلا معارضة تحت لوائهم. و قدروا حينئذ على قدع الحكومة الانكليزية عن تطاولاتها في الهند و سدوا عليها طرق فتوحاتها في المشرق. و ما شعروا تساهلا في السياسة، و تغافلا عن منهج العقل، ان بسطة الحكومة الانكليزية في الآسيا، توجب تحكمها في بلادهم، و طمعها في الاستيلاء عليها، كما وقع الآن.. حتى مكنوا عساكرها مدة طويلة من شق الأراضي المصرية، ذاهبة إلى أقاصي الشرق للتغلب عليها ـ و ان شاه ايران (فتحعلى شاه)، ارضاء للانكليز، هدد الأفغانيين بالحرب، وقتما أرادوا أن يزحفوا إلى الهند لانتزاعها من أيدي الانكليز. ولو استنار الايرانيون وقتئذ بنور عقولهم، لانكشف لهم، ان قوة الانكليز في الهند، إذلال لهم، و خطر على بلادهم. و لعلموا انهم و الأفغانيين، أغصان شجرة الايران قد تشعبوا من أصل واحد. و نشأوا في أرض واحدة تجمعهم وحدة الجنسية. و تؤلفهم الأخوة الحقيقية. لأنهم متساهمون في العز و الشرف. ومتشاركون في الذل و الهوان. و ما فرقت كلمتهم إلا أوهام واهية نشئت (أي نشأت) عن الظنون الدينية. و ليس منها في شيء. ولو راجع كل عقله لرأى وجوب اتفاقهم تحت راية الوحدة استرجاعاً لمجدهم السابق، و تداركاً لما فاتهم بسبب الشقاق من الشرف و الفخار و علو الكلمة بين الأمم ـ و أن الأمير (دوست محمد خان) أمير الأفغان قد جعل بلاده تعام منه (أي تكرهه) عرضة لهجمات الانكليز. فانه بعد المحالفة مع (رنجيت سنک) و معاهدته على مقاومة الانكليز، قد تركه، اغتراراً بالمواعيد الانكليزية، في ميدان الحرب وحيداً. و تقهقر بعساكره فانهزمت

جيوش (رنجيت سنک). و تغلب الانكليز على جميع أراضي البنجاب المتاخمة للأفغانستان. ولو استهدى الأمير (دوست محمد خان) إذ ذاک عقله، و سلک في سياسته سلوک بصير (الأصح سلوكاً بصيراً) يتدبر نتائج افعاله، قبل أن يشرع فيها .. لتحقق لديه، أن صيانة بلاده عن هجمات الانكليز، انما تكون ببقاء الحكومة البنجابية حريزة، حتى تكون سداً مانعاً بين أفغانستان و بين الحكومة الانكليزية. فكان يدافع عنها كما يدافع عن حكومته ـ و أن نواب البنجالة، و نواب الكرناتک، قد مهدا للانكليز سبل دخولهم في الأراضي الهندية ـ و أن نواب لكهنو (اسم مقاطعة) مقاصدهم في إذلال السلطنة التيمورية ـ و أن نواب دكن قد أعانهم على ابادة حكومة (تيبو سلطان) و اذلال كراجة (برودة) و قهر الذين قاموا سنة ١٨٥٧ لانقاذ بلادهم و دفع شر المتغلبين عليها من الانكليز. و كل هئلاء (هؤلاء) جهلا منهم بمنافعهم، و عمى عن نتائج أفعالهم المضرة، مكنوا الحكومة الانكليزية ثقة بمواعيدها من الأراضي الهندية. وجعلوا على أعناقهم نير العبودية. و ما عقلوا، ان قوام كل بالآخر. وان بقائه (بقاءه) قد نيط ببقائه. و ان كلا للآخر بمنزلة العضو من الجسد. فاذا تمكن الداء من عضو، سرى في الجميع. ولزم منه انحلال البدن كلية ـ و الآن ترى الانكليز، بعد استعبادهم، و سلب أموالهم، ونزع أيديهم عن الملک، تعارضهم في ديانتهم. و تزاحمهم في تجارتهم. و تعاقبهم على نياتهم. و تعاتبهم على اعمال آبائهم ـ و ان أهل بخارا فرحوا بتسلط الروسية على قوقند و التركمان تبجحوا من غلبتها على بخارا و الأفغان و الفارس قد سرا (المقصود سروا) من استيلائها على التركمان. و كل هذا غفلة منهم عن المضار التي تنشأ عن قوة الروسية و بسطة سلطتها في تلک الأراضي و قد ألقاه (هي ألقاهم) جهلهم بصالح أنفسهم، و اغضائهم عن الاستنارة بأنوار عقولهم في التهلكة و أشرفوا كلهم، بغرورهم، على الزوال و الاضمحلال ـ وان مدحت باشا[1] و أعوانه، لو نظروا ببصيرتهم إلى أركان

---

١. كان مدحت في منصب الصدر الأعظم، ثم عين والياً على بغداد ثم على سورية، في أواخر السبعينات من القرن

سلطنتهم المتداعية إلى السقوط .. و شعروا بهداية عقولهم، ان دعائم حكومتهم كادت أن تنهد، بما ألم بها من المصائب.. و علموا بتدبرهم ان البلايا تترصدهم من جوانبهم.. لما تقحموا غروراً وَ ضلالة في خلع عبد العزيز وقتله، وقتما تترقب الأعداء سقطاتهم، و تغتنم هفواتهم. و لكنهم، اعتماداً على واهي آرائهم، و اغتراراً بدسائس الحكومة الانكليزية، قد جلبوا الهلاک و الاضمحلال على أمتهم .. و يظنون انهم هم المصلحون ـ و ان اسمعيل باشا[1] حبا بالاستقلال، و عمى عن نتائج أفعاله السيئة التي نشئت (نشأت) عن حرصه باسم الملک، قد ألقم الافرنج جميع أموال مصر، و ما استدانه من صرافي الأوربا بالأرباح الباهظة. ثم سعى الافرنج في خلعه عن الملک، ونفيه عن الديار المصرية ارادة استملاكها، و وضع اليد عليها ـ ولو تروى في حالة الشرقيين، و تأمل فيما أصابهم من الذل و الصغار لأجل تفرق كلمتهم، لازداد خضوعاً لسلطانه. وسعى، صيانة لنفسه، في تشييد مباني سلطنته، ونزع عن قلبه حب الاستقلال. و علم، ان الذين لا يفترون عن السعي في فتح الممالک، لا يمكن أن يساعدوه في مقاصده ـ و ان وزراء توفيق باشا، جهلا بمقدار أنفسهم، و عجباً بآرائهم الفاسدة، و اثباتاً لأوهامهم الباطلة، قد جلبوا الانكليز بغاية جهدهم إلى القطر المصري، و ملكوهم إياه. و هم يظنون انهم يستظهرون بهم على أعداء الخديو. فلو تدبروا في سياسة الحكومة الانكليزية و رأوا أطماعها في أرض مصر، لما جلبوا هذا المصيبة على أنفسهم، و على خديوهم، و على سلطانهم، ولما ألقوا أنفسهم فى فم الأسد، خوفاً من وعوعة الكلب.

فقد ظهر، من كل ما ذكرته من سير الشرقيين قدماً في حالاتهم، انهم ماسلكوا في

الماضي. بعد ذلک أعفي من منصبه و استدعي إلى الآستانة. وإثر الاعفاء، اتهم مدحت بمحاولة قتل السلطان عبدالعزيز، فحوكم و حكم عليه بالاعدام.

۱. اسماعيل باشا كان خديوي مصر، في اوائل الربع الأخير من القرن الماضي. و قد اشتهر اثناء بناء الأوبرا المصرية، حيث دعا ملوک أوروبا و أمراءها إلى حفل الافتتاح، و أنفق في سبيل ذلک مبالغ باهظة.

سياستهم سبيل الرشد و الهدى، و ما استفادوا من عقولهم شيئاً، و لا تدبروا في عواقب أفعالهم و نتائج أعمالهم، و لا نظروا بنور البصيرة في حالهم و مآلهم. بل تاهوا جهلاً منهم بمنافعهم في بيداء الغواية. و صاروا عمي عن غاية مسيرهم في تيه الضلالة. حتى خربوا بأيديهم ديارهم. و أبادوا بسوء تصرفهم بلادهم. و مكنوا الأجانب بمساعيهم الفاسدة من رقابهم ـ و كان الواجب على أحفادهم الذين احترقوا بنارهم، و تدنسوا بعارهم، أن يعتبروا بالمصائب التي جلبتها إليهم غفلات أسلافهم.. و أن يتقوا البليات التي قادتها الغباوة إلى آبائهم.. و ان يسعوا في جمع الكلمة .. و أن يتحذروا من الشتات و التفرقة.. و يجتنبوا الأغراض الشخصية .. ويعرضوا عن دواعي الخطرات الوهمية .. و يتنحوا عن مضال الاستبداد و الاستئثار. و لكن تراهم،لسبات عقولهم، يقتفون آثارهم، و يتبعون أغلاطهم، معرضين عن العقل و ارشاده، جاحدين للحق و آياته، ارتفعت عنهم الأمانة.. و فشت بينهم الخيانة .. و انقطعت بينهم عرى الوداد.. و انحلت عقدة الجنسية. كل ينظر إلى نفسه و يسعى لنفعة شخصه، جهلا منه أن سعادته منبثة في جميع آحاد الأمة.. و لا يمكنه أن يفوز بهاالا بسعادة الكل. و لذلك قد صاروا، بعد العبودية، فقراء لايملكون شيئاً.. حائرين في معاشهم.. ضالين عن رشدهم في مبدأهم و معادهم. و كاد أن يقضى عليهم بذل أبدي، و موت دائمي، بتلاشي جنسيتهم و تناثر جمعيتهم ـ و مع كل هذا، ما فاتهم أوان التدارك، و لا ضاق عليهم زمان، و لا سدت عليهم الأبواب، و لا انقطعت دونهم الأسباب. و لكن قد تمكن منهم القنوط، و غلب عليهم اليأس، و فترت هممهم، و ضعفت عزائمهم، و استكت (بمعنى اغلقت) آذانهم عن استماع النصائح، و عميت أبصارهم من رؤية الحق، و قست قلوبهم عن الاذعان له. فتراهم، امتداداً في غيهم، يريقون دماء هداتهم.. و يتبعون المرء غواتهم. فلا حول و لا قوة إلا بالله.

عن جريدة «أبونظارة زرقا»
العدد الثاني ـ ٩ شباط ـ فبراير ١٨٨٣ باريس

السيد جمال الدين الحسيني الافغاني

جريدة - أبو نظارة زرقا - المنشئة مقال الأفغاني

١٨

العُجب



العجب

ان العجب يدعو الناس الى الكبر. و الكبر يصير سبباً للنظر الى سائر الناس بالحقارة و يعمل افعالاً غير مطبوعة. و العجب من خواص (الا) نفوس الصغيرة. ومن لوازم عقول ضاق دائرة ادراكها. لان من يكون ادراكه واسعاً و افكاره عالية يعلم ان ستون مراتب الانسان في كل مزية من المزايا معنوية كامنت او صورية غير متناهية. و لما انكشف هذا الامر على احد في كل مرتبة كان لما ينظر الى مافوقه لم يحصل له الا القصور و الاعتراف على انفعاله. ان الانسان لم يكن لعلمه اعتماداً ولا لقوته نهاية و لا لغنائه و ثروته غاية ثم ان يكن احد بقى معجلاً بنفسه لتسيل (لتصيل) الى بعض من المراتب لم يكن سببه الاعمابه شيئاً و عمشه لانه (غير مفهوم) يزعم ستون عقله فوق جميع العقول فلهذا يفوق نفسه على غيره. و ضعف مزاجه و انحطاط نفسه يصير سبباً الى نيله ببعض من المزايا الانسانية و يحصل له النشوان (النشوة) و السكر بحيث يفعل اعمالاً غير مستحسنة و يحقر و يوهن سائر الناس مادام بمقام هذا العجب و الكبر. و مايحصل للانسان بسببه المضرة ان اول مضرته انه يمنع الانسان من وصوله الى مدارج كمالات غير متناهية ويزر النفوس والعقول من طلب المعالي. و متى يوجد في الانسان هذين (هاتين) الخصلتين يجبره على الوقوف. و مضرة اخرى انه يدعو جميع الناس لى على العدواة و (غير مفهوم) يقطع

سلسلة (غير مفهوم) هي اسالى حياته. و هو بواسطة هذه السجية الدنيا في زاوية الوحشة و الوهشة مغلول اليدين يحبس. و العجب اننانرى في بلدنا كثيراً من الناس من التكبر لايمكنهم القيام في عالم و يمّن (يمّنون) من الفجر و العظمة على السماء والارض. و مع هذا لايوجد فيهم مزية داعي (تدعو) الى هذه الخلة.

الاتنظر الى هؤلاء الجالسين في الكروان واضمين رجلهم على رجلهم يتجاوزون من الأزّقة و السوق. و الاتنظر الى الذين يركبون على الفرس و وضعوا قلنسوتهم على رأسهم عوجاً و ينظرون متبكراً (متكبرين) في حين العبور على اليمين و اليسار. لأي سبب يفعلون هذا هل فتحوا مملكة و هل اخترعوا امراً بديعاً و هل اوجدوا علماً جديداً.

و هل كشف سراً من الاسرار سبحان‌الله. هل هو ماريشال ملک و هل هو (کروکرام) ام هل هو کريبالدی ام هو بسمارک ام هل هو (بال ملستان) ام هو عرژ کف اونيطى ام هو کفلرا و الجليلو (غاليله) ام لايل اخترع سلک البرق او انشأ السكة الحديد يدة؟ هذا العجب و هذا التكبر الذی لااصل له. و ان كان للانسان شعورا او كان له غيرة يتوب (يذوب) في الخجلة و اما يخفي نفسه في زاوية حتى لايعرفه غيره و هذه السجية السيئة يوجد قليلاً الا في الشرق.

١٩

نبذة من مناظرة خياليّه



نبذة من مناظرة خيالية

إنكم قد ضللتم عن رشدكم، و تهتم في بيداء غوايتكم، و ما يقوم لكم دليل في تقاعسكم عن الذود عن أوطانكم، و لقد غلب عليكم الجبن، و استولى عـليكم الضعف، و أضعف جنانكم الخوف و الخشية، ألاترون أن كـل أمـر صـعب عـند الشروع فيه؟ أفلا تشعرون أن صعوبة المسالك بمقدار عظم المقاصد؟ و أن الراحة محفوفة بالمشاق، و أن أفضل الأعمال أحمـزها؟ أفـترضون بـالعبودية للأجـانب، والاستكانة للأباعد، و إن موت المرء خير من بقائه في هذه الدنيا مع قـلة مـدتها وسرعة زوالها، رِقّالا يملك من الأمر شيئا؟ أتظنون أن هذا التعلل يـدفع عـنكم غضب رب الجنود؟ لا وحقه. إنكم إن لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم و أموالكم لا تنالون منزلة لديه، و لاتجدون مخلصا من سخطه، و تبقون في ذل العـبودية مـا دامت الأرض باقية، و كل عذاب دونه لحقير. فتشجعوا و ثبّتوا أقدامكم، و سكّنوا روعكم، و إعلموا أن الظفر مقرون بالصبر، و أيقنوا1أن الراحة و السعادة في أثـر المشقة، و أن سنة الله قد جرت من الأزل، أن لاينال الانسـان مـرغوبه إلاّ بـعد التعب، فلا تقدموا هذه الحجج الداحضة، و لا تظهروا الفشل في طلب حـقوقكم، ولاتتسربلوا بالجبن فإن كل جبان محروم، فاسعوا في اتـفاق كـلمتكم، و إجـعلوا

صدوركم مجنّاً لسهام أعدائكم، مجدين في خلاص بلادكم، و إعلموا أن الأمم الغابرة و الحاضرة ما نكست رقابها، و لاكسرت أطواق العبودية، إلا بتحمل المشاق و الخوض في غمرات الموت.



الرد على رينان



الرّد على رينان[1]

يندر أن نجد مقالة لا تتعدى كلماتها الألفين و خمسمئة كـلمة حـققّت الشهرّة الواسعة و اللغط الشديد مثل مقالة جمال‌الدين الأفغاني التي حملت عنوان: «الرد على رينان» و المنشورة بـالفرنسية عـلى أعـمدة جـريدة «جورنال دي ديبا» في الثامن عشر من أيار عام ١٨٨٣ م.

إن هذه المقالة ـ الرد أثارت، ولا تزال تثير بعد مرور ما يناهز القرن على نشرها، جدلاً ولغطاً كبيرين في أوساط المثقفين العرب و المسلمين؛ و لعل ما ضاعف من الجدل و اللغط أن الأصل العربي للنص اختفى منذ أن دخل إلى مكاتب الـ «جورنال دي ديبا»، و لاتزال ترجمته الفـرنسية (التي جـاءت مشوهة و محرَّفة في كثير من المواقع حسب بعض الباحثين المعاصرين) هي النص المعتمد من قبل الكثيرين، وبل من قبل الجميع، حيث أن الحكم على آراء الأفغاني و أفكاره يتم من خلالها.

إن «الرد على رينان» الذي كتبه الأفغاني بالعربية حيث أنه لم يـتقن الفرنسية (و قدنُشر في الصحيفة الفـرنسية بـنفس العـنوان "Répose à Renan") جاء، في ترجمته الفرنسية، و كأنّ كاتبه يؤيدا أرنست رينان في تلك الآراء و المواقف التي ضمَّنها محضرته في السوربون و تمحورت حول علاقة الدين الاسلامي و المسلمين بالعلوم و الفسلفة. و إذا كـنا نـدرک

---

١. هذه الدراسة و المقدمه، للاستاذ سمير أبو حمدان، و ترجمة النص ـ للرّد ـ هي للدكتور و علي شلش. (غ)

جميعاً أن معنى الرد، أي رد، إنما ينطوي على موقف سلبي و مضاد تجاه رأي أو قضية مطروحة... فكيف صار رد الأفغاني، في نصّه الفرنسي، متوافقاً مع محاضرة أرنست رينان في العديد من وجهات النظر! ثم لماذا ضاع النص العربي للرد و هو القول الفصل في هذه المسألة؟ و لماذا لم يُسمح للأفغاني، و ربما بإيعاء من الحكومة الفرنسية، بكتابة مقال آخر في الـ «جورنال دي ديبا» بعدما بلغه أن أقواله في الرد على رينان قد شوّهت؟ و أخيراً لماذا قطع جمال الدين علاقته بالجريدة المذكورة و راح ينشر مقالاته في صحيفة فرنسية أخرى هي الـ«انتر انزيجان»؟

الظرُوف المُحيطة بالرّد

هذه الأسئلة تقودنا إلى معرفة الظروف و المعطيات التي تحيط برد الأفغاني و كذلك بمحاضرة رينان. إذ أن معرفة هذه الظروف و المعطيات ربما أفضت بنا إلى معرفة حقيقة الرد و مضمونه الصحيح و هما شيئان يتناقضان مع ما كُتب عنهما حتى الآن.

سوف ننطلق، هنا، من البداية و تحديداً من المرحلة الهندية الثانية في حياة الأفغاني و هي التي تمتد من عام ١٨٧٩ و إلى عام ١٨٨٢ م. ففي هذه المرحلة، و قد كانت منفى اضطرارياً، قضى الرجل أيامه متنقلاً من مدينة هندية الى أخرى هادياً و مرشداً المسلمين إلى حقيقة الدين الإسلامي. ويصف بعض الباحثين هذه المرحلة بأنها من أخصب مراحل حياته حيث صرف معظم أوقاته في الكتابة و الخطابة و النقاش. و بالرغم من ذلك فإن الأفغاني في هذه المرحلة آلمه شيئان: رقابة الإنكليزله، و الشعور العميق بالغربة. و من أجل ذلك قرّر الخروج من الهند بعد أن سمح له الإنكليز بذلك و توجه إلى باريس. و قد اختار العاصمة الفرنسية مقراً جديداً له لأسباب عدة بينها الخلاف الذي كان ناشباً و قتذاک بين لندن و باريس حول سياسة كل منهما في الشرق، و بينها ابتعاد باريس من سلطة الأتراک و تدخلاتهم عکس ماهو حاصل في‌لندن، و بينها أيضاً أن باريس كانت في ذلك الوقت تحتضن عدداً من زملاء الأفغاني المناهضين للسياسة البريطانية مثل

يعقوب صنّوع (١٨٣٩ـ١٩١٢م) و خليل غانم (١٨٤٦ـ١٩٠٣م)، و هذا الأخير عرف بعدائه غير المحدود للعثمانيين «وكان الأفغاني قد عرف صنوع في القاهرة، و ربما عرف خليل غانم في الاستانة أو القاهرة. و كان صنوع قد غادر مصر غير مرغوب فيه عام ١٨٧٨م. و أعاد في باريس إصدار صحيفته «أبو نظارة». و كان الآخر عمل مترجماً في بيروت و دمشق و الاستانة ثم اختير نائباً عن سورية في أول برلمان عثماني عام ١٨٧٦م. فلما ألغى السلطان عبدالحميد البرلمان بعد قليل، هرب غانم، بعد مطارته إلى مصر، حيث أصدر أول كتاب في العربية عن الاقتصاد السياسي عام ١٨٧٩م. و لكن سرعان ما شدّ رحاله إلى باريس حيث أقام و تجنّس بالجنسية الفرنسية، و أصدر صحيفة «البصير» عام ١٨٨١م بتشجيع الحكومة الفرنسية و دعمها. و لما توقفت هذه الصحيفة المعادية للعثمانيين والانكليز عام ١٨٨٣م، ساهم غانم في بعض الصحف الفرنسية الأخرى وأهمها «جورنال دي ديبا» (Journal des débats) أي «صحيفة المناظرات» التي نشرت رد الأفغاني على رينان»[٢].

وثمة مَن يرجح من الذين ترجموا لحياة الأفغاني أنه كان على اتصال مستمر مع هذين الرجلين، خلال وجوده في الهند، و قد أقنعهما بتسهيل وصوله إلى باريس و الاستحصال له على تأشيرة دخول و ذلك لأجل متابعة حملته، و بالتعاون معهما، على الانكليز و العثمانيين. هذا شيء، أما الشيء الآخر الذي كان وراء طموحه للاستقرار في باريس فهو أن العاصمة الفرنسية كانت على صلة بأهل الشرق عموماً و الشرق العربي الإسلامي على وجه الخصوص. و قد وجّه الأفغاني، و هو في طريقه إلى باريس، رسالة إلى رئيس وزراء مصر مصطفى باشا يتّضح لنا فيها مقدار المعاناة التي كان ينوء تحتها الأفغاني. و مما جاء في الرسالة: «... فلما رأيت أن المصائب كل يوم تكشّر عليّ عن أنيابها، و أن البلايا تفتح كل ساعة بابها، تفكّرت بالرزايا التي جلَبَتها عليّ الغباوة و القسوة و تروّيت في أمري. و علمت أني لو أذهب

---

٢. الأزمنة، المجلد الأول، العدد ٦، دراسة بعنوان «جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان»، علي شلش، أيلول/تشرين الأول، ١٩٨٧م، ص ٥٠.

إلى بلدي و في العين قذى، و في الحلق شجى، و في الكبد أوار، و في القلب نار، مما أصابني، لا أجد بين أهله (...) مَن إذا قصصتُ قصتي و كشفت عن عمتي يئن عليَّ و يتوجع لي و يأسف على مصابي (...) فعزمت أن أذهب، وإن كنت صفر اليدين خالي الراحتين، إلى بلاد فيها عقول صافية و آذان واعية و قلوب شفيقة و أفئدة رفيقة، حتى أقص عليهم ما يجري على ابن آدم في الشرق، و أخمد النار الملتهبة في قلبي من هذه البلايا، وأضع حملَ هذه الهموم التي أنقضت ظهري... و هذا هو سبب ذهابي إلى بلاد الإفرنج»[٣].

تاريخ هذه الرسالة هو كانون الأول ١٨٨٢ م. و قد كتبها على متن السفينة التي أقلّته إلى باريس لدى رسوّها في ميناء القاهرة، و قدسلمها باليد إلى أحد تلاميذه المصريين الذي عرف بقدوم الأفغاني على متن سفينة قادمة من الهند و جاء لتحيته. و طلب الأفغاني من تلميذه أن يبلغها سراً إلى مصطفى باشا. و أبحرت السفينة إلى لندن حيث مكث الإفغاني فترة تمكن في خلالها أن يستحصل على تأشيرة دخول إلى باريس التي بلغها في حدود العاشر من كانون الثاني ١٨٨٣ م. و كان أول المرحبين به يعقوب صنوع الذي استضافه في منزله لأيام عدة و قال في جريدته «أبو نظارة» و هو يزف خبر قدوم الأفغاني و ذلك في التاسع عشر من كانون الثاني ١٨٨٣ م: «أيها الأخوة، وصل إلى باريس جمال الدين و العلم، معلمنا و أستاذنا الأفغاني». أما ثاني المرحبين فكان خليل غانم الذي نشر في جريدته «البصير» (٢٥ كانون الثاني ١٨٨٣ م) خبر قدوم الأفغاني على النحو التالي: «قدم باريس في الأسبوع الماضي حضرة العلاّمة العامل و الفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الذي طار صيته في الآفاق، فعرفه القاصي والداني و شهرة اسمه تغنيان عن وصف علمه. و لكنّا نقول أن بمثله يحق للشرق أن يتيه افتخاراً و ينافس الغرب علناً و جهاراً. كان حَرَس اللّه كماله في الهند يجوب بلدانها و يستطلع أحوال أهلها ويلاحظ عاداتهم و يدرس تاريخهم و يجتلي

---

٣. راجع في هذا المجال، بالفارسية، «إسناد و مدارک چاپ نشده درباره سيد جمال الدين» مطبوعات جامعة طهران، ١٩٦٣ م، ص ٣٧. و قد حقق هذه الرسالة إلى مصطفى باشا، علي شلش و نشرها في كتابه «الأفغاني و تلاميذه»، المركز العربي للإعلام و النشر، القاهرة، ١٩٨٧ م، ص ٢٩ ـ ٥١.

معارفهم». و يضيف الخبر: «ثم خرج منها قاصداً لوندرة (لنـدن) لزيـارة بعض أصدقائه فيها. و بعد أن أقام بها أياماً قليلة، أتى إلى باريس على جناح اليمن و الاقبال، و المظنون أنه يبقى فيها مدة غير قصيرة».

و لم يقتصر الترحيب بالأفغاني على هاتين الصحيفتين العربيتين و إنما شمل أيضاً الصحف الفرنسية، فقد رحبت به صحيفة اليسـار الفـرنسي في ذلك الوقت الـ«الانترانزيجان» (L'intransigeant) واصفة إياه بأنه أحد «أشهر شخصيات الشرق». كما لصحيفة يسارية أخرى كلمة في قدومه. فقد تحدثت عنه «لاجستيس» (La Justice) واصـفة إيـاه بـالشيخ الورع المتزهد الذي يقطن شقة متواضعة في شارع دوسيز و يشغل نفسه بـتعلم الفرنسية[٤].

إن الأشهر الأولى من وجوده في باريس صرفها جمال الدين في الكتابة و الاطلاع على تاريخ فرنسا و الغرب وصب اهـتماماً خـاصاً عـلى إتـقان الفرنسية من أجل تأهيل نفسه، مثلما فعل في مصر و الهند و الآستانة من قبل، على الانخراط في الوسط الثقافي الفرنسي. و في كل ذلك كان صديقاه يعقوب صنوع و خليل غانم خير معينَيْن له، بالإضافة إلى صديق آخر هو أرنست فوكيلان الذي تعرَّف إليه الأفغاني في مصر و قد عاد فوكيلان إلى موطنه باريس بعد فشل الثورة العرابية و سيطرة الانكليز على مصر.

و مما يذكر أن خليل غانم صاحب جريدة «البصير» أسهم بشكل فعال في تعريف الأفغاني إلى عددٍ من الشخصيات الثقافية و الاعلامية الفرنسية. فقد عرَّفه إلى المستشرق ديولافوا و إلى المؤرخ أرنست رينان الذي كانت بينه و بين الأفغاني، فيما بـعد، مـناظرة غـاية فيالأهمـية عـلى صـفحات الـ«جورنال دي ديبا».

وقد تعرَّف الأفغاني في باريس أيـضاً إلى الشـاعر الفـرنسي الشهـير ڤيكتور هوغو. و تمَّ هذا التعارف من طريقَ صديق مشترك هو الصحافي جان مير. كما عرَّفه صديقه الفرنسي فوكيلان إلى روشفور مسؤول التحرير

---

٤. علي شلش، استناداً إلى:

Homa Pakdaman, Djamal ed-Din Assad Abadi, Paris, Maisonneuve et Larose, 1969, PP. 77-78.

في جريدة الـ«الانترانزيجان». أما جورج كليمنصو الذي أصبح فـيا بـعد رئيساً لوزراء فرنسا، و قد نشأت بينه و بـين الأفـغاني عـلاقة مـن الود و الاحترام، فلا نعرف حتى الآن من قدَّم الأفغاني إليه، و الجدير بالذكر إن كليمنصو كان مديراً لتحرير «لاجستيس». و قد «كانت لقاءات الأفغاني بهؤلاء مؤثرة إلى حد بعيد و تركت انطباعات قـوية لدى بـعضهم، مـثل روشـفور وريـنان، وجـعلت روشـفور و كـليمنصو يـستكتبانه في صحيفتيهما»[٥].

و على الرغم من أن جمال الدين كتب العديد من المـقالات الهـامة في الصحف العربية («أبونظارة» و «البصير») و الفـرنسية («لاجـستيس» و «انترانزيجان»)، غير أن مقالته الأهم و التي تحققت شهرتُه الباريسية على أساسها فهي التي تمثلت في رده على محاضرة رينان... فما هي هذه المحاضرة؟ و ما هو هذا الرد؟

مُحاضَرة رينَان

يذهب بعض المؤرخين للفكر الفرنسي في القرن التـاسع عـشر إلى أن أرنست رينان (۱۸۲۳ ـ ۱۸۹۲ م) واحد من أهم كتّاب عصره. فهو أكثرهم إثارةً و قد كان ميّالاً لخوض المعارك الفلسفية و الفكرية مـع عـدد مـن المثقفين و الكتاب الفرنسيين. و إذ بدأ حياته الفكرية بدراسـة اللاهـوت، تحول فيا بعد من اللاهوت إلى الفلسفة، و تحديداً عندما أدرك أن المسيحية لا تستطيع أن تلبي طموحاته، كما أن اللاهـوت ليس بـإمكانه اسـتيعاب طاقته المتفجرة. و قد خرجت من بين يدي رينان ثلاثة من الكتب الهامة التي عرفتها الحياة الثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر، و هي: «تـاريخ أصول المسيحية» و هو يقع في سبعة أجزاء و «تاريخ بني إسرائيل» و «ابن رشد و مذهبه».

و قد صرف رينان حيزاً مهماً من دراساته للبحث في طبيعة العلاقة بين الدين و العلم. فكان لقاؤه بالأفغاني الذي يصفه رينان بـ«الملحوظ الذكاء»

---

٥. المصدر السابق، ص ۷۹ ـ ۸۰.

و «الآسيوي المستنير»، فرصة لمناقشته في أمر محدد و هو علاقة الاسلام بالعلم. وكانت هذه العلاقة محور المحاضرة التي ألقاها رينان في السوربون في التاسع و العشرين من آذار ١٨٨٣ م.

و حتى الآن لاأحد يعرف متى تمّ اللقاء بين الأفغاني و رينان على وجه التحديد. فلا الأفغاني تحدّث عنه و لا رينان حسم لنا زمان و مكان اللقاء، بل إن الأخير يخبرنا بأنه تمّ على يد صديقهما المشترك خليل غانم، و أن جمال‌الدين، مثلما يدّعي رينان، هـو مـن أوعـز إليـه بـإلقاء محـاضرة في السوربون يكون محورها الاسلام و العلم. و أقصى مانستطيع قوله عن تاريخ هذا اللقاء أنه تمّ في بداية أو منتصف شهر آذار من عام ١٨٨٣ م و هو الشهر الذي ألقى فيه رينان محاضرته الشهيرة.

و يبدو أن شخصية الأفغاني أحدثت تأثيراً كبيراً في نفس رينان حيث تخيّله واحداً من (الملاحدة الكبار)! و أنه ابن سينا أو ابن رشد و قد بُعث حياً من جديد! يقول رينان: «قليلون هم الذين تركوا في نفسي انـطباعاً أقوى مما تركه هو. و قد ساقني حديثي معه إلى اتخاذ قرار باختيار الصلة بين الروح العلمية و الاسلام موضوعاً لمحاضرتي في السوربون. فالشيخ جمـال الدين الأفغاني متحرر، إلى أبعد درجة، من «الأهـواء» الإسـلامية (!!!) و ينتمي إلى تلك الأجناس الإيرانية (!) النشطة التي تعيش قرب الهند حيث ماتزال الروح الآرية[٦] متقدة تحت القشرة المصطنعة للاسلام الرسمي، و هو يشكل أفضل برهان على صحة البَدَهية العظيمة التي طالما نادينا بها و هي أن الأديان تقيّم بالأجناس التي تعتنقها. و قـد جـعلني تحـرُّر تـفكيره و شخصيته النبيلة الوفية أعتقد، و أنا أتحدث إليه، واحداً من معارفي القدامى و قد عادت إليه الحياة مثل ابن سينا أو ابن رشـد أو سـواهمـا مـن أولئك الملاحدة[٧] الكبار الذين قاموا بتمثيل تقاليد العقل البشري على مدى خمسة

٦. هذه العبارة تشير، و بما لايرقى إليه الشک، إلى اتجاه عرقي عند رينان للتمييز بين الأجناس، و تفضيل جنس على آخر حيث يحط هنا من شأن الجنس السامي مقابل إعلاء الجنس الآري.

٧. لانعرف بالتحديد ماذا عَنى رينان بكلمة ملاحدة! فلا ابن سينا و لاابن رشد في القرون البعيدة و لا الأفغاني ـ

قرون. و يالها من مفارقة شديدة حين رحت أقارن بين ظهوره المثير هذا و مايدور في‌البلاد الاءسلامية الواقعة على ذلک الجانب من بلاد فارس، حيث يندر وجود الفضول العلمي و الفلسفي (!). فالشيخ جمال الدين إنما يشكل أبلغ حالات الاحتجاج العرقي ـ التي يمكن التنويه بها ـ على الفتوحات القائمه على الدين».

* * *

على أي حال فنحن نعمل، هنا على تسليط الضوء مرةً أخرى على ماقاله رينان في محاضرته. لقد ألقيت المحاضرة، مثلما نوهنا قبل قليل، على منبر السوربون في التاسع و العشرين من آذار ١٨٨٣ م، و في ذات اليوم نشرت في صحيفة الـ«جورنال دي ديبا».

يدشن رينان محاضرته بالكلام على أحوال الأقطار الاءسلامية فيلاحظ أنها تعيش في العصر الحديث خواءً فكرياً و ثقافياً. و هذا عائد إلى الحكم الإسلامي في هذه الأقطار. فالمسلمون مقتنعون، منذ الصغر، بأنهم مكتفون ذاتياً من ناحية العلوم و المعارف «حتى أن الطفل المسلم ينشأ على التعصب معتقداً أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة، سعيداً بذلک كأن نقصَه و تخلفه امتيازٌ يُرتجى. و هذا الغرور الجنوني هو العيب الجوهري للمسلم. فالبساطة الظاهرة في دينه توحي إليه باحتقار الأديان الأخرى، و بذلک يحتقر الثقافة و العلم و كل ما يتعلق بأوروبا»[8].

و يطرح رينان تساؤلاً في وجه الذين كانوا يصيخون السمع إليه فيقول: هل هناک ما يمكن أن نطلق عليه علماً إسلامياً، و إلى أي مدى يمكن أن

في العصر الحديث أدلوا برأى أو بموقف فكري قد نستشف منه دليلاً على اولالحاد. و الأرجح أن رينان يقصد بالملحدين، الفلاسفة. و الكلمة هنا تحمل معنى مجازياً. و قد انطلق رينان من مقولة أن الفسلفة تتعارض في كثير من المواقف مع الدين. و هو في هذا تحديداً ينطلق من تجربة الفلسفة الأوروبية التي لاقت الأمرين على يد الكنيسة.

٨. جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان، الأزمنة، مصدر مذكور سابقاً، و ذلک نقلاً عن نص المحاضرة التي نشرتها الـ«جورنال دي ديبا» في كراس خاص من ٢٤ صفحة بعنوان:

L'islamisme et la science, Paris, C. Levy, 1883.

يسمح الاسلام بهذا العلم و يتسامح معه؟ و إذا عمل على الإجابة عن تساؤله عاد إلى التاريخ الاسلامي ليقرَّ بأن بلاد المسلمين لم تخلُ يوماً من أبرز العلماء و الفلاسفة. و قد حدّد تاريخاً يقع بين القرن الثامن و الثالث عشر إذ في هذه الفترة الواقعة بين هذين التاريخيْن شهد العالم الاسلامي نهضة علمية و فكرية متقدمة، كما أن العالم الاسلامي، في تلك الفترة، تفوق حضارياً على العالم المسيحي. بل إن العالم الاسلامي، إبان تلك الفترة، لم يكن في سائر أرجاء المعمورة ما يناظره و يماثله في نهضته الفلسفية و العلمية.

غير أن هذه النهضة العلمية و الفلسفية، كما يلاحظ رينان، سرعان ما ذهبت أدراج الرياح، فأصبحت كلمة فلسفة ترادف كلمة زندقة، و أن لقب فيلسوف يعرّض صاحبه للملاحقة و الاضطهاد. و لم يبقَ هذا السقوط الحضاري منحصراً في الشرق الاسلامي بل تعدّاه إلى الأندلس حيث أصيبت نهضتها المماثلة بالسقوط و الاندثار.

و لكن رينان ينصف العرب المسلمين قليلاً إذ يعقّب على هذا السقوط الحضاري بالقول: «ومع ذلك ما كانت أوروبا لتعرف شيئاً عن العلم و الفلسفة عند الاغريق لولا الترجمات العربية. و ما كان الغرب ليعرف شيئاً عن اليونان لولا ابن رشد الذي مات حزيناً مهجوراً في الغرب»[9].

و لَفَت رينان نظر المستمعين إلى محاضرته أن الفلسفة لاقت الاضطهاد في البلدان التي تدين بدين الإسلام إلى درجة أنه تمَّ منعها في العام ١٢٠٠م. و سرعان ما برز الأتراك على المسرح حيث طمسوا كل ما يتعلق بالفلسفة والعلم.

و هنا يصل رينان إلى طرح سؤال آخر، و هو إن دلَّ على شيء فانّما يدل على أن هذا الرجل كان يضمر موقفاً مسبقاً، سلبياً في جوهره و مضمونه، إزاء العرب و حضارتهم. فهو يتساءل: «هلَ العلم العربي، عربيٌّ بالفعل؟».

و الجواب الذي قدمه رينان ينطوي على كثير من المغالطات، إذ أنه يقول في الشق الأول من جوابه بأن الفتوحات الإسلامية فرضت (!) اللغة العربية

---

٩. المصدر السابق، ص ٥٣.

على البلدان المفتوحة. أما الشق الثاني من الجواب فينكر فيه على فلاسفةٍ من مثل ابن رشد و ابن سينا أن يكونوا عرباً، و ذلک على الرغم من أنهم كتبوا بلغة العرب. و على هذا فإن اللغة التي يستخدمها الفيلسوف أو العالم في كتاباته لا تكفي لنسبته إلى جنسية معينة. فأساسُ هذه النسبة هي الجنس و الموطن الأصلي و يذهب رينان إلى اعتبار الكندي هوالوحيد الذي يمكن أن نطلق عليه لقب «الفيلسوف العربي» على حين أن ما تبقى من أولئک الفلاسفة المنسوبين، خطأً، إلى العرب، إما من فارس أو من آسيا الوسطى أو من إسبانيا «و هؤلاء لم يكونوا عرباً في دمهم و لاكانوا عرباً في روحهم، بل إن اللغة العربية لم تصلح للميتافيزيقيا، و كان فلاسفة العرب عموماً، كتاباً غير لامعي الأسلوب في العربية»[10].

و انطلاقاً من موقفه المسبق إزاء العرب و المسلمين يتساءل ما إذا كان هذا العلم إسلامياً بعد أن (أكد) على عدم عروبته (ولكن دون أن يقنع أحداً و حتى من الفرنسيين أنفسهم كما سنرى بعد حين). و جواب رينان، في هذا الاطار، يمكن أن نلخصه على الوجه التالي: فالإسلام، بما هو روحيّ و زمنيّ، فرض سلطته على العلوم و الفلسفة، و كانت الاثنتان مضطهدتيْن في ظله. لكنه يميز بين فترتين في تاريخ الإسلام: تمتد الأولى منذ ظهور الدعوة الاِسلامية و حتى نهاية القرن الثاني عشر ميلادي. و قد شهدت هذه الفترة ازدهاراً على صعيد الفلسفة و العلوم و المعارف الأخرى. لكن هذا الازدهار جاء على يد الفرق و الشّيع المختلفة، و أيضاً على يد المعتزلة الذين كانوا يمثلون في ذلک الوقت نزعة إصلاحية (پروتستنتية).

أما الفترة الثانية فتمتد من بداية القرن الثالث عشر حتى الوقت الحاضر (أي منتصف القرن التاسع عشر) حيث ساد الحكم المطلق للاسلام فطمس ما عداه انطلاقاً من أنه يمثل في المجتمعات التي دانَت به كلاًّ من السلطتين الروحية و الزمنية. و هذه الفقرة من حديثه يختتمها رينان بالقول: «... وحكم العقيدة الجامدة (!) هو أثقل قيد عرفته البشرية»[11].

و لعل هذا التمييز الذي لاحظه رينان في تاريخ الإسلام حيث انْتَصَفَه إلى

---

۱۰. المصدر السابق، ص ۵۲.

۱۱. المصدر السابق، ص ۵۳.

نصفين، نصف مؤيد للعلوم و الفلسفة و نصفٍ آخر مضطهِدٍ لهـا، إن هـذا التمييز لجهة التاريخ يُتبعه بتمييز آخر يتعلق بالاسلام نفسه. فالاسلام إبان عصوره الأولى كان ضعيفاً و غير متماسك، و من أجل ذلك فـقد أبـدى تسامحاً إزاء المعارف المختلفة و من بينها العلم و الفسلفة. هـذا مـا كـان في العصور الوسطى و ما قبلها. أما عندما اشتد ساعده و أصبح متماسكاً في بُنيته و في دولته، فقد لجأ إلى اضطهاد هذه المعارف و الحد من نشاطها.

* * *

هذا موجزٌ ما قاله رينان في محاضرته، بل أهم ما قاله. و لعل نظرة ممعنة في مضمون هذه المحاضرة تجعلنا وجهاً لوجه مع عدد من الحقائق. أولى هذه الحقائق أن أرنست رينان يعتبر رمزاً لتيارٍ فكريّ انتشر في فرنسا و الغرب إبان القرن الماضي. أما مضمون هذا التيار فهو التمييز بين الأمم و الشعوب على أساس عرقيّ. و هذا ما يبدو واضحاً في تمييزه بين الفرس (الآريـين) القادرين على أن ينهضوا بأمور العلم و الفلسفة، و بين العرب (الساميين) الذين لم يمنّ عليهم اللّه بهذه النعمة!

ثاني هذه الحقائق أن رينان يطلق لقب الملاحدة على أناس لاينطبق عليهم في أي حال من الأحوال. و على الرغم من المعنى المجازي لهذه الكلمة فإن أرنست رينان تسرّع كثيراً في استخدامها لأنها تشير إلى أناسٍ يحملون أفكاراً تتناقض مع الدين الأمر الذي لاينطبق لا على ابن رشد و لا على ابن سينا أو الأفغاني. و هذا دليل، من بين أدلة أخرى، على أن رينان غير مطّلع بما فيه الكفاية على الفكر الفلسفي لكلٍّ من هؤلاء، علماً أن هؤلاء الثلاثة انطلقوا في عملية التفلسف من الخلفية التي أمّنها لهم الدين الإسلامي. و لابد أن نذكر في هذا المجال المجهود الفذ الذي بذله ابن رشد للتوفيق فيما بين الدين و الفلسفة و البرهنة على عدم تعارضهما، و ذلک في دراسته الشهيرة بعنوان: «فصل المقال فيما بين الحكمة و الشريعة مَن اتصال»[١٢]. و لعلنا لانـغلو في القول أن التيار الذي أسّس له ابن رشد، و هو تيار التوفيق بين الديـن و

١٢. راجع هذا الكتاب و الدراسة المرفقة به للدكتور محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ م، ١٠٢ صفحة.

الفلسفة أوبين الحكمة و الشريعة، لايزال مفعوله سارياً إلى الآن في بعض الأدبيات الفلسفية المعاصرة.

ثالث هذه الحقائق أن اضطهاد الفلسفة و العلم في البقعة العربية الإسلامية لم يأتِ نتيجة علةٍ في الإسلام نفسه، مثا صوّرها لنا أرنست رينان (و هو ينطلق هنا من رأيٍ جاهزٍ و مسبق و معادٍ لأي دين بوصفه خصماً ومنكّلاً بالفلسفة، و ذلك انطلاقاً مما حل بالفلسفة الأوروبية على يد الكنيسة) و إنما في السلطة السياسية، في فترات تاريخية معينة؛ و هي التي نكّلت بالفلسفة و العلم حفاظاً على مصالحها لاعلى مصالح الاسلام. و هنا لابدّ من رؤية خللٍ آخر في محاضرة رينان. فهو لم يرجع إلى النصوص الإسلامية الرسمية (من قرآنٍ و حديث) لمعرفة ما إذاكانت تحض على العلم و حرية التفكير أم لا. بل إن رينان استسهل الأمر و بنى حديثه على فترات في التاريخ الاسلامي شهدت ضموراً في الخطاب العلمي و الفلسفي، و على هذا فقد تناسى الأساسي و الثابت وركّز على المتغير و المتحول.

رابع هذه الحقائق أن أرنست رينان اعتبر في محاضرته أن العلم في تاريخ المسلمين لم يزدهر إلاّ على يد الفرق و الشيع (و على يد النزعة البروتستنتية المتمثلة بالمعتزلة). و كأنّا به يريد أن يقول بأن مثل هذه الأمور، من فلسفة ومعارف و إصلاح ديني، يعود الفضل فيها إلى تلك الفرق التي ظهرت وعاشت في كنف الاسلام. و هي، مثلما نعرف، فرقٌ ذات جذور و خلفيات غير عربية. و هذا تأكيد مرة أخرى على نظرته العرقية و ذلك في تمييزه بين العرق السامي و العرق الآري.

رَدّ الأفغَاني علَى رينَان

على أي حال فإن الصدى الذي أحدثته محاضرة أرنست رينان عن «الإسلام و العلم» كان كبيراً جداً سواء وسط المثقفين الفرنسيين أم بين الكتاب و المثقفين العرب و المسلمين المتواجدين، آنذاك، في العاصمة الفرنسية. والحقيقة أن الأفغاني لم يعلم بأمر المحاضرة إلاّ بعد أيام عديدة. فقد لَفَت انتباهه مقال في جريدة «البصير» كتبه أحد الفرنسيين الجزائريين

وفيه ردّ عنيف على رينان. و هذا الردّ الذي يقول الأفغاني عن كاتبه بأنه «أحد أفاضل الفرنسيس الجزائريين» و قد كتبه حرصاً على المصالح الفرنسية في الجزائر، حمل جمال الدين على الرد عليه في مقال نشرته «البصير». و حمل المقال نفس العنوان الذي اختاره رينان لمحاضرته و هو «الاسلام و العلم»، و قد افتتحه بالآية القرآنية الكريمة: (فاعتبروا يا أولي الألباب).

قال الأفغاني في مطلع مقاله: «إن رينان الفيلسوف قد ألق في باريس، كرسي الحرية، خطاباً (محاضرة) جعل موضوعه الاسلام و العلم، و أظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. و ما حادَ في خطابه عن سنَّة الأدب، و ما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي به وجوب احترام الأمم في ما تنتحله ديناً».

بعد هذه الكلمات المجامِلة دخل الافغاني صلب الموضوع مبيّناً أن «عظماء الأمة الفرنسوية» ممتعضون جداً من (الخطاب) الذي ألقاه رينان في السوربون. و يبدو أن مقالة الشخص الفرنسي الجزائري في جريدة «البصير» ـ و هي التي لفتت انتباهه إلى محاضرة رينان ـ قد أثلجت صدره إذ استطاع أن يفنّد هفوات رينان «و أقام الأدلة على سقطاته، وذاد عن الديانة الإسلامية، و دافع عن المسلمين، و أبانَ ماكانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب و الفلسفة. ما دعاه إلى مقالته هذه إلاّ فضيلة مراعاة الأمم في أديانها و حسن السياسة».

و في هذا المقال إلى جريدة البصير (عدد ٣ أيار ١٨٨٣ م) عقد الأفغاني نوعاً من المقارنة بين الفرنسيين أصحاب السياسة الدينية المتسامحة، و بين الإنكليز الذين يتحكمون برقاب خمسين مليوناً من المسلمين و قد أفلتوا عليهم القسس البروتستانت دون أن يمكّنوهم من الدفاع عن دينهم.

و إذ لم تكن لغته الفرنسية تسعفه على قراءة محاضرة رينان و فهم مصطلحاتها الفلسفية و الدينية طالب جمال‌الدين بترجمتها. و بعد أن تحقق له ذلك و اطّلع على المحاضرة بنصها العربي كتب رداً مسهباً مفنّداً فيه مزاعم رينان و مبيّناً أخطاءه التاريخية و الدينية، و هي أخطاء لاتعد. لكن الأقدار السوداء كانت تتربص بالأفغاني مرةً أخرى. فقد أقنعه صديقه

خليل غانم، مدير تحرير الـ «جورنال دي ديبا» (وكـان أرنست ريـنان واحداً من كتابها)، بنشر الرد في جريدته. و هكذا اضطر جمال الدين لدفعه إلى الترجمة و بيد خليل غانم نفسه. لكن النص الفرنسي للرد جاء غـريباً ومختلفاً كلياً عن النص العربي، بل جاء و كأنه يؤيد ـ و هذا ليس من طبيعة الرد، أي رد ـ أقوال رينان و مزاعمه. علماً أن النص العربي للرد اختنق في أدراج الـ «جورنال دي ديبا» ولايزال مختفياً إلى الآن.

و على هذا الأساس فنحن لانملك اليوم سوى النص الفرنسي المنشور في الـ«جورنال دي ديبا» بتاريخ ١٨ أيار ١٨٨٣ م، و هو النص الذي كان سبباً لحملة واسعة من التجني على جمال الدين الأفغاني. و قبل أن نورد عدداً من ردود الفعل على هذه المقالة / الرد، في العالم الإسلامي، و قبل أن نبين بعض مواطن الخلل فيها نرى أن نقتطف أبرز ماجاء فيها:

رَدّ الأفغاني عَلَى رينَان

«الإسلام و العِلم»

[سيدي[1]،

طالعت في عـدد ٢٩ آذار (مـارس) المـاضي مـن جـريدتكم الغـراء خـطاباً (محاضرة) عن الإسلام و العلم ألقاه في السوربون، على جمع من الفـضلاء، أكـبر فيلسوف في زماننا مسيو رينان الذائع الصيت الذي طبّقت شهرته أرجاء الغرب و نفذت إلى أقصى أصقاع الشرق.

و لما كان هذا الخطاب قد أوحى إلي ببعض الملاحظات، فقد أجزت لنفسي أن أصوغها في هذه الرسالة التي يشرفني أن أوجهها إليكم، راجياً التكرم بإدراجها في أعمدة جريدتكم.

لقد أراد مسيو رينان أن يجلو نقطة ظلت مغمورة حتى اليوم في تاريخ العـرب، وأن يلقي ضوءاً ساطعاً على ماضيهم قد يزعج أولئك الذين يحملون إعجاباً خالصاً لهذه الأمة التي لايمكن الزعم أنها اغتصبت ماسبق أن احتلته في العالم من مكانة و

---

١. آخر ترجمة لرد الأفغاني على رينان عن الأصل الفرنسي أنجزها الدكتور علي شلش. و قد اعتمدناها هنا ظناً منا أنها الترجمة الأدق؟!

رتبة. بل إن مسيو رينان لم يَسْعَ قيد شعرة، في اعتقادنا، إلى هدم مجد العرب الذي لايهدم، و إنما اجتهد في اكتشاف الحقيقة التاريخية و التعريف بها لمن يجهلها، وكذلك لمن يدرس أثر الأديان في تاريخ الأمم، خصوصاً ماهو متعلق بالمدينة.

و أسارع فأعترف بأن مسيو رينان أبلى أروع البلاء في هذه المهمة الشاقة حين أورد بعض الحقائق التي لم يفطن لها أحد حتى اليوم. وأجد في خطابه ملاحظات رائعة ولمحات جديدة و سحراً لايوصف. و مع ذلك فليس أمامي سوى ترجمة أمينة تقريباً لهذا الخطاب. ولوكنت أملك أن أطالعه في نصه الفرنسي، لاستطعت سبر أغوار أفكار هذا الفيلسوف الكبير على نحو أفضل. فإليه أزف تحيتي المتواضعة علامة الاجلال الذي هو أهله، و تعبيراً خالصاً عن إعجابي. و أقول له في مثل هذه الأحوال، في النهاية، ماقاله المتنبي، الشاعر الذي كان يهوى الفلسفة، في شخصية رفيعة المقام، مادحاً أعمالها قبل قرون:

خُذْمن ثنايَ عليک ما أستطيعهُ　　　لاتــلزمني في الثناء الواجبا[1]

لقد اشتمل خطاب مسيو رينان على نقطتين أساسيتين. فقد اجتهد الفيلسوف الأشهر في بيان أن الديانة الإسلامية معادية في جوهرها لتطور العلم، و أن الأمة العربية لاتميل بطبيعتها إلى علم ماوراء الطبيعة ولا إلى الفلسفة. و لعل مسيو رينان يريد أن يقول أن هذا الغرس النفيس قد ذوى على يدها، كأنما صوّحه هبوب الريح في الصحراء. لكن المرء لا يملک، بعد مطالعة هذا الخطاب إلاّ أن يتساءل: هل صدرت هذه العوائق عن الديانة الاسلامية ذاتها فانفردت بها، أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الامم التي اعتنقت هذه الديانة و أخلاقها و استعداداتها، أم عن الأمم التي أُكرِهت على اعتناقها[2]؟

---

١. هذا البيت من قصيدة للمتنبي يمدح فيها علي بن منصور الحاجب، و يقول مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا　　　اللابسات من الحرير جلابيا

٢. لعل هذه العبارة الواقعة في الشق الأخير من السؤال تقوم دليلاً على أن رد الأفغاني على رينان قد نُشر في ←

لاشک أن ضيق الوقت هو الذي حالَ بين مسيو رينان و بين توضيح هذه النقاط. لكن الضرر هنا ليس بالكثير. و إذا كان من الصعب تحديد العلل (الأسباب) بطريقة دقيقة و براهين لاتقبل الجدل، فن الأصعب أيضاً الإشارة إلى الدواء.

أما في ما يتعلق بالنقطة الأولى، فأقول أنه لا توجد أمة قادرة، عند نشأتها، على الاهتداء بالعقل الخالص. فالأمة التي في مثل هذا الطور تنتابها مخاوف لاتستطيع الفكاک منها، فتعجز عن تمييز الخير من الشر و معرفة ما يكون سبب سعادتها مما قد يكون المصدر الثابت لتعاستها وشقائها، و بذلک لاتدري باختصار كيف تكشف عن العلل (الأسباب) أو تفطن إلى المعلولات (النتائج).

والوقوع في هذه الهوة يعني أنه لا يمكن إنقاذ الضحية بالإكراه أو بالإقناع، ومساعدتها على ممارسة الأعمال التي قد تفيدها أو تفادي ما يضرها. و من ثمة كان لابد للبشر من أن يبحثوا خارج حدودهم عن ملاذ أوركنٍ هادیء يهجع إليه ضميرهم المعذب. و هذا ما استوجب ظهور معلم أو أشبه لم يكن يملک ـ كما ذكرت آنفاً ـ السلطة اللازمة لإكراههم على اتباع وحي العقل، فقذفهم داخل المجهول، وفتح لهم آفاقاً شاسعة سَعُد بها خيالهم، ووجدوا فيها على الأقل أرضاً غير محدودة لتطلعاتهم إن لم يكونوا قد وجدوا الإشباع الكامل لرغباتهم. و لما كان البشر، عند نشأتهم، لايدركون علل الحوادث التي تقع تحت أبصارهم، وكذلک أسرار الأمور، فقد انقادوا بحكم الظروف إلى اتباع نصح معلميهم و تنفيذ أوامرهم. و تم فرض هذه الطاعة باسم الكائن الأسمى الذي نَسَب إليه المعلمون جميع الحوادث دون أن يسمحوا للناس بمناقشة نفعها أو أذاها. و هذه بالنسبة للإنسان، أثقل و أذل عبوديةً في ما أعرف. لكني لا أستطيع إنكار أن جميع الأمم ما خرجت من حال الهمجية إلاّ بهذه التربية الدينية، سواء أكانت إسلامية أو مسيحيةِ أو وثنية، و ما زحفت نحو مدنيةٍ أكثر تقدماً إلاّ بها.

الفرنسية مشوهاً إذ لايُعقل أن تكون هذه العبارة قد صدرت عن مفكر من وزن الأفغاني الذي يعرف أن أحد أهم المباديء التي انتشر الاسلام على أساسها هو أن (لاإكراه في الدين).

و إذا صحّ أن الديانة الاسلامية تشكل عقبة أمام تطور العلوم، فهل يمكن الجزم بأن هذه العقبة لن تزول يوماً ما؟ بمَ تختلف الديانة الإسلامية في هذه النقطة عن بقية الديانات؟ إن جميع الديانات لاتخلو من التعصب[١]، و لكلٍ منها طريقتها الخاصة في ذلک. فالديانة المسيحية، أعني الجماعة التي تتبع أفكارها و تعاليمها الموحاة وتتشكل على صورتها، خرجت من الطور الأول الذي ألمَحْت إليه قبل قليل، وصارت حرة و مستقلة، تخطو بسرعة على طريق التقدم و العلوم. في حين أن الجماعة الإسلامية لم تتخلص بعد من وصاية الدين. و مع ذلک إذا تذكرنا أن الديانة المسيحية سبقت الديانة الإسلامية في العالم بقرون عدة، فإني لا أنفک أرجو أن تنجح الجماعة المحمدية يوماً ما في تحطيم قيودها(!) و السير بعزم على طريق المدنية، مقتفية خطى الجماعة الغربية التي لم تشكل لها العقيدة المسيحية أي عقبة كؤود على الإطلاق على رغم مما في هذه العقيدة من ألوان القسوة و التعصب (...) و لم ينزع رؤساء الكنيسة الكاثوليكية الموقرون أسلحتهم بعد في ما أعلم. فا برحوا يحاربون بلا هوادة ما يسمّونه روح الضلال و الخطأ. و إني لمدركٌ جميع الصعاب التي سيكون على المسلمين تخطيها في سبيل تحقيق الدرجة نفسها من المدنية، و التوصل إلى الحقيقة بمساعدة الأدوات والطرائق الفلسفية و العلمية.

(...) و أعرف أيضاً أن ذلک الطفل المسلم و العربي الذي يرسم مسيو رينان صورته بكلمات نابضة و الذي يصبح في وقت لاحق، كما يقول، «متعصباً مزهواً بحيازة ما يعتقد أنه الحقيقة الكاملة»، إنما ينتمي إلى جنس ترک آثار خطاه في الدنيا، لابالنار والدم و حدهما، و لكن بأعمال فذة و خصبة تدل على تذوقه للعلوم، كل العلوم، بما فيها الفلسفة التي يجب أن أعترف بأنه عجز طويلاً عن تدبير شؤونها.

---

١. هذا رأي لا علاقة للأفغاني به كما نعتقد، إذ أن المطّلع الجيد على أفكاره يعرف أنه يقف ضداً لهذا الرأي جملة وتفصيلاً. فهو ينبذ التعصب و يعتبره آفة كبيرة. كما أن الديانات كافة عنده براءٌ من آفة التعصب. و نرجح أن الأفغاني أراد أن ينعت بالتعصب أصحاب هذه الديانات لا الديانات نفسها.

عند هذا الحد أصل إلى الحديث عن النقطة الثانية التي تناولها مسيو رينان. فلاأحد ينكر أن الأمة العربية هرعت إلى طريق التقدم الفكري و العلمي بسرعة لا تعادلها إلاّ سرعة فتوحاتها. فعلى مدى قرن من الزمن اكتسبت واستوعبت معظم العلوم التي كانت عند الإغريق و الفرس، و التي طوروها تدريجاً خلال قرون على أراضيهم في الوقت الذي مدَّت (هذهالأمة) سيطرتها على شبه الجزيرة العربية إلى جبال الهملايا وقمة جبال البرانيس.

لعلي أقول إن العلوم، خلال تلك الفترة كلها، حققت بغيرشك، تقدماً مدهشاً عند العرب، في جميع الأقطار الواقعة تحت سيطرتهم. و كانت روما و بيزنطية عند ذاك مقر علوم اللاهوت و الفلسفة و المركز المشرق الوهاج للمعارف البشرية كلها. و كان الإغريق و الرومان سلكوا سبيل المدنية طوال قرون و ساروا واثقين مطمئنين على أرض العلم و الفلسفة الشاسعة. و مع ذلك جاء عليهم حين من الدهر أُهمِلت فيه بحوثهم و قُطعت دراساتهم و سقطت آثارهم التي أقاموها شاهداً على العلم، و طوى النسيان مؤلفاتهم القيمة. لكن العرب تبنوا ما أهملته الأمم المتمدنة وأضرموا، من جديد، نار العلوم المطفأة و طوروها و أضفوا عليها تألقاً لم تتمتع به من قبل. أَوَليس هذا علامةً و برهاناً على حبهم الفطري للعلوم؟ صحيح أن العرب أخذو عن الإغريق فلسفتهم مثلما جردوا الفرس مما اشتُهروا به خلال العصور القديمة. لكن هذه العلوم (...) تطورت على أيديهم و توسَّعت و توضحت و كملت واكتملت و تناسقت بذوق سليم و بدقةٍ و ضبطٍ نادَرين.

أما الباقون، مثل الانكليز و الألمان، فلم يكونوا بعيدين عن روما و بيزنطية بمقدار بُعد العرب عنهما يوم كانت حاضرة هؤلاء بغداد. و كان من الأيسر على أولئك (الأوروبيين)، و الحال هذه، أن يستغلوا الكنوزَ العلمية التي دُفنت في هاتين المدينتين العظيمتين[١]. بيد أنهم لم يبذلوا أي جهد في هذا الاتجاه، حتى جاءت المدنية

١. فاتَ المترجم لنص الأفغاني أن روما و بيزنطية ليستا مدينتين. فنحن نقرّه بأن الأولى كانت بالفعل مدينة ←

العربية فأضاءت بأنوارها ذرى جبال البرانيس، و صبت على الغرب سناها وغناها. و رحب الأوروبيون بأرسطو الذي كان قد هاجر و صار عربياً، لكنهم لم يفكروا فيه على الإطلاق يوم كان يونانياً و جاراً لهم. أوَليس هذا برهاناً آخر لا يقل نصوعاً، على التفوق الفكري عند العرب و ارتباطهم الفطري بالفلسفة؟

و الحق أنه بعد سقوط المملكة العربية في المشرق و المغرب سقطت الأقطار التي كانت قد صارت مراكز كبيرة للعلم، مثل العراق و الأندلس، فريسة للجهل مرةً أخرى، و أصبحت مراكز للتعصب الديني. لكن المرء لايمكن أن يستخلص من هذه الصورة المحزنة سوى أن التقدم العلمي و الفلسفي في العصور الوسطى كان مصدره الأمة العربية التي سادت في ذلك الزمن.

إن مسيو رينان ينصف العرب في هذا. فهو يعترف بأنهم حافظوا على مشعل العلم و صانوه طوال قرون. فيا لها من رسالة نبيلة لأمة من الأمم. غير أنه في الوقت الذي يسلِّم بأن الأقطار الإسلامية شهدت علماء و مفكرين نابهين للغاية منذ العام ۷۷۵ تقريباً حتى قبيل منتصف القرن الثالث عشر، أي خلال نحو ۵۰۰ سنة، و يسلِّم أيضاً بأن العالم الإسلامي كان خلال تلك الفترة متفوقاً في الثقافة العقلية على العالم المسيحي، إذا به يقول أن فلاسفة القرون الأولى من تاريخ الإسلام، و كذلك رجال الدولة، كانوا في معظمهم من حران و الأندلس و إيران. و لقد كان من بينهم أيضاً رجالٌ من أبناء ماوراءالنهر (أي كازخستان و تركستان)، و أحبار من نصارى الشام. ولست أبغي أن أغمط علماء الفرس حقهم من السجايا العظيمة، و لا أن أقلِّل من الدور الذي لعبوه في العالم العربي. و لكن لابد من أن أقول أن الحرانيين كانوا عرباً، و أن العرب لم يفقدوا جنسيتهم (قوميتهم) حين احتلوا إسبانيا و الأندلس بال

على حين كانت الثانية (أي بيزنطية) إمبراطورية عاصمتها القسطنطينية. و إذا كان قد فات المترجم هذا الأمر فنحن نستبعد أن يفوت الأفغاني. و هذا دليل آخر على خلل الترجمة.

ظلوا عرباً. و قد كانت العربية لغة الحرانيين قبل قرون من ظهور الاسلام. أما كونهم احتفظوا بديانتهم السابقة، و هي الصابئية، فلا يعني أن نعدهم غرباء عن الجنسية العربية، بل إن أحبار الشام أيضاً كانوا، في معظمهم، عرباً غساسنة اعتنقوا المسيحية.

و أما فيما يتعلق بابن ماجة و ابن رشد و ابن طفيل فلا يمكن القول أنهم أقل عروبةً من الكندي لأنهم لم يولدوا في الجزيرة العربية، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن الأجناس البشرية لاتتميز بلغاتها، و أنه إذا اختفى هذا التمييز فلن يطول الزمن بالأمم حتى تنسى أصولها المتعددة. فالعرب الذين تكاتفوا في خدمة الديانة الاسلامية، و كانوا في الوقت ذاته من المقاتلين و الصحابة، لم يفرضوا لغتهم على المغلوبين، و إنما حافظوا عليها لأنفسهم، و فعلوا ذلك بعنايةٍ غيور في كل مكان حلوا به وثبتوا أقدامهم فيه. ولاشك أن الاسلام غرس لغته و أخلاقه و مذهبه في الأقطار التي تغلغل فيها بالفتح ذي العنف المعروف. و منذ ذلك الحين لم تستطع هذه الأقطار أن تتقي أثره. و إيران مثال على ماتقول. و لكن إذا عدنا إلى القرون التي سبقت ظهور الاسلام، لأمكن أن نجد اللغة العربية غير مجهولة تماماً عند العلماء الفرس. و الحق أن توسع الاسلام أتاح لها مجالاً جديداً ورأى العلماء الفرس الذين اعتنقوا العقيدة المحمدية الشرف في أن يؤلفوا كتبهم بلغة القرآن.

ولاشك أن العرب لايستطيعون أن يدعوا لأنفسهم المجد الذي جعل هؤلاء الكتاب لامعين. لكننا نعتقد أنهم ليسوا في حاجة إلى مثل هذا الادعاء. فعندهم مايكفيهم من العلماء و الأدباء المشهورين. و ماذا يحدث لوعدنا إلى العهود الأولى للسيطرة العربية و تتبعنا، خطوة فخطوة، أول مجموعة شكلت هذه الأمة الفاتحة التي بسطت سلطانها على الدنيا، و استبعدنا كل ما هو غريب عن هذه المجموعة أو المتحدرين منها، و لم نضع في حسباننا الأثر الذي أحدثته في العقول و لا الحافز الذي أتاحته للعلوم؟ ألا يؤدي بنا هذا، إذاً، إلى عدم الاعتراف للأمم الفاتحة بسجايا و مزايا غير تلك التي تنشأ عن الحقيقة المادية المتمثلة في الفتح؟ لو اتبعنا

هذه الطريقة لاستعادت جميع الأمم المغلوبة استقلالها المعنوي الذاتي، و نسبت إلى نفسها كل الجد، و لم يبقَ للقوة التي احتضنت بذوره و طوّرتها حق شرعي في ادعاء أي نتفةٍ منه.

بهذا المنطق ستقول إيطاليا لفرنسا أنه لامازاران و لا بونابرت[١] ينتميان إليها، وسوف تطالب ألمانيا أو إنكلترا، بدورهما، بالعلماء الذين رحلوا عنهما إلى فرنسا وجعلوا كراسي الأستاذية فيها لامعة و زادوا تألق شهرتها العلمية. و سوف يطالب الفرنسيون، من جانبهم، بمجد أبناء تلك الأسر الشهيرة التي هاجرت إلى جميع أنحاء أوروبا عقب صدور مرسوم «نانت»[٢]. و إذا أمكن الادعاء بأن الأوروبيين جميعاً ينتمون إلى سلالة واحدة لأمكن الادعاء، عن عدل، بأن الحرانيين و الشاميين ـ و هم ساميون ـ ينتمون، على قدم المساواة، إلى الأسرة العربية الكبيرة.

غير أنه يحق للمرء أن يتساءل عن سر اندثار المدنّية العربيّة فجأة بعد أن ألقت نوراً باهراً كهذا على الدنيا، و كيف لم تُضأ هذه الشعلة منذ ذلك اليوم، و لماذا يعيش العالم العربي مدفوناً على الدوام في ظلمات حالكة؟

و هنا تتجلى مسؤولية الديانة الاسلامية كاملة (!). فمن الواضح أنه حيثما استقر لها الأمر سعت إلى طمس العلوم. ويروي السيوطي أن الخليفة الهادي[٣] أمر بقتل خمسة آلاف فيلسوف (!) في بغداد حتى يستأصل بذرة العلوم في الأقطار الاسلامية. و إذا سلّمنا بأن هذا المؤرخ بالغ في تقدير عدد الضحايا، فحكمه على

---

١. يقصد الأفغاني جيل مازاران (١٦٠٢ ـ ١٦٦١ م) و قد كان كاردينالاً إيطالياً عينه لويس الرابع عشر وزيراً له و كان الحاكم الفعلي، في فرنسا على مدى فترة طويلة.

و نابليون بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) إمبراطور فرنسا، و هو من أصل إيطالي و من كورسيكا بالتحديد.

٢. هو المرسوم الصادر في العام ١٥٩٨ م. و قد أصدره في ذلك العام هنري الرابع ملك فرنسا و سمح من خلاله بحرية العبادة للبروتستانت في فرنسا. و بعد قرابة التسعين عاماً أي في العام ١٦٨٥ م عدّل الملك لويس الرابع عشر هذا المرسوم، الشيء الذي حمل عشرات الألوف من الفرنسيين البروتستانت على الهرب إلى خارج البلاد و خاصة إلى إنكلترا.

٣. هل الخليفه الهادي و امثاله في التاريخ الاسلامي هو «الديانة الاسلاميه كاملة»؟

وقوع الاضطهاد يبق صحيحاً على الأقل. و هذه وصمة ملطخة بالدم في تاريخ الديانة و تاريخ الأمة سواء بسواء (!) و أستطيع أن أجد في ماضي الديانة المسيحية حقائق مشابهة. فالديانات كلها متشابهة، أياًكان الاسم الذي تُعَرف به. وليس من الممكن تحقيق الاتفاق و لا المصالحة بين هذه الديانات و الفلسفة. فالديانة (تفرض) على الانسان تحريراً عقيدتها و اعتقادها، في حين أن الفلسفة تحرره من ذلک كاملاً أو جزئياً. فكيف إذاً يرجو المرء أن يحل الاتفاق بينهما؟

حين دخلت الديانة المسيحية، في أشد صورها تواضعاً و إغواءً، أثينا والإسكندرية اللتين كانتا كما يعرف الجميع، المركزين الأساسيين للعلم و الفلسفة، وبعد ما ثبتت قدميها في هاتين المدينتين، كان همها الأول أن تقصي العلم و الفلسفة الحقيقيين. فسعت إلى خنق هذا و تلک تحت الأشجار التي أظلّت المناقشات اللاهوتية، من أجل تفسير الأسرار التي لايمكن تفسيرها في ما يتعلق بالتثليث و التجسد و الاستحالة[1]. و هكذا الحال دائماً. فكلما كانت اليد العليا للديانة، انقرضت الفلسفة. و يحدث العكس حين تحكم الفسلفة و تسود.

و ما بقي البشر على قيد الحياة فلن يتوقف الصراع بين الجمود (!) و البحث الحر. و هو صراع بائس أخشى ألايكون النصر فيه للفكر الحر لأن العامّة تكره العقل الذي لايفقه تعاليمه إلاّ بعض الأذكياء من الخاصة، و لأن العلم أيضاً، بالرغم من جماله، لايُدخِل الاشباع الكامل على البشر الذين يتعطّشون إلى المثل العليا و ينزعون إلى الغرْس في المناطق المظلمة النائية... و هذه لايملک الفلاسفة و العلماء أن يدركوها و لا أن يرتادوها.][2]

---

١. التثليث، لدى المسيحيين، هو الاعتقاد أن اللّه واحد ذو أقانيم ثلاثة: الأب والابن و الروح القدس. والتجسد هو اتحاد الطبيعتين الإلهية و الإنسانية في يسوع المسيح. و الاستحالة هي تحوُّل الخبز و الخمر في المناولة إلى جسد المسيح و دمه (انظر: علي شلش، مصدر مذكور، ص ٦٦).

٢. ترجمة مفترضة:

→

۲. ترجمة مفروضة:

إن نظرةً متأنية إلى رد الافغاني على رينان تحملنا على الاقتناع بأن ثمة مكيدةً أخرى تعرَّض لها الرجل في باريس (كرسي الحرية). و لسنا نستبعد بأن تكون إدارة التحرير في صحيفة الـ«جورنال دي ديبا» هي وراء المكيدة. و إلاّ لماذا لم يُسمح للأفغاني بتوضيح موقفه بعد نشر الرد محرّفاً و مشوهاً و قد تعرض للحذف و الاضافة و هما الشيئان اللذان كان الأفغاني يشكو منهما الأمر الذي حمل جريدة الـ«انترانزيجان» ـ و هي الجريدة التي انتقل الأفغاني للكتابة فيها بعد امتعاضه مما حصل له مع الـ«جورنال دي ديبا» ـ... مما حملها على تصدير مقالته المسلسلة حول المهدي (بتاريخ ۸ و ۱۱ و ۱۷ كانون الأول ۱۸۸۳ م) بالقول أنها «تنشر هذه الدراسة كما هي دون إضافة أوحذف»؟!

ولعل الشيء الذي يجعلنا على قناعة تامة بأن جمال الدين، و نظراً إلى تأثيره المتفاقم في البلدان الاسلامية وصوته المسموع داخل الحركات السياسية في هذه البلدان، كانت تتربص به الأقدار السوداء في باريس مثلما تربصت به في مصر و إيران و الهند و الآستانة. فالمطلوب إزالة هذا الرجل، كوجود سياسي و معنوي، و ذلك لايتم إلاّ بتسويد صفحته بين المسلمين. و جمال الدين، صاحب التاريخ السياسي المبني على الأيديولوجيا الاسلامية و قد ذهب إلى باريس لُقربها من الشرق و كيما يساهم في نهضة المسلمين و يقظتهم ... إن رجلاً هذا شأنه لايمكن أن يوافق أرنست رينان في رأيه عن الإسلام و موقفه من العلم. و قد رأينا كيف تحدث عن هذا الموضوع في مقالته القصيرة المنشورة في جريدة «البصير» عن امتعاض و غضب «عظماء الأمة الفرنسوية» مما جاء على لسان رينان بخصوص الإسلام... فكيف عن امتعاضه و غضبه هو بنفسه!

إن الأفغاني، و هو الذي عُرف بطيبته و نبله و ثقته بالآخرين، وضع النص العربي للرد في عهدة (صديقه) خليل غانم، فكان أن حُذفت أشياء و أُضيفت أشياء و حُرِّفت أشياء و أشياء. و كل ذلک من أجل قطع الصلة بين الأفغاني و بين المسلمين و هو الذي اصبح ـ بعد الرد على رينان ـ متهماً بأنه طعن بالإسلام الذي خنق الفلسفة و العلم.

و لعل قراءة نقدية واعية لرد الأفغاني على رينان، بنصه الفرنسي، ربما أخرجت الكثيرين من الحيرة التي تخبطوا فيها طويلاً. فالأفغاني يتساءل في مطلع رده على رينان قائلاً: «هل صدرت هذه العوائق (المعادية للعلم بنظر رينان) عن الديانة الاسلامية ذاتها فانفردت بها أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الأمم التي اعتنقتها و أخلاقها و استعداداتها أم عن الأمم التي أكرهت على اعتناقها؟

إن الملفت في هذا التساؤل و قد طرحه رينان و لم يُجب عليه من أجل تعميق الشک في النفوس، هو أن الأفغاني أيضاً طرحه في سياق تفنيد أقوال رينان و مزاعمه لكنه أيضاً، لم يقدم جواباً. فكيف يكون الرد إذن و ما عسى يكون معناه مالم يقدم أجوبة عن الأسئلة المطروحة علماً بأن الأفغاني كان بإمكانه، و استناداً إلى النصوص الإسلامية الرسمية من قرآنٍ و حديث، تقديم جواب كافٍ و وافٍ و بالشكل الذي يدحض مزاعم رينان. و نحن هنا أمام احتمالين لاثالث لهما: فإما أن الأفغاني لم يطرح هذا التساؤل إطلاقاً في النص العربي (و إلا لكان أجاب عنه) .... و قد أُضيف إلى الترجمة الفرنسية، و إما أن يكون قد أجاب عنه، لكن الجواب حُذف!

ولو افترضنا جدلاً أن الأفغاني طرح هذا التساؤل دون أن يجيب عنه مثلما فعل رينان، و هذا أمر مستبعد، فإنه يوضح لنا نظرة الأفغاني لهذه المشكلة، أي مشكلة الاسلام و العلم. فالأفغاني يفصل بين الإسلام و بين المسلمين، أو بين الديانة و بين معتنقيها. فليست الديانة (الدين) هي التي عوّقت العلم و الفلسفة و منعت ازدهارهما بل إن السبب يعود إلى معتنقي هذه الديانة. أما بالنسبة للبقعة العربية الإسلامية فليست الديانة هي التي عرقلت مسيرة العلم و إنما هم المسلمون أو بعضهم. أما سبب ذلک فهو ليس دينياً بقدرما هو سياسي محض

يتصل بتكريس السلطة السياسية و بترسيخ أقدامها.

و لدينا من الوقائع ما يجعل الترجمة الفرنسية للرد موضع شبهة. فالأفغاني بعد أن نُشر رده مترجماً عرف من طريق أحد المتضلّعين في هذه اللغة ما أصاب مقاله من تحريف و تشويه و ما تضمنه من أخطاء. و يبدو أنه عرف أيضاً بأن إدارة الـ «جورنال دي ديبا» أدارات له ظهر المجن و هي، بالتعاون مع أطراف معينة داخل باريس وخارجها، ترمي إلى تشويه صورته في العالم الإسلامي. و من أجل ذلك أسرع الأفغاني و بعث بنسختين من العدد المنشور فيه ردّه و المؤرخ في ١٨ آيار ١٨٨٣ م إلى تلميذه محمد عبده. و قد أرفق هاتين النسختين برسالة بخط يده يوضح فيها أن الرد على رينان أصابه تشويه كبير و تضمن أخطاء كثيرة. و ظن محمد عبده أن ما يتحدث عنه استاذه من تشويه و أخطاء إنما يتعلق باللغة و بأخطاء مطبعية و هي شيء مألوف في الصحافة، فأوكل ترجمة الرد إلى العربية إلى صديقه حسن بيهم. و بعد أن أنهى هذا الأخير المهمة الموكولة إليه عرف محمد عبده إلى مَ رمى إليه استاذه لجهة التشويه و الأخطاء؟ فَحَمد اللّٰه لأن الرد لم يقع في أيدٍ أخرى و لأنه أوكل الترجمة إلى حسن بيهم صاحب اللسان الدافىء ... و هكذا اندفع المكروه![1] ...

... لقد أخذ محمد رشيد رضا على الحاضر في مقالةٍ له نشرتها «الأهرام» أنه لم يتمكن من تقديم أفكار رينان أو أفكار الأفغاني. كما أنه ارتكز في حديثه عن الأفغاني على ترجمة عربية مأخوذة في الوقت عينه عن ترجمة المانية لرد الأفغاني على رينان. و قد تساءل محمد رشيد رضا ما إذا كان مضمون رد الأفغاني قد حافظ على حاله بعد كثرة النقل من لغة إلى لغة.

واستناداً إلى الشيخ محمد عبده الذي يعرف فكر الافغاني كما لا يعرفه أحد مثله تحدث رضا عن رأي الأخير في الاسلام و علاقته بالعلم، و ذلك في مقال آخر و مطول نشره في مجلة «المنار». و مما قاله: «إن الاسلام دين العقل و الحكمة و الفلسفة الصحيحة، و أنه لولا تأثير هدايته لما انتقل العرب من الأمية إلى أعلى مما كان عليه جميع البشر في كل علم و كل فن و كل نظام و كل عمران، في مدة جيل واحد، حتى سادوا الفرس و الروم والأوروبيين و غيرهم. و هل يعقل أن تلك الشراذم التي خرجت من جزيرة العرب حفاة عراة، لايعرفون من العلم شيئاً غير القرآن، و لم يكن كل واحد منهم يحفظه كله، يمكن أن تدوّخ كل هذه الأمم و تسودها و تسوسها، من ساحل المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى، و تخضعها لدينها و لغتها بالسيف»!

و نقلاً عن الشيخ محمد عبده فيما رواه له عن موقف الأفغاني، يستطرد رضا: «لكن المسلمين ابتدعوا في الاسلام بدعاً كثيرة، لم يمكن تداركها بسبب فساد نظام الخلافة و إخراجها عن أصلها الذي يُشترط فيه العِلم الاستقلالي و العدالة. و بهذا الابتداع الذي صار إسلام القرآن فيه غير إسلام المنتمين إليه، أضاعوا العلم به، ثم عادوا كل علم، حتى صاروا إلى ما كان يسعى السيد (جمال الدين) لتلافيه و تداركه. فكأنه يقول لرينان: كلُّ ما ذكرت من عداوة الاسلام للعلم، مما تكثر الشواهد عليه في التاريخ و إن كانت قليلة في عهد الإسلام بالنسبة إلى غيره من الأديان، فهو الإسلام الذي فهمه خطأً أولئك الذين عادوا العلم و العقل و الحضارة، لا إسلام القرآن الذي يخاطب العقل و يرفع شأن العلم في آيات كثيرة، و يبيِّن أن للّٰه سنناً في الكون قام بها نظامه، و أن هذه السنن لا تبديل لها و لا تحويل»[2].

و عمل رضا على الربط بين ما جاء في (الرد) و بين كتاباته السابقة سواء في «العروة الوثقى» أو في غيرها ليجد أن ثمة تناقضاً كبيراً فيما بين الاثنين. و يذكر نقلاً عن محمد عبده أن جمال الدين لطالما ردَّد في مجالسه الخاصة بالقاهرة أن «الاسلام الممزوج بالبدع هو ذلك الذي اضطهد بعضُ أهله رجالَ العلم». و إذ اعتبر رضا أن الرد

---

١. الأزمنة، مصدر مذكور، ص ٦٢.

٢. مجلة «المنار» ج ٤، ص ٢٠٦.

يكون تفنيداً لا تأييداً مثلما درجت العادة أكد على أن الأفغاني نبّه رينان إلى «أن المسلمين قد وُجد منهم كغيرهم في نشأة الاسلام الأعجمية في النصف الثاني من حياته ما خنق الحركة العلمية. فكل ما أسنده إلى الاسلام موافقاً لرينان يُرادُ به الاسلام الأعجمي المشوه بالبدع، لا الاسلام العربي المنصوص في القرآن و السنن، و إلّاكان كلامه متناقضاً»[۳].

و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الأمير شكيب أرسلان (۱۸٦۹ ـ ۱۹٤٦ م) و هو الذي عرف الأفغاني في أواخر حياته بادر إلى الادلاء بدلوه، فوجه رسالة إلى رشيد رضا مؤرخة في ۱۲ أيار ۱۹۲٤ م يشرح فيها موقفه من هذه المسألة. و مما قاله ارسلان: «... و الذي أظنه هو أن السيد جمال الدين حرر رده على رينان بالعربية، ثم دفعه إلى مترجم مثل أنيس شحادة أو غيره (تبين فيما بعد أن مترجم الرد هو خليل غانم نفسه) لأجل أن يضعه في قالب فرنسي، فالمترجم، الذي لا أقدر أن أعرف من هو، ترجم بعض كلمات جمال الدين بغير ما يجب أن يترجمها به، و تصرف في التعبير. و ربما كان المترجم هو نفسه متشيعاً بفكرة رينان، غير مقتنع بكلام جمال الدين، فلم يتقيد بالمتن الجمالي التقيُّد الكافي، و لا أدى الأمانة في النقل حقها. فوقعت هناك ألفاظ لو فهم السيد جمال الدين حقيقة مرماها لأنكرها و غيَّرها في حينها... فلا عجب أن تكون الترجمة الفرنسية التي صدرت تحت إمضاء جمال الدين تفيد أشياء لم يُردها هو. و من تأمل في كون هذه المقالة ظهرت في جريدة «الديبا»، وكان يعلم دأب هذه الجريدة من دس السم في كل ما يتعلق بالإسلام، قلَّ عجبه مما يكون قد ورد في مقالة جمال الدين مما لا يطابق ما سمعناه منه»[٤].

***

سوف نحجم هنا ـ ولكي لا نُثقل على النص و على القارىء معاً ـ عن الإسراف في جَرْد كل أو أغلب الأصوات التي جاهرت بالدفاع عن جمال الدين الأفغاني. يكفي أن نضيف إلى محمد رشيد رضا و شكيب أرسلان، و هما رمزان كبيران من رموز النهضة في القرن التاسع عشر و أوائل هذا القرن، أحمد أمين الذي كتب سلسلة من المقالات في مجلة «الثقافة» ضمَّنها دفاعاً موضوعياً، مدَّعماً بالحجج و القرائن، عن الأفغاني[٥]. و نستطيع أن نضيف أيضاً محمد حامد اللّه الذي كتب مقالة هامة عام ۱۹۵۸ م بالانكليزية عنوانها: «أرنست رينان و جمال الدين الأفغاني: ممثلان رئيسيان لثقافتين» حيث حاول البرهنة على أن رينان (اختلق) رد الأفغاني عليه. و قد انطلق حامد اللّه في محاولته تلك من أن ثمة مقتطفات و عبارات في ما سمي بـ «رد الأفغاني» يستحيل أن تصدر عنه...[٦]

۳. المصدر السابق، ص ۳۱۵.

٤. أمير البيان شكيب أرسلان، أحمد الشرباصي، مطابع الكتاب العربي، القاهرة، ۱۹٦۳ م، ص ٦۵٤.

۵. انظر: أحمد أمين، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، ۱۹٦۵ م، ص ۵۹ ـ ۱۲۰.

٦. سمير ابو حمدان: جمال الدين الأفغاني و فلسفة الجامعة الاسلامية، ص ۱۵۷ ـ ۱۷۰.



الاسلام و العلم

فاعتبروا يا أولي الأبصار



الاسلام و العلم

فاعتبروا يا أولي الأبصار

إن رنان الفيلسوف قد ألق في باريس، كرسي الحرية، خطابا جعل موضوعه الاسلام و العلم، و أظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. و ما حاد في خطابه عن سنة الأدب، و ما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي بها وجوب احترام الأمم في ما تنتحله دينا.

و مع ذلک فقد امتعض كثير من عظماء الأمة الفرنسوية و تجهموا من مقاله، وحسبوه خروجا عن النصفة، و مروقا عن محيط العدل في الحكم، و تعديا على حقوق من يجب رعايته عليهم من المسلمين عموما، و سكان الجزائر و تونس خصوصا، حتى قام من هذه الأمة الشريفة من له الكلمة العالية في الحكومة، و كتب مقالة تذمّر فيها من خطاب رنان، و بيّن هفواته، و أقام الأدلة على سقطاته، وذاد عن الديانة الاسلامية، و دافع عن المسلمين، و أبان ماكانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب و الفلسفة. و ما دعاه الى مقالته هذه إلا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها، و حسن السياسة. و ما يقدر هذا الكمال أحد حق قدره إلا إذا نظر إلى الأمّة الانكليزية، و تتبع معاملاتها مع المسلمين في الهند. إن الانكليز تحكم خمسين مليونا

من المسلمين. و لاترى لهم على نفسها حقا، و لا يختلج ببالها و جوب مراعاتهم، و لا احترام ديانتهم. إن قسس الأبروتستانت المغرورين يقومون في شوارع البلاد الهندية على سوقهم، و يطعنون في الديانة الاسلامية طعنا تقشعر منه الأبدان، و يفتعلون من الأراجيف ماتصطك منه الآذان، و يختلقون أقوالا يستبشعها الأوباش، و ينسبون الى سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم في رسائلهم من الشنائع و الفظائع ما تنبو عنه الطباع. و كل هذه بمرأى من الحكومة، و مسمع من الأمة الانكليزية. و ما تسمع من أحد منها إنكارا، ولاترى في وجوهها من هذه التعديات اغبرارا.

و ميزان الحق، والمسيح الدجّال[1]، و غيرهما من الرسائل المحشوة بالسب و الشتم و القذف في شارع الديانة الاسلامية تنبئک عن كيفية معاملة الإنكليز مع مسلمي الهند، و نهج مراعاتهم. و إذا قام أحد من علماء المسلمين لأن يعارض هؤلاء القسس* بكتب رسالة، أو إلقاء مقالة يُلق عليه القبض بدعوى إثارة الفتنة، و يرسل بلا محاكمة الى جزائر أندمان[2]. إن المولوي رحمة الله الهندي ماهرب إلى مكة المكرمة إلا بهذه التهمة التي تسببت عن المباحثات الواقعة بينه و بين القس فندرک الأبروتستانتي. و إن جواد الساباط ما فرَّ ليلا من الهند إلى جاوة إلا لتأليف البراهين الساباطية ردا عن دينه وردا لأراجيف القسس الانكليزية.**

فأنظر أيها البصير الى التفاوت الكائن بين هاتين الأمتين، و أنصف.

---

۱. ميزان الحق و المسيح الدجال عنوانا كتابين فى التبشير المسيحي في الهند في ذلک الوقت.

* المراد: القساوسة ـ كما هو الدارج اليوم.

۲. كانت هذه الجزر النائية في المحيط الهادي مكانا ينفى إليه الأحرار الهنود و زعماء المسلمين.

** ظهرت هذه المقاله للسيد جمال‌الدين الحسيني. بجريدة «البصير» فى ۳ مايو ۱۸۸۳ م.

٢٢

وثـائق

نصوص غير منشورة بالعربية لجمال الدين الافغاني

نقدم في الصفحات الآتية، الترجمة العربية لواحدة من مقالات ثلاث منسوبة الى جمال الدين الافغاني احدى ابرز شخصيات القرن الفائت والمؤسس الحقيقي لاتحاد الإسلام السياسي، واحدى الشخصيات التي لعبت دورا نكاد لا نجد له مثيلاً في تلك الفترة الصاخبة والمعقدة من حياة العالم الإسلامي في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر.... المقالات الثلاث نشرت بالفرنسية، حاملة توقيع الشيخ الافغاني على ثلاث حلقات في جريدة «المتصلب» L'Intransigeant التي كانت تصدر في باريس بإشراف وادارة اللبناني خليل غانم. وقد خرجت هذه المقالات في الفترة ما بين ٨ و١٧ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٨٣، اي بعد عام ونيف من بدء الاحتلال الانكليزي لمصر.

المقالة الاول

الصفحة الاولى، من مقال السيدجمال‌الدين، حول المهدى

مجلة «اليوم السابع» باريس ١٩٨٥ م

باب ما يؤول اليه امر المسلمين في المستقبل

اذا نظرنا الى الحالة الراهنة رأينا انه قد آن الاوان للتكلم في مستقبل الاسلام فان انحطاطه
في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشرع من يوم حصار ويينه وبانه في سنة ١٦٨٧ لم يزل يظهر
شيئاً فشيئاً حتى بلغ اواخر القرن الاخير اي عهد السلطان محمود الثاني الذي بلغت رجال
دولته اعلى درجة في التأخير وتملكت بعد الانكليز والمسكوف والفرنساويين على كثير من
المسلمين وبقي معظم اهالي الاسلام يتخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت
صواعق الافلاس والحروب الباطنية والحروب الخارجية التي تخشى من حصولها النظر فيها
فضلاً عن الهزيمة على ان تلك المملكة التركية هي التي ورثت الملك من الخلفاء الذين رأت
لهم الارض بأجمعها وخضعت لها ممالك اوربا بحيالها ودونها في الآن حصن غير
منيع لحفظ شوكة الاسلام ووقاية واهية للتجمع والالتئام

فالمسألة الآن بما يؤول اليه امر المسلمين وهي في ظلمات من تقلب الاحوال وضيق من عدم
تحقق الآمال افنجزم بالكلية انه يقال ان هذا الدين يتلاشى وانه اخذ زهره ومضى او نخطر
بالكليات فيما للكفاية لتنظيم احواله ورجوعه الى القوة مثل ما كان ويكون معيناً على نشر التمدن
في جميع اقطار الدنيا فهاتان مسألتان خاصتان بحال الاسلام وما يؤول اليه امره بالنسبة
لانصلاح شؤونه في المستقبل وبالنسبة لرعاياه النصارى الذين تحت حكومة الاسلام وهما
تان المسألتان لهما دخل عظيم في المسألة الشرقية التي لا تحول ولا تزول لتعضيد كل منهما لابد من
فلا وجه للمجاوبة عنهما بوجه الايجاب لان الدليل الاقوى
دخوله في مسألة الاديان وقال المؤلف فوفظ ان الدين قاصر على الزمن الذي ظهر فيه
وان الاديان سترتفع من الارض بعد ان تنتشر المدنية على جميعها وان اخر دين اكثر تنقيحاً
من باقيها الاديان التي تقدمت وان التعليمات التي تحصل في الدنيا لابد لها من دين جديد
فاذا كان هذا الدين هو دين الاسلام يلزمنا ان نتوقع زمن ظهوره على الاحوال التي
حصلت في الدنيا وتناهي قواعده بقواعد الاديان المتقدمة ثم نبحث في الثمرات التي حملتها
التواريخ ونطلع على اسباب انحطاطه في هذه الايام واذا تأملنا في الاسباب الموجبة للانحطاط
ظهر لنا انها ناشئة من عدم موافقة ذلك الدين للتقدم والتمدن الحاصل في هذا الزمن فاذا
امعنا النظر في درجات تلك المسألة رأينا الاسلام ظهر بعد النصرانية بستمائة واثنين وعشرين
سنة فكانت قواعده اعلى درجة من دين النصرانية

وعندنا دليل اخر وهو ان الدينين ظهرا في ارض واحدة وان الدين النصراني سقط في بلده

الصفحة الاولى من مقال: باب مايؤول اليه امر المسلمين

ان بهذا الزمن مساعد لذلك اذ لا وجود للمماليك والانكشارية الذين
عطلوا السلطان محمود في زمنه سيما المسلمين الآن رغبة عظيمة في معرفة العلوم
الاوروباوية فاما عندنا مدرسة فتحت مجانا في محروسة مصر منذ ثلاث سنوات
وبلغنا عند افتتاحها ان التلامذة والمعلمين هرعوا اليها ولم يكن يبقى الا
ثلاثمائة طالب فوجد عدد الذين دخلوا فيها يوم فتحه يبلغ سبعمائة ومعلوم
مثل ذلك حيث امرت الحضرة الخديوية بفتح مدرسة للبنات وكانت
اول مدرسة فتحت في مصر وما كان يؤمل انها تنجح فبعد يوم واحد عدد
الوارد فيها لقدر المطلوب ثلاث مرات فمن نظر الى ذلك بعين التأمل
رأى نتيجة عظيمة لانا لو لا بالقتال فنشر التعليم خصوصا بين
الناس لا شك انه يؤول امره الى فصل مشكل المسئلة الشرقية
ولا يحتاج الامر فيها الى قتال ولا نزال لان سيف التعليم امضى من
سيف المحاربات ولنضرب هنا مثلا بالارض المزروعة
باتيها الشتاء فيستر زرعها بالثلج فترى كالميت واذا اتى عليها الصيف
وذابت الثلوج اخرجت زخرفها وازينت فكذلك الاسلام اذا
التفت الى معرفة العلوم والفنون وادرك الدرجة العليا في التقدم
كان عزه قويا ومستقبله مرضيا ان الله على كل شيء قدير

تمت بخط احمد الحكيم
الازهري البحراوي
الحنفي
كتبت هذه المقالة
في شهر صفر الخير
سنة ١٢٩٤

نسخه فتوكپی از این مقاله سید
جمال‌الدین اسدآبادی به لطف
آقای حسن محجوب مدیر کتابخانه مجلس سنا
اخذ شد. این سند در بین اوراق خطی
کتابخانه مجلس سنا بدست آمده است
(۱) ۱۳۵۲/۲/۵ - تهران
خسروشاهی

الصفحة الاخيرة من: باب مايؤول...

۱. نسخه فتوکپی از این مقاله سیدجمال‌الدین اسدآبادی، به لطف آقای حسن محجوب مدیر کتابخانه مجلس سنا اخذ شد. این سند در بین اوراق خطی کتابخانه مجلس سنا بدست آمده است. ۱۳۵۲/۲/۵ تهران: خسروشاهی

«أحرار» يقتلون الحرية

الخديوي أعلن تأييده للاحتلال خوفاً على العرش

مصر باب الشرق وفيها لم يخمد العصيان

الصفحة الاولى من مقال: احرار يقتلون الحريه... مجلة «اوراق»

بابية[1]

دين ظهر في بلاد العجم نحو سنة ١٨٦٢ بدعوة رجل من اهل شيراز يُعرف بالسيد علي محمد وكان تلميذاً لبعض تلامذة الشيخ احمد زين الدين الاحسائي الذي مزج التصوف والفلسفة بالشريعة وجمع بين اعتقادات الشيعة الامامية والاصول الفلسفية على طرز جديد وقال ان المهدي الغائب المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني سماه جابلقا وجابرسا وان اجسام سكان ذلك العالم الروحاني كاجسام الجن والملائكة المسماة بالاجسام الهورقليائية وهي من اصطلاحات الكيميا القديمة وقد قفاه على هذا الاثر تلامذته وقاموا في مقام التعليم على منهج الطريقة وكان من امر السيد علي محمد المذكور بعد ان حج الى مكة ان ادعى انه باب المهدي وانا على تقرير هذه الدعوى مدة وليس ذلك الدين من عناصر اسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية ولقب نفسه باب الدين ثم ترك هذا اللقب ولقب نفسه النقطة او خالق الحق مدعياً انه ليس نبياً بسيطاً بل هو مخصص للالهة ولقب احد اتباعه لقب الباب وارسل دعاة الى جهات مختلفة ثم بناء على قول مقتداه الشيخ احمد المذكور في امر المهدي ادعى ثانياً انه المهدي بعينه وان ذلك الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هذا الجسم الكثيف المادي ولما كانت الرجعة اي رجوع بعض الائمة السابقين وتابعيهم من الاصول الثابتة في مذهب الامامية والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة كان له بقايا في النفوس فقام جماعة من اتباع هذا الرجل اعني السيد علياً وادعى بعضهم انه الحسن وبعضهم انه الحسين وبعضهم انه غيرهما من الائمة وتابعيهم ومبدأ هذه الدعاوى عندهم رأيٌ رآه هذا الرجل نفسه وهو ان شخصية الشخص اي باعتبارها يتمايز عن غيره ويقال احمد خاصاً يوكس او حسين مثلاً انما هي صفاته واخلاقه التي يكون عليها فمن وجدت فيه صفات شخص واخلاقه واحواله على وجه تام فهو هو في اي زمان كان. واقرب هذه الاعتقادات من مذهب الطائفة الشيخية من الشيعة وهم اتباع الشيخ احمد زين الدين المذكور آنفاً لبّى دعوة هذا الرجل كثير من اهالي بلاد العجم المتمذهبين بذلك المذهب الجديد. فلما رأى اقبال الناس عليه واجابتهم دعوته ترقى في دعواه فقال انه هو النبي وان الله قد انزل عليه كتاباً يسمى بالبيان وانه المشار اليه بقوله تعالى خلق الانسان علّمه البيان. والانسان هو محمد والبيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد علي. وكتابه هذا يحتوي على كثير من العربي المحرّف وبعض الفارسي الا ان العربي منه كان ملحوناً فلما سئل عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل مع ان اللحن نقصٌ اجاب بان الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة في الزمن الاول فعوقبت على خطيئتها بان قيدت بسلاسل الاعراب وحيث ان بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فاطلقت من قيدها تذهب الى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط. وما ينسب اليه انه كان

الصفحة الاولى لمقال البابية. (قسمت اول مقاله دربارهٔ بابیگری)

1. Babisme

الباب فهو عنده اعظم من محمد كما ان محمداً اعظم من عيسى وفرض الصوم شهراً من آخر الحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز وهو اول الحمل . ومن احكامه انه يجب محو جميع البقاع المقدسة كمكة وبيت المقدس وقبور الانبياء والاولياء عند حصول اول سلطة لاحد منهم عليها ويحرم شرب الخمر وكذا الدخان على عهده وحلله اتباعه من بعده ويستحب شرب الشاي تبركاً حتى ان من شربه يقال جرعة الباب ومنها انه يجوز العقد على اثنتين فقط والشراء والمتعة بغير حصر وعلى ما يقال انه يجوز نكاح الاخت . ومنها ان من كذب في قول او نادى شخصاً من عقلاء فقد اساء وكفارته اعطاؤه ثلثة مثاقيل من الياقوت فان لم يجد فصيام يومين . ومنها ان شهداءهم الذين قتلوا في طهران وغيرها يجب ان يبنى لهم مشاهد مكللة بانواع الجواهر وانه يجب على اي سلطان يكون منهم ان يضع سيفاً في العالم فاما الدعوة او الموت ولا يجوز اخذ الجزية . وانه يجب على كل واحد منهم ان يكون عنده كأس من الفضة وثوب نظيف فاما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافي واما الثوب فيتجمل به عند الفراغ وانه يجوز ان يظهر بعده كامل آخر لكن بعد ان يمضي من السنين عدد حروف المستغاث يعني الفي سنة وكسوراً . ويحظر في مذهبهم اتخاذ السراري والطلاق واستعمال النساء للنقاب ويصح ان يقال ان دينهم الى الآن لم يقرّ على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلاً في محل ثم تنتقل وتحدث تلاً آخر بشكل آخر في محل آخر

وكان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلمة من بنات احد المجتهدين في العجم وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بذلك الرجل عن حب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك وكانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ثم لما نشبت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة في مازندران خرجت حينئذ وقادتها مكشوفة الوجه وسارت امام طائفة اعوانهم وفي اثناء الطريق قامت في الناس خطيبة وقالت ايها الناس ان احكام الشريعة الاولى اعني المحمدية قد نسخت وان احكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الآن في زمن لا تكليف فيه بشيء فوقع الهرج والمرج وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح ثم قبض عليها وألبست البرقع جبراً وحكم عليها بأن تحرق حيةً ولكن الجلاد خنقها قبل ان الهب النار بالحطب الذي أعدّ لاحراقها

ومن احكام هذا المذهب انه لا يجوز ان يضرب المعلم تلميذهُ اصلاً وان الزكوات والصدقات لا يجوز اعطاؤها لغير البابيين فان فقد فقير في البابيين تصرف على من بقي على مذهب الشيخ احمد زين الدين الاحسائي

واما نسبتهم الى الاباحية (الكمون) فهذا من لوازم مذهبهم حيث ان كل من خالفهم في معتقدهم فدمه وماله هدر . واما تشاركهم في الاموال فهو من مقتضيات كل دين او مذهب جديد اذ يتعاون اهله ببذل جميع ما بايديهم ويرتفع الهجر والحرج بينهم . فهذا ما رواه عنهم السيد جمال الدين الافغاني المشهور وغيرهُ

(قسمت آخر مقاله سید درباره بابیگری)

دائرةالمعارف، قاموس عام لکل فن و مطلب، تألیف: المعلم بطرس البستانی، ج ۵ ـ دارالمعرفه، بیروت صص ۲۸ـ۲۶



جريدة - ابو نظارة زرقا - المتضمنة مقال الافغاني

الصفحة الاولى من مقال السيد، المنشورفي فصلية «اوراق» و فيها الصورة الاصلية لجريدة «ابونظاره الزرقاء المتضمنة للمقال

هذه مقالة عربية [illegible]

ان العجب هو عدو الناس الى الكبر والكبر سبب للنظر الى سائر الناس بالحقارة وجعلهم اشياء
غير مطلوبة والعجب من عوارض النفوس الصغيرة ومن لوازم العقول الضائقة دائما ادراكها
لان من يكون ادراكه وسيعا وافكاره عالية يعلم ان للترقي مراتب لا نهاية لها وكل مرتبة من
المراتب معنوية كانت او صورية غير متناهية ولا تنكشف هذه الامور على احد في كل مرتبة
كان لا ينظر الى ما فوقه لم يحصل له الا القصور والاعتراف على نقصانه ان الانسان
لم يحصل له كمالا ما والقوة نهاية والغاية ثروة نهائية ثم ان يكن احد عجب
معجبا بنفسه ليستقبل الى النقص في المراتب لم يكن سببه الا عمايته وعمهه لانه يكون
يزعم ان عقله فوق جميع العقول فلهذا التفوق نفسه على غيره وضعف [illegible]
والحظ ما نقصه بصيرته الى نية بعض من [illegible] الانسان فيه ويحصل له الشنآن والكره
بحيث لعقله اعمالا غير مستحسنة ويكون بين سائر الناس ما دام مقام هذا العجب والكبر
وما يحصل للانسان بسبب العجب ان اول مضرته انه يمنع للانسان من وصوله الى مراتب
كمالات غير متناهية ويزيل القوى من العقول من طلب المعالي ومتى يوجد في الانسان هذين الخصلتين
يجبره على الوقوف ومضرة اخرى انه يدعو جميع الناس على العداوة وهو يقطع سلسلة [illegible].
هذا شأن [illegible] وهو يسقط هذه [illegible] في زاوية الوحشة والدهشة مغلول اليدين
يحبس والعجب انما نرى في بلدنا لكثرة الناس من التكبر لا يمكنهم القيام في عالم [illegible]
على [illegible] الخطر من العجز والمظلمة على [illegible] للارض ومع هذا لا يجد.
فيهم من يرى داعيا الى هذه كله الا النظر الى هؤلاء الناس في [illegible] وصفهم
رجالهم على رجليهم [illegible] للذلة والسوق والانظر الى الذين [illegible]
ووضعوا قلنسوة [illegible] في [illegible] على [illegible]
لا سبب يعملون [illegible]

العُجب ـ مقال بخط السيد...

وهل كشفنا سراً من الاسرار سيما ان اسرار هذا ما رأى الملك وهل عرفنا تركيب الكون

تركيب الذرات ام هو بسيط ام هو بالبستان او غرز لطف او بسيط ام كثيف

او كالبلبل ام لا بل اخترع سلك البرق او ~~اكتشف الكهرباء~~ او نبت السكة كهربة هذا العجب

وهذا التلكرافي الذي لا يعهد له وان كان الانسان شعوراً او كان لحشرة غيرة يتعجب

من الحجلة واما الحشرة تعيش في زاوية من لا تعرف غيرها وهذه الصفة السيئة توجد قليلاً

الا في الشرق

القسم الاخير عن مقال السيد حول «العُجب»



الفهارس

الآيات، الاماكن، الاعلام

فهرس الآيات

الاعلام

الاماكن

بانی نهضت بازگشت به اسلام

... «سیدجمال» فریاد می‌زند تا مسلمانانی که در تمام آسیا و آفریقا بردهٔ چهار تا کلنل انگلیسی و فرانسوی و پرتقالی و ایتالیایی و اسپانیایی هستند، آزاد بشوند و رهایی یافته، به اسلام و قرآن بازگردند.

فریاد می‌کشد به اسلام جهاد بازگردیم تا از این ذلت و بدبختی بیرون بیاییم. قرآن را دوباره بگشایید و بخوانید و استعمار را بکوبید. «او» مثل روح ملتهب و مجروح در **هند**، **اروپا**، **ایران و ترکیه** می‌چرخد و فریاد می‌کشد و خوابها را می‌آشوبد! **مصر** خواب‌آلودی را که در زیر بار بردگی و استعمار و ذلت به مرگ نشسته بود چنان بیدار می‌کند که **انگلستان** در یک روز چند بار کابینه تشکیل می‌دهد.

«سیدجمال» نه تنها به عنوان یک مصلح اسلامی، بلکه در چهرهٔ یک انقلابی ضداستعماری در دنیای اسیر برخاست و فریاد بر آورد و اولین کسی است که **نهضت بازگشت به اسلام نخستین** و شعار رنسانس اسلامی در عصر جدید و در سطح تمدن واندیشهٔ این زمان و این نسل، مطرح کرد و اولین کسی است که با تکیه بر مذهب اسلام جنبش ضداستعماری و آزادی‌خواهی و نهضت رهایی بخش دنیای اسلام را آغاز کرد و این افتخار و پیروزی بزرگی بود...

«سیدجمال»، مردی که با استعمار غربی که در اروپا اسلام را لجن‌مال کرده با استعمار فرهنگی و فکری مذهب را در دنیا نابود کرده با دانشمندان وابسته به کلیسا که علیه پیغمبر اسلام به فحاشی و سمپاشی دائمی مشغولند و با مادّیونی که اصولاً ریشهٔ خداپرستی را می‌زنند، یک تنه وارد مبارزه‌ای بی‌امان می‌گردد و بزرگ‌ترین مدافع اسلام می‌شود، اما از پشت خنجر می‌خورد و مطرود و تنها می‌شود... دشمن با حربهٔ فحش و تهمت به میدان می‌آید، معلوم می‌شود که خلع سلاح شده است. اما ۴۰ سال بعد فریادش اوج می‌گیرد و در تمام کشورهای اسلامی نهضتهایی پدید می‌آورد که هرگز فرو نمی‌نشیند...»

دکتر علی شریعتی



مرکز پخش: کلبهٔ شروق. تهران. خیابان انقلاب. مقابل دانشگاه. شمارهٔ ۱۳۷۸.